الدكتور أحمد نصري
أستاذ التعليم العالي بجامعة الحسن الثاني
كلية الآداب المحمدية
المغرب

آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم

- دراسة نقدية -

الطبعة الأولى

الدكتور أحمد نصري
أستاذ التعليم العالي بجامعة الحسن الثاني
كلية الآداب المحمدية
المغرب

آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم

- دراسة نقدية -

الطبعة الأولى

الكتاب: آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم
المؤلف : الدكتور أحمد نصري
تاريخ النشر : 2009
الطبعة الأولى
المطبعة : دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع
الهاتف / الفاكس : 037299490 الرباط

رقم الايداع القانوني: 2008/2737

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحق الحق ونصر أهله وأبطل الباطل وهزم جنده ، والصلاة والسلام على رسول الله

المقدمة :

لقد جذب القرآن الكريم بطريقته المثلى في عرض عقيدته وشريعته وبأسلوبه المتفرد في صياغة أفكاره ومبادئه، اهتمام كثير من المستشرقين، ويعود سر ذلك الاهتمام إلى الأسباب الآتية:

أولا: أن القرآن قدم حقائق تخالف ما جاء في التوراة والأناجيل خاصة ما تعلق بالتوحيد، ونبوة عيسى عليه السلام.

ثانيا: أن القرآن أنكر فكرة شعب الله المختار، وفكرة الأقانيم الثلاثة وألوهية عيسى وقتله وصلبه ومسألة الخطيئة والفداء.

ثالثا: أن القرآن اتهم الأحبار والرهبان بتحريف التوراة والأناجيل عن أصولها.

رابعا: أن القرآن صحح بعض الظواهر الفاسدة في المجتمعات الإنسانية كالرق والإقطاع والربا والزنا...

خامسا: أن القرآن أعطى حلولا شافية كافية لمشاكل ومسائل عجزت اليهودية والمسيحية عن إبداء مجرد الرأي فيها مخافة الحرج وكشف الزيف والتحريف، تقول المستشرقة الإيطالية **لورافيشيا فاغليري:** " **لقد أزال الإسلام السرية التي أضفاها الآخرون على دراسة الكتب المقدسة** "(1).

سادسا: إعجاز القرآن في مبناه ومعناه، وفي أسلوبه وهديه لجميع الثقلين على امتداد الزمان والمكان.

تأسيسا على ذلك، شمر المستشرقون من الغرب والشرق على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم الفكرية على محاربة القرآن وذلك لتحقيق هدفين رئيسين:

---

[1] – دفاع عن الإسلام، ص 47، نقله إلى العربية: منير البعلبكي .

الأول: الحيلولة دون تسرب مبادئ القرآن وأفكاره إلى بني جلدتهم فتفقد التوراة والأناجيل مصداقيتها ومشروعيتها

الثاني: التقليل من قيمة القرآن، والتوهين من شأنه عند المسلمين حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الصليبية الغربية، والصهيونية العالمية، ولقد أشار **جلادستون** إلى هذه الحقيقة في قولته المشهورة: **"مادام هذا القرآن موجودا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون في أمان "**[2].

ومن أجل الوصول إلى هذين الهدفين، ظهر لهم أن يدرسوا القرآن الكريم دراسة شاملة، قبل البدء في مكافحته، لاكتشاف خباياه واستكناه أسراره، واستقصاء موضوعاته، واستجلاء أسلوبه، ثم يجعلون من تلك الدراسة معاول يضربونه بها، يقول المبشر " **تاكلي** ": **" يجب أن نستخدم القرآن، وهو أمضى سلاح في الإسلام، ضد الإسلام نفسه، حتى نقضي عليه تماما، يجب أن نبين للمسلمين أن الصحيح في القرآن ليس جديدا وأن الجديد فيه ليس صحيحا "**[3].

وهكذا حارب المستشرقون القرآن الكريم حربا جربوا فيها كل أنواع التهم والشبهات والمطاعن، فتارة يطعنون في نسبته إلى الله سبحانه وتعالى، والزعم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد افتراه، وتارة بالتشكيك في تعاليمه، والخروج على آدابه، وتارة بعدم صلاحيته للحياة، وقصره على العبادات من صلاة وزكاة، وتارة يتهمونه بالتناقض، وتارة باللحن، وتارة بفساد النظم، وأخرى بإنكار الإعجاز، إلى ما شاء الهوى من ألوان التهم[4]. وظلت هذه التهم تنتقل من جيل إلى جيل، وتظهر من وقت إلى آخر كلما خفت حدتها أثاروها

---

2 – أنظر: الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد، ص 39، ترجمة: د. عمر فروخ .

3 – أنظر: التبشير والاستعمار في البلاد العربية لمصطفى خالدي وعمر فروخ، ص 40 .

4– أنظر: قوى الشر المتحالفة الاستشراق التبشير الاستعمار وموقفها من الإسلام والمسلمين لمحمد محمد الدهان، ص 34، و الإسلام بين الإنصاف والجحود لمحمد عبد الغني حسن، ص 94 – 95.

ثانية وأعادوها جذعة – كما يقول المثل العربي -، بأسلوب منمق مهذب وكأنها وليدة اللحظة .

ولم يترك المستشرقون منفذا للطعن إلا ولجوه ولا موضعا للعورات إلا تصيدوه، يقول **محمد عبد الغني حسن**: " **وكل ناحية من نواحي القرآن لا تسلم من اتهامات المبطلين وادعاءاتهم حتى القصص القرآني كان موضعا للتشكيك فيه** "[5] .

ويمكن تصنيف هذه الاتهامات والادعاءات تحت ستة نقط رئيسة وهي:

أولا: إنكار مصدر القرآن الرباني، واعتباره من عمل محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: الادعاء بأن القرآن حرف بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم

ثالثا: البحث في الحروف التهجي في أوائل بعض السور، والادعاء أنها اختصارات لأسماء مالكي النسخ التي استخدمها زيد بن ثابت لجمع القرآن في مصحف واحد كما قال بذلك المستشرق المجري **جولد زيهر** [6] .

رابعا: القول إن القرآن ليس بنظام مجتمع كامل، وإنما هو محاولة للإصلاح .

خامسا: القول أن القرآن أسير للسجع والقافية [7] .

سادسا: هناك نقطة محورية في بحوث المستشرقين القرآنية وهي ما يتعلق ب"**تقسيم القرآن إلى مراحل**"، حيث انبرى لمعالجة هذه النقطة كثير من المستشرقين، بل منهم من كرس جهوده كلها لدراستها دراسة مستفيضة، ويأتي على رأس هؤلاء المستشرق الفرنسي " **ريجي بلاشير**"، من خلال كتابه "**المدخل إلى القرآن Introduction au Coran**".

---

5 – المرجع السابق، ص 105 .

6 – مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: د. عبد الحليم النجار .

7 – Théodor Nõldeke , Remarques critiques sur le style et la syntaxe du Coran.

ومؤدى هذه النظرية أن القرآن من حيث موضوعاته وأساليبه ينقسم إلى أربعة مراحل، المراحل الثلاثة الأولى مكية والرابعة مدنية، ولكل مرحلة من هذه المراحل الأربعة مميزات وخصائص.

عموما، لقد كانت هذه أهم الآراء الاستشراقية حول القرآن الكريم، ولازالت هناك آراء أخرى تثار بين الفينة والأخرى، والغريب في الأمر أن نجد نفس الآراء تتكرر في كتابات المستشرقين قديما وحديثا، لا يستثنى من ذلك مستشرق دون آخر، أو مدرسة دون أخرى، بل الأغرب من ذلك أن تجدهم يسلكون نفس المنهج ونفس الأسلوب في عرض آراءهم، يقول **محمد عبد الغني حسن**: **" قل أن تقرأ لباحث غربي أو مستشرق مؤلفا في الإسلام أو يتصل بموضوع الإسلام من قريب أو بعيد إلا وجدت فيه هنا وهناك مغامز، وعثرت بين السطور على أشياء خفية يحاولون بها غرضا معينا، ويدبرون أمرا موسوما، وكأنهم – إلا قلة نادرة من منصفيهم وأهل العلم الحقيقي فيهم – جميعا على هدف واحد، ويجتمعون على غرض واحد، ينسون في سبيله مقتضيات العلم وما يتطلبه من الإنصاف والحيدة وعدم التحيز، والبعد عن التعصب، وابتغاء وجه المعرفة وحدها، وبهذا يشوهون قدر العلم، ويجعلون القارئ على جانب من الحذر دائما منهم، لما يثيرونه من ريب حول أغراضهم من الشك في سلامة طريقتهم ونياتهم "**[8].

واللافت للنظر أن تجد بين المستشرقين من يتناول في دراسته حضارة الإسلام والفكر الإسلامي، بكل عدل وإنصاف وموضوعية، إلا أنه حالما يخوض في دراسة القرآن وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، تجده يغير جلده ولهجته ويفقد صوابه ويتحول قلمه إلى معول للهدم ولسانه إلى رأس أفعى تبث السموم هنا وهناك، يؤكد هذه الحقيقة **محمد محمود الصواف** بقوله: **"إن المستشرقين ليفقدون أعصابهم وينسون مقامهم العلمي وترتج نفوسهم وتضطرب قلوبهم حينما يشغلون أنفسهم بالبحوث الإسلامية، وأحقاد العصور هي التي ملأت الصدور، وأملت عليهم هذا الحقد والغيظ الذي لم يستطيعوا**

---

[8] – المرجع السابق، ص 5 – 6

كظمه، في كل حالاتهم"[9]، والنموذج الواضح أمامنا المؤلف الفرنسي الشهير **غوستاف لوبون** صاحب كتاب " **حضارة العرب** " الذي يعد من بين الكتب القلائل التي أنصفت العرب في كثير من المواقف، غير أن ما يتخلل هذا الكتاب من بعض الشبهات التي تطعن مباشرة في القرآن وفي شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، تجعلنا نشك في نية صاحبه في تأليف كتابه ذاك، كما أن أسلوبه لا يبتعد كثيرا عن أسلوب المستشرقين المغرضين إلا في القليل النادر، يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم: " **يجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسي الديانات**"[10]، ويقول أيضا: "**وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء** " إلى أن يقول: "**ولم يبال محمد بسن المرأة التي يتزوجها فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنها**"[11].

ويقول عن القرآن: " **وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط مع أنه أنزل وحيا من الله على محمد، وأسلوب هذا الكتاب وإن كان جديرا بالذكر أحيانا، خال من الترتيب فاقد السياق كثيرا** "[12].

هذا، وإذا ما استقصى الباحث هذه الدراسات يجد أن أغلب الكتابات الاستشراقية حول القرآن الكريم تتسم بالسمات التالية: المبالغة في الشك، وكثرة الافتراضات، والاعتماد على الضعيف من الآراء، والشاذ من القراءات، والمتشابه من الآيات، بل إنه "**إذا تعارضت مقولة تاريخية مع قصة قرآنية، فالتاريخ هو الصادق الذي لا يرقى إليه شك ولا اتهام، ولو كان على أضعف الأقوال وأقلها رجحانا** "[13].

---

9 – المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام، ص 82 .

10 – حضارة العرب لغوستاف لوبون، ص 114 .

11 – نفس المرجع، ص 112 .

12 – نفس المرجع، ص 117 .

13 – أنظر: محمد عبد الغني حسن، المرجع السابق، ص 105 .

وحين نبحث عن السبب، نجد أن المستشرقين لم يتعاملوا مع القرآن على أنه موضوع علمي تجري عليه قواعد المنهج العلمي من دراسة وبحث وتحليل مجرد من العواطف والانفعالات والمؤثرات الخاصة، وإنما تعاملوا معه على أنه متهم يقف أمام قضاته، يقول **محمد أسد: " ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته، إن بعض المستشرقين يمثلون دور المدعي العام الذي يحاول إثبات الجريمة، وبعضهم يقوم مقام المحامي في الدفاع، فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له مع شيء من الفتور "اعتبار الأسباب المخففة"**[14].

وإذا ما استبعدنا مسألة المؤثرات العقلية والعاطفية والسياسية والدينية وما إلى ذلك، نجد من المستشرقين من جمع في كتاباته عن القرآن بين البحث والتحليل والنزاهة والإنصاف، إلا أن جهله بأسرار اللغة العربية فوتت عليه صفة الموضوعية، وأدخلته في زمرة المستشرقين المتهمين، يقول **محمد عبد الغني حسن: " إنك إذا ضمنت فوق دقة البحث في باحث غير عربي فإنك لا تقدم أن تدخل عليه من ناحية أسرار اللغة العربية التي ليست لغته، ولم يحدقها وينفذ إلى كنهها نفوذ أبنائها إليها. وتلك مشكلة نلقاها عند علماء الاستشراق قديما وحديثا فأنى لهم بفهم النصوص وسبرها والوصول إلى أعماقها، وفهم خصائص العربية والإحاطة بدقائقها التي لا تتاح إلا للعربي وحده"**[15].

كل ذلك كان دافعا لي لأن أقدم هذه الدراسة حول **(آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم ـ دراسة نقدية-)**

والحق أن هذه الدراسة تأتي استجابة لنزعة موضوعية في دراسة موضوع بكر، وإن لم يكن كذلك فإن الدراسات حوله قليلة جدا، بحيث لا تحيط به إلا دراسة أو دراستان على الأكثر، كما تأتي استجابة لرغبة ذاتية بأن للأمة

---

[14] - المرجع السابق، ص 53 .

[15] - المرجع السابق، ص 7 - 8

حق في أن يعرف أبناؤها ما يقوله الآخرون عنها، وللدين على أبنائه حقوقا منها كشف الباطل الذي يجادل به أعداءه ليدحضوا به الحق، يقول **التهامي نقرة: " من حق كل أمة أن يعرف أبناؤها ما يقوله الآخرون عنها في عقيدتها وأخلاقها وثقافتها وحضارتها، كما أن من حق أبنائها المثقفين أن يتناولوا هذه الأقوال بالتحليل والنقد، لأن السكوت عنها تسليم ضمني بها"**[16].

وقد التزمت في هذه الدراسة الخطة التالية :

المقدمة وفيها عرضت دواعي اختياري لهذا الموضوع، ثم بينت أهميته، وذكرت مصادره، وحددت منهجه، مع تعريف مختزل ببعض المستشرقين الفرنسيين الذين ركزنا على آرائهم في هذه الدراسة.

الباب الأول: عرفت فيه بالاستشراق الفرنسي،وتناولت فيه الأصول التاريخية للاستشراق،وأشرت فيه إلى الدراسات الإسلامية في فرنسا، والمدى العلمي للاستشراق الفرنسي.

الباب الثاني: خصصته لبسط آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم مع تفصيل القول عن الوحي وتوثيق النص القرآني، وقد ضمنت هذا الباب أربعة فصول تندرج تحتها عدة مباحث، كل مبحث ينفرد بمجموعة من الآراء الاستشراقية حول القرآن.

وذيلت الموضوع **بخاتمة** خصصتها لاستعراض أهم النتائج التي تمخضت عنها الدراسة .

هذا، وقد أحطت بموضوع البحث، وألممت بجوانبه، وتتبعت أطرافه في مجال الدرس القرآني، وتقصيت مصادره في المؤلفات العربية والمعربة والفرنسية والإنجليزية والمنقولة إلى اللغة الفرنسية من لغات أوربا المختلفة

16- القرآن والمستشرقون، ج 1 ص 21، مجلة " **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية**"، تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض 1405هـ/1985م.

كالألمانية والرومانية، ودرست وجهات النظر المتباينة، وقارنت بينها بقدر الاستطاعة، وألزمت نفسي الإفادة من النصوص في مظانها كي تأتي أحكامي موضوعية خالصة.

وقد غلب على منهج البحث الجانب النقدي مما ناسب طبيعة البحث، وساعدني على استخلاص مجموعة طيبة من النتائج يمكن أن تكون إضافة علمية جديدة والذي لابد من الاعتراف به هنا هو أنني لم أحاول أن أفرغ أفكاري في أسلوب مشحون بعاطفة مرهفة أو انفعال شديد، فهذا الأسلوب العصبي العاطفي الانفعالي في مواجهة الخطر يجب أن يتوقف تماما لأسباب منها: أنه أسلوب لا يستطيع أن يصل من خلال الصراخ إلى شيء بناء ولا يزيد عن كونه أسلوبا لتفريغ الطاقة الانفعالية في الفراغ، ولأنه بالمقابل يعمل على شحن الشباب بطاقات حماسية انفعالية متفجرة يسد في عقولهم منافذ التفكير السليم .

أما الصعوبات التي اعترضتني في بحثي هذا فهي استقصاء مادته ومصادره، وهي بالنسبة لهذا البحث متشعبة وممتدة في الزمن. لذلك كله حاولت التركيز على أكثرها أهمية وأبعدها أثرا في الحقل الاستشراقي وفي الدراسات القرآنية دون إغفال شيء منها وبناء على هذا كان التركيز على الأسماء التالية :

1 – ألبر كازيمرسكي Kazimirski Alber (1808 – 1887):
مستشرق بولوني، تلقى تعليمه في فرسوفيا، وتخرج من برلين على يد فيلكن، ورحل إلى الشرق (1839 – 1840)، ثم استقر في فرنسا، وقد ترجم كازيمرسكي القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية سنة 1840 قدم لها **Pearson** بمقدمة تناول فيها تاريخ القرآن الكريم وترجماته، وقد غمرت هذه الترجمة الأسواق الفرنسية، بل تعدتها إلى الدول الناطقة بالفرنسية، وقد اعتبر **Bousquet** ترجمة كازيمرسكي أكثر عراقة من ترجمة **سافاري** وأيضا أكثر استعمالا .

كما أثنى عليها **مونتيه** Montet، وقال: " **لا يسعنا إلا الثناء عليها، فهي منشرة كثيرا في الدول الناطقة بالفرنسية** "، ويرى نجيب العقيقي أن ترجمة كازيمرسكي تعوزها بعض الأمانة العلمية.

2- مونتيه إدوارد E. Montet (1856 – 1927): مستشرق فرنسي ولد بليون من أصل سويسري، تلقى العلم فيها حتى عام **1874** م، فانتقل إلى جامعات جنيف وبرلين وهايدلبرج ثم أحرز لقب دكتور في اللاهوت البرتستاني من جامعة باريس 1883 .

وفي عام 1885 عين أستاذا للعبرية والآرامية والعهد القديم في جامعة جنيف، ثم أضيف إليه العربية وتاريخ الإسلام سنة 1894، ورأس تلك الجامعة (1810 – 1812) وانتدبته الحكومة الفرنسية في بعثتين علميتين إلى المغرب (1901 – 1910)، وانتخب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ نشأته.

دأب مونتيه على ترجمة القرآن إلى اللغة الفرنسية سنة 1825، ونشر بعض الكتب حول الإسلام، خصوصا كتابه "**الإسلام**" سنة 1921، وأضاف إلى ذلك مقالا عن تاريخ الإسلام في المجلة التاريخية 1913، وقد مهد مونتيه لترجمته بمقدمة تناول فيها شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، و " **تاريخ القرآن** ". أما كتابه " **الإسلام** " فقد تناول فيه كل ما يتعلق بالإسلام حيث تطرق في الفصل الثاني إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، أما الفصل الثالث فقد تكلم فيه عن القرآن وديانة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولا بأس من الإشارة هنا إلى أنه كانت لهذا المستشرق شخصية مستقلة ونظرة متميزة، فهو بصفة عامة يمتاز بنوع من الاعتدال، كما تتسم دراساته بالعمق والأصالة مع بعض الموضوعية أحيانا .

3 – هنري ماسيه H. Massé (1886 – 1969): مستشرق فرنسي، عمل في فترة مديرا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعين أستاذا في جامعة الجزائر (1916–1927)، ومديرا للمدرسة الوطنية للغات الشرقية سنة 1927، وعضوا في مجمع الكتابات والآداب، والمجمع الإيراني سنة 1938، والمجمع العلمي

العربي بدمشق، وانتدبته الحكومة للعديد من المهام الثقافية، واختارته اليونسكو في لجنة المستشرقين

لم يتعرض ماسيه للقرآن الكريم في دراسة خاصة، وإنما تعرض له بمناسبة حديثه في كتابه "**الإسلام**"، حيث ذكر في الفصل الأول المعنون ب "**ظهور الإسلام**" التأثيرات الخارجية واليهود والنصارى، وتكلم عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في طفولته وشبابه، ثم أشار إلى مسألة الوحي والهجرة، وتحدث عن إقامة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة.

وقد أبرز لنا هذا المستشرق بشكل قوي أثر اليهودية والمسيحية في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما قدم لنا صورة عن الحالة التي كانت تنتاب الرسول صلى الله عليه وسلم عند نزول الوحي عليه، وأبدى رأيه حول مسألة كتابة القرآن وجمعه، مع ما كان يتخلل أفكاره من الهنات والأخطاء خصوصا ما تعلق بموضوع الوحي وجمع القرآن وكتابته.

4- ريجي بلاشير Régis Blachère (1900 – 1973): وهو أكبر مستشرق فرنسي شغل بالقرآن، ونذر له شطرا كبيرا من حياته فخصه بجملة من الدراسات التي توجت بترجمتين للقرآن الكريم، الأولى عام 1949 رتب فيها السور حسب النزول، ثم أعاد تقديمها عام 1957، مراعيا فيها الترتيب الأصلي للسور في المصحف، وبمناسبة اشتغاله بترجمة القرآن صنف كتابا صغيرا تحت عنوان" **معضلة محمد Le problème de Mahomet** " لخص فيه أبحاث المستشرقين الذين كتبوا عن حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أصدر مؤلفا آخر حول موضوع القرآن سماه "**المدخل إلى القرآن Introduction au Coran** " تناول فيه كل ما يتعلق بالقرآن وركز بالخصوص على مسألتي "**كتابة القرآن** " و" **رسم المصحف** " و " **نظرية قراءة القرآن بالمعنى**"، أما أهم عمل متكامل له في مجال الدراسات القرآنية فهو كتاب " **القرآن Le Coran** " الذي نشرته سلسلة "**Que sais- je**" عام 1969، والذي نقله رضا سعادة إلى العربية سنة 1974، ووضع له عنوانا آخر هو " **القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره**".

لقد تناول بلاشير في هذا الكتاب سبع موضوعات بالدرس والتحليل وهي:

1 – تكوين المصحف وتدوينه

2 – الرسالة القرآنية في العهد المكي

3 – الرسالة القرآنية في العهد المدني

4 – الواقعة القرآنية وعلوم القرآن

5 – التفسير القرآني أصوله وأغراضه

6 – القرآن والسنة مصدرا العقيدة والشريعة في الإسلام

7 – القرآن في الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي

يمتاز هذا الكتاب بأمرين اثنين:

أولا: الشمول: فقد كان بلاشير حريصا على أن يقدم لنا دراسة وافية عن القرآن الكريم .

ثانيا: الجرأة: لقد كان بلاشير جريئا في طرح قضايا شائكة وإصدار الأحكام، حيث وضع القرآن على محك البحث، كما ناقش في جرأة متناهية – تصل إلى حد العنف في بعض الأحيان – خصوصا عند حديثه عن كتابة القرآن وترتيب السور، على أن هذه الجرأة ما كانت لتسلم من مخاطر المغامرات، ومذلة التهور أحيانا، فكثر عند بلاشير أسلوب الاحتمال الذي كان لا يقوم على أحكام جازمة.

5 – مكسيم رودنسون M. Rodinson (1915 = 2004): لعل مكسيم أكثر المستشرقين الفرنسيين قدرة على تجاوز الأطروحات العتيقة للاستشراق لانتمائه للمدرسة المادية التي تعادي كل ما هو روحاني وبالأخص الدين، ولذلك حين تعامل رودنسون مع القرآن الكريم، لم يتعامل معه على أساس أنه كتاب دين، وإنما باعتباره وثيقة تاريخية لا أكثر، وبالتالي فلا فرق بينه وبين الأدبيات التي ظهرت في نفس الحقبة، ورفض بذلك الامتياز الخاص للقرآن والذي يجعله فوق الزمان والمكان، واعتبره حدثا بشريا عاديا. وقد حاولت أن أقترب من هذه الحقيقة من خلال كتابه "**محمد**" الذي تناول فيه شخصية

الرسول صلى الله عليه وسلم بالدراسة والتحليل، ووقف كثيرا عند ظاهرة الوحي حيث فسرها تفسيرا ماديا محضا، معتبرا الوحي حالة مرضية كانت تنتاب الرسول صلى الله عليه وسلم وخلالها يفقد النبي صلى الله عليه وسلم وعيه ويظل في حالة سكر، وقد أدى به ذلك إلى القول "**إن القرآن نتاج لاوعي محمد**"، وأنه مجموعة من الخرف والهلوسات خرجت من فم الرسول في أوقات لاوعيه .

إن كتاب **مكسيم رودنسون** يعبر عن منهج جديد في التعامل مع القرآن الكريم، وإن كنت أرى أنه لا يبتعد كثيرا عن نظرة بعض المستشرقين للوحي، خصوصا المستشرق المجري **جولد زيهر** .

بالإضافة إلى المصادر الفرنسية اعتمدت على بعض المصادر الأجنبية الأخرى التي كان الرجوع إليها ضروري في جلو الصورة أكثر فأكثر، منها:

- كتاب المستشرق الألماني **تيودور نولدكه " تاريخ القرآن "** الذي يعتبر أساس كل بحث في القرآن بالغرب، وتنبع قيمة هذا الكتاب من أن نولدكه أقدم على طرح موضوعات خطيرة في القرآن وأفكار جديدة فيه مثل تقسيمه المفتعل لسور القرآن حسب ترتيب النزول بالإضافة إلى أحكام نقدية خطيرة على موضوعات القرآن وأسلوبه، وقد سارت أفكاره من بعده إلى بعض فطاحلة الاستشراق الفرنسي **كبلاشير** .

- كتاب المستشرق المجري **جولد زيهر "مذاهب التفسير الإسلامي"**، الذي تضمن أفكارا خطيرة تشكك في صحة نسبة القرآن إلى الله، منها قوله: " **لا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافا عقديا على أنه نص منزل أو موحى به، يقدم نصه في أقدم عصور تداوله مثل هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات، كما نجد في نص القرآن** "، بالإضافة إلى العديد من الشبهات والمزاعم حول جمع القرآن والوحي ونسخ القرآن ورسمه وقراءاته ...

-كتاب المستشرق البلجيكي **هنري لامنز"الإسلام عقائده ونظمه "** تدور فكرة هذا الكتاب حول مسألتين رئيستين:

الأولى: شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم

الثانية: القرآن الكريم.

لقد كانت أحكام هذا الكتاب جائرة وتفتقر افتقارا تاما إلى النزاهة في البحث والأمانة في نقل النصوص وفهمها، من بين أفكار هذا الكتاب: **"يجب أن يعتبر القرآن عملا أصيلا وشخصيا لمحمد"** .

- كتاب المستشرق السويدي **طور أندري " أصول الإسلام والمسيحية "**، بحث فيه صاحبه عن أصول الديانة المسيحية في الإسلام، وانتهى به ذلك البحث إلى القول: " **إن النصرانية موجودة في القرآن** "، كما ركز في كتابه على بعض الموضوعات التي تشكل نقطة التقاء بين الإسلام والنصرانية .

كل هذه الدعاوى التي أثارها أصحاب هذه الكتب سارع إلى احتضانها أغلبية المستشرقين الفرنسيين على رأسهم **بلاشير** .

الباب الأول

الاستشراق الفرنسي
تاريخه — خصائصه — اهتماماته

عند الحديث الاستشراق الفرنسي، لا نقصد إلى توزيع جغرافي للاستشراق أو إلى إحداث تعددية إقليمية له، بقدر ما نسعى إلى البحث عن الأصول التاريخية للاستشراق الفرنسي، وخصائصه، ومداه العلمي الخاص به، لنثبت أصالة المدرسة الاستشراقية الفرنسية وتفردها عن باقي المدارس الاستشراقية الأخرى .

ذلك أنه على الرغم من وجود قواسم مشتركة تربط بين جميع المدارس الاستشراقية، وكتابات جميع المستشرقين إلا أن للعوامل البيئية والاجتماعية والتاريخية والثقافية تأثيرات بالغة تطبع بميسمها حركة الاستشراق وشخصية المستشرق طباعة واضحة. ومن ثم يحدث التمييز وتحدث الفرقة بين مدارس الاستشراق، وهذا ما أشار إليه يوسف أسعد داغر بمناسبة حديثه عن المدارس الاستشراقية، حيث قال: " **هذه المميزات الفارقة المفردة التي تتسم بها المدارس الاستشراقية تعرق أصولها في جبلة الأمة القائمة فيها، فتتصل بغرائز طبيعية أو منقبية لشعب ما من شعوب أوروبا التي ساهمت ما وسعتها الطاقة، بالحركة فأفرغتها في قوالب ومميزات فردتها**"[17].

---

[17] - مصادر الدراسة الأدبية، ج 1 ص 775 .

الفصل الأول: التواصل الحضاري بين الشرق وفرنسا :

إن التواصل الحضاري والثقافي بين الشرق والغرب قديم جدا اتخذ عبر أدواره التاريخية المتعاقبة صورا كثيرا، وأشكالا من الترابط مختلفة، كانت أحيانا تتخذ صورة الاحتكاك الحربي، وأحيانا أخرى تلبس لبوس الاتصال الحضاري، الذي فتح المجال فسيحا للعلاقات الثقافية والفكرية والسياسية والتجارية .

لقد كان الشرق شديد الحضور في الغرب، منذ دخل المسلمون صقلية والأندلس فاتحين، وبلغوا فرنسا ولم يبرحوها إلا بعدما تركوا بصماتهم عليها، وكانت الحروب الصليبية فرصة أخرى لاتصال الغرب بالشرق .

لم يعرف الغرب خلال هذه الحروب فلسطين فحسب، بل عرف ما كان عليه الشرق من مظاهر الحضارة والتمدن، يقول **V. Barthold** : **"اكتشفوا الثقافة الإسلامية كما اكتشفوا أن هناك مسيحية شرقية تختلف عن المسيحية الغربية تذهب إلى حد التخلي عن تسمية مريم العذراء: أم الرب"**[18].

الصلات الثقافية بين الشرق الإسلامي وفرنسا:

يبدو من المستحيل تحديد زمن لتلك الصلات التي تمت بين الشرق الإسلامي وفرنسا، ومع ذلك فقد اتفقت كلمة بعض الدارسين على أن هذه الصلات تعود إلى تاريخ قديم جدا، عندما وصلت جيوش المسلمين بقيادة **عبد الرحمن الغافقي** إلى جنوب فرنسا بالضبط عند جبال **البرانس**، إذ تصدى **شارل مارتل Charles Martel** بالجيوش التي تمكن من حشدها في وقعة **بواتييه**، التي سماها العرب **بلاط الشهداء**، وكانت تلك مناسبة كبرى مكنت الفرنسيين من التعرف على المسلمين، وتوطدت تلك الصلات في عهد الخليفة العباسي **هارون الرشيد**، حيث كانت هناك مراسلات وهدايا بينه وبين الإمبراطور **شارلمان Charlemagne**. ثم بعد ذلك جاءت **الحروب الصليبية**

18 - La découverte de l'Asie , p. 84.

Les croisades لتزيد من اهتمام فرنسا أكثر بالشرق العربي ولا ننسى بهذه المناسبة دور فرنسا البارز والفعال في شن هذه الحروب على البلاد الإسلامية، وتحمسها الشديد لها إلى درجة أن أول مؤتمر للصليبيين عقد في فرنسا بمدينة **كليرمون Clement** في شهر نوفمبر عام 1095م، والذي أكد فيه بابا إيطاليا "**أوربانس الثاني Urbanius II**" على دور فرنسا البطولي في هذا المجال وعلى كفاءتها وقدرتها الفعالة في تخليص بيت المقدس من المسلمين وحماية الحجاج المسيحيين من غارة المسلمين عليهم، والذي يفسر لنا ذلك خطابه الذي وجهه في المؤتمر إلى شعب فرنسا، قائلا: " **أيتها الطائفة الفرنساوية العزيزة لدى الله. إن كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها مسندا على شجاعتكم، فأنا الذي أعرف جيدا تقواكم وكفاءتكم بالشجاعة والغيرة** "[19]، وكأن البابا أراد هنا أن يقول إن فرنسا التي أوقفت الزحف الإسلامي على أوربا، وحمتها من ذلك الخطر الداهم، عليها اليوم مسؤولية عظمى هي تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين، وما كان من فرنسا إلا الاستجابة لهذا النداء التاريخي العظيم، واسترخصت في سبيله كل غال ونفيس. ولقد أشاد المؤرخ الفرنسي **جروسيه** بالدور الريادي لفرنسا في جميع الحروب الصليبية، حتى عد حملة **لويس التاسع** حملة فرنسية صليبية خالصة، حيث قال:

« La Croisade de Saint-Louis se trouve, de ce fait, revêtir un caractère purement français. Et c'est ce qui la caractérise entre toutes. Bien que la plupart des croisades précédentes eussent compris une majorité de Français, elles n'en avaient pas moins conservé le caractère d'expéditions internationales, organisées en principe par la chrétienté toute entière. La croisade de Louis IX, malgré le caractère profondément religieux que lui imprima la sainteté de son auteur, se présente au contraire à nous comme la première expédition coloniale du royaume de France ».

"إن حملة الملك القديس لويس اصطبغت بصبغة فرنسية خالصة، وهي الصبغة التي تميز هذه الحملة عن سائر الحملات الصليبية السابقة، ومع أن معظم الحملات الصليبية السابقة اشتملت على أغلبية عددية للفرنسيين، فإن

---

[19] - الأخبار السنية في الحروب الصليبية لسيد علي الحريري، ص 5 - 6

ذلك لم يغير من كونها ذات طابع دولي نظمتها المسيحية بوجه عام، وأسهم فيها العالم المسيحي كله، أما حملة الملك لويس التاسع فتبدو لنا على عكس ذلك، لأنها برغم ما أصبغته عليها قداسة زعيمها وقائدها من مسحة دينية عميقة فهي أول حملة استعمارية قامت بها مملكة فرنسا في الشرق "[20] .

وبانتهاء حملة **لويس التاسع** دب الفتور في أوصال الحركة الصليبية وتولى زحف الفرسان الصليبيين، وخابت مساعي القوم في الاستيلاء على بيت المقدس وعلى مصر، ومما زاد من فداحة الخسارة اعتقال قائد الحملة **لويس التاسع** بدار **ابن لقمان** بمدينة المنصورة، ولقد خلد الشاعر المصري **جمال الدين بن مطروح** لهذا الحدث البطولي العظيم بقصيدة شعرية رائعة مطلعها:

قل للفرنسيس إذا جئته   مقال صدق من قؤول فصيح
أجرك الله على ما جرى   من قتل عباد يسوع المسيح

إلى قوله:

وقل لهم إن أضمروا عودة   لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها   والقيد باق والطواشي صبيح[21]

وبعد هذا الاندحار الكبير للصليبيين، بدءوا في التفكير في وسيلة أخرى لمواجهة المسلمين، فالمواجهة المسلحة لم تعد تجد نفعا مع هؤلاء المسلمين، إذن لابد من سبيل آخر أكثر ناجعة وأمضى في بلوغ الهدف، وفعلا فكر **لويس التاسع** في هذا الموضوع بجدية، حيث أتاحت له خلوته في معتقله بالمنصورة – كما يذكر المؤرخ الفرنسي **جوانفيل** – فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المسلمين، فانتهى به تفكيره إلى وضع خطة مبدئية للسياسة التي تمكن أوربا المسيحية من مواجهة الإسلام والمسلمين.

---

20 - René Grousset , Histoire des Croisades et du royaume France de Jérusalam , V. 3 , p. 428.

21 – النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين أبو المحاسن الأتابكي، م 6 ص 370 .

وتقوم هذه الخطة على الأمور التالية:

أولا: تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات سلمية تستهدف الغرض نفسه، لا فرق بين الحملتين إلا من حيث نوع السلاح الذي يستخدم في المعركة، وكان سلاح الحملات الجديد هو الدس بين العرب، وإثارة الخلافات بين الأوساط الإسلامية، والعمل على إبقاء نارها مستعرة بين المسلمين .

ثانيا: تجنيد المبشرين الغربيين في معركة سلمية، لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا .

ثالثا: العمل على استخدام من يمكن إغراؤهم من مسيحي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب .

رابعا: العمل على إنشاء قاعدة للغرب في قلب الشرق العربي، يتخذها الغرب نقطة ارتكاز له ومركزا لقواته الحربية، ولدعوته السياسية والدينية، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلما أتيحت الفرصة [22] .

وإذا ما ألفينا الحروب الصليبية وما تمخض عنها من نتائج، نجد في الجانب الآخر عوامل وطدت عرى الصلات بين الشرق الإسلامي وفرنسا من بينها النشاط التجاري وتبادل السفراء وتوالي الرحلات الفرنسية واحتلال شمال إفريقيا، وحملة نابليون على مصر، تلك الحملة التي حددت علاقة جديدة للغرب بالشرق[23]، بالإضافة إلى الامتداد الفرنسي في سوريا ولبنان، يقول **محمد محمد حسين: "إن الحافز الأساسي لتكوين الإمبراطورية الاستعمارية الثانية هو في اعتقادنا حافز أدبي لرد اعتبار فرنسا، فغزو الجزائر سنة 1830 كان رد فعلهم لفقد جزء من مستعمرات فرنسا فيما وراء البحار ثم لهزيمة نابليون الأول سنة 1815، وغزو تونس سنة 1881، كان رد فعل**

---

[22] – أنظر: الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس لمحمد علي الغتيت، ص 64 – 66.

[23] - Roger Garaudy , Promesses de l'Islam, p. 157: « **L 'invasion de l'Egypte par Bonaparte marque un nouveau rapport de l'Occident avec l'Orient** ».

لهزيمة نابليون الثالث سنة 1870، ونجد انعكاس هذه الروح في عبارات التفاخر التي كانوا يطلقونها على إمبراطوريتهم فهم تارة يسمونها فرنسا ذات المائة مليون من السكان، وتارة فرنسا الممتدة في بقاع العالم الخمس، وتارة فرنسا العظمى، وكان الرأي العام الفرنسي يقاوم بكل قوة منح الاستقلال للمستعمرات ظنا منه أنه إذا لم تسترد فرنسا مكانها بين الإمبراطوريات الاستعمارية فسوف تهبط إلى دولة من الدرجة الثانية أو الثالثة"[24].

لقد مكنت هذه العوامل كلها مجتمعة كانت أو متفرقة، حالة حرب كانت أو سلم، من امتزاج ثقافي بين فرنسا والشرق الإسلامي، ومن تزاوج حضاري وتبادل التأثر والتأثير.

24 - الاستعمار الفرنسي، ص 2 - 3

الفصل الثاني :الدراسات الاستشراقية في فرنسا :

بدأت بواكير الاتصال الثقافي بين فرنسا والشرق الإسلامي في مدارس الأندلس وصقلية[25]، حيث كانت الأندلس قبلة للطلاب من الفاتيكان والبلاد الأوربية عامة، ومن خلالها – الأندلس – تسرب سيل عرم من العلم والمعرفة الجديدين إلى الغرب، لكن الجانب الأكبر منه وصلت إلى الغرب عن طريق العلماء العرب في إسبانيا بصفة خاصة[26].

ورغم ما للأندلس من فضل على أوربا في نشر الثقافة العربية الإسلامية وفي تثقيف الغرب بهذه الثقافة التي أحدثت ثورة حضارية في مجموع أوربا، إلا أن ذلك لا يشفع لنا بالقول إن النبتة الأولى للتواصل الثقافي – علما ومؤسسة – ظهرت في الأندلس، بل خارجها، حيث تلقفته فرنسا، ثم ألمانيا وبريطانيا ويرجع السبب في ذلك إلى الحروب التي اندلعت في الأندلس والتي أنهت الوجود الإسلامي فيها بترحيل المسلمين خارج بلاد عاشوا فيها ثمانية قرون، وأدى ذلك إلى **" قلة العناية بالعربية، حتى نشط لها الملك كارلوس الثالث (1716 – 1788) فوسع المكتبة الملكية، ونظم مكتبة دير الأسكوريال، التي كان قد أنشأها الملك فيليب الثاني، ناشر التوراة في سبعة مجلدات، وجعل من المعرفة العربية مبررا لترقية الموظفين واستدعى رهبان موارنة من لبنان وشجع الإسبان على التضلع من اللغة العربية وتراثها"**[27].

ولقد جاءت هذه العناية وذلك الاستدراك من جانب الملك **ماركوس الثالث** متأخرا بالقياس مع مسيرة التواصل التي كانت تشق طريقها بكل ثبات وتأكيد داخل العواصم الأوربية، لاسيما في باريس التي أنشئ فيها قبل قرنين من ذلك التاريخ أول كرسي للغة العربية، يقول د. جوزيف نسيم يوسف: **"لقد تمتعت باريس بمكانة رفيعة في القرون الوسطى باعتبارها مدرسة للاهوت، ولما كان علم اللاهوت هو موضوع الدراسة الأسمى وقت ذاك، فقد أطلق**

---

25 – أنظر: المستشرقون لنجيب العقيقي، ج 2 ص 138 .

26 – أنظر: نشأة الجامعات في العصور الوسطى لجوزيف نسيم يوسف، ص 143 .

27 – نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 2 ص 173 - 174

على هذه المدرسة اسم" سيدة العلوم العليا"، وهذا يعني أنها كانت رفيعة القدر والمكانة باعتبارها جامعة.

ولقد جرى القول المأثور القديم، وهو: أن البابوية كانت عند الإيطاليين والإمبراطورية عند الألمان، والعلم عند الفرنسيين. وكانت باريس هي المركز المختار للعلم والتعليم وكان طبيعيا جدا أن تصبح باريس منبعا لجامعات الشمال ونموذجا لها. فقد انبثقت جامعة إكسفورد الإنجليزية عن هذا المصدر الأصلي في أواخر القرن الثاني عشر، أما جامعة كامبردج فقد بدأت بعد ذلك بفترة، ولا ترجع أي جامعة من الجامعات الألمانية إلى ما قبل القرن الرابع عشر، ومن المسلم به أنها كانت تقليدا لجامعة باريس"[28] .

ولقد كان للملك **فرنسوا الأول François I** دورا هما في زيادة اهتمام فرنسا بالدراسات الشرقية، خصوصا العالم الإسلامي منها، فعلى عهده تأسس **معهد فرنسا Collège de France** عام 1530، وأنشئ كرسي لليونانية، وآخر للعبرية[29]، بالإضافة إلى إنشاء الكلية الملكية والمكتبة الوطنية، يقول المستشرق الفرنسي روبير منتران: **"عرف فرانسوا الأول كيف يتفهم ضرورة الاطلاع على العالم التركي وفوائد التعرف عليه، وعلى العالم العربي الإسلامي بشكل أعم وفي ضوء عقد معاهدة مع السلطان سليمان القانوني، تم تشجيع التعرف على العالم التركي باستحداث أمرين في غاية الأهمية، هما إنشاء الكلية الملكية أولا، وإنشاء المكتبة الوطنية ثانيا"**[30].

وتوالى اهتمام فرنسا باللغات الشرقية وبالدراسات العربية والإسلامية بإنشاء عدة كراسي وجامعات ومعاهد ومكتبات ضمت في بناياتها العديد من المخطوطات النفيسة والنوادر كالنقود والأوسمة والأختام والخرائط والعديد أيضا من الكتب العربية، **"ويكفي أن أذكر أن مكتبة باريس الوطنية**

---

28 – جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 266 - 267

29 – نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1 ص 139 .

30– الاستشراق الفرنسي، أصوله، تطوره، آفاقه لروبير منتران، ج 1 ص 142- 143، ترجمة: د. يوسف يحيى، مجلة الاستشراق، م 2 ص 33، العدد الثاني – شباط 1987، دار الشؤون العامة، بغداد –العراق

وحدها(Bibliothèque Nationale de Paris (1654 تحتوي على ستة ملايين من الكتب والمخطوطات، منها نحو سبعة آلاف مخطوط عربي"[31]، ولقد أصبحت هذه الكراسي والجامعات والمعاهد والمكتبات عمدة كل مريد أوربي يهتم بالدراسات العربية والإسلامية. وأضحت مطمح كل من أراد معرفة الشرق، ولم يقف أثرها على المستشرقين دون سواهم، بل وجدنا من المستشرقين من لم يرحل إلى الشرق مكتفيا بما وجده فيها من مصادر ومخطوطات على سبيل المثال **ديربيلو**[32] **d'Herbelot** الذي اعتمد في وضع كتابه الضخم " **المكتبة الشرقية** " على المصادر الشرقية الغزيرة التي كانت قد امتلأت بها خزائن تلك المعاهد والمدارس، فكان بذلك أول مستشرق يسعى إلى تقديم صورة عن الشرق الإسلامي وحضارته، مستنطقا النصوص الشرقية نفسها، يقول **هنري لورنس:**

«L'oeuvre d'Herbelot est l'aboutissement d'un demi-siècle de recherche »

" كان عمل ديربيلو هذا تتويجا لنصف قرن من البحث"[33] .

هكذا شكل الشرق وبالذات العالم الإسلامي في القرن السادس عشر مادة دراسية في فرنسا، شغلت بال كثير من المهتمين بشؤون الشرق الإسلامي، وتوسعت دائرة الاهتمام بالشرق منذ الثورة الفرنسية سنة 1789، حيث نشأت مؤسسات جديدة هي **مدرسة اللغات** و**مدرسة اللغات الشرقية** سنة 1795. وكانت اللغة التي تدرس فيها هي العربية الفصحى والعامية، ولغات شرقية أخرى، يقول الدكتور **أحمد درويش: " ويكفي أن نعلم أنه عندما بدأ إنشاء**

---

31 - نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1 ص 142 - 143

32- دير بيلو (1625 - 1695): ولد في باريس وتعلم اللغات السامية في جامعتها ثم ارتحل إلى روما حيث تردد على جامعتها واطلع على مطبوعاتها الشرقية، وعلى الشرقيين في ثغور إيطاليا. ولعلو كعبه في العربية استقدمه فوكه وزير مالية فرنسا إلى ديوانه، فلما اعتزل عين أمينا لسر لويس الرابع عشر وأستاذا للعربية في معهد فرنسا. من آثاره: كتاب " **المكتبة الشرقية**" أو "**المعجم العام** ". أنظر: نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1 ص 159

33 - H. Laurens , Aux sources de l'orientalisme, p. 5 .

مدرسة اللغات الشرقية في فرنسا في القرن الثامن عشر، كانت العربية هي أولى اللغات التي درست بها سنة 1795 مع التركية والفارسية، على حين لم تدرس لغة كالروسية بهذا المعهد إلا بعد أكثر من ثمانين عاما من هذا التاريخ سنة 1876، وكان على لغة أوربية مثل اللغة التشيكية أن يأتي الاعتراف بها في مدرسة اللغات الشرقية بباريس بعد أكثر من قرن وربع من تدريس العربية وذلك في سنة 1921 "[34] .

وكانت هذه المدرسة ترمي إلى تعليم القناصل ورجال السياسة والسلك الدبلوماسي اللغة العربية، وبعض الآداب الشرقية، قبل أن يمارسوا أعمالهم في بلاد الشرق التي يفدون إليها، وكانت تلقن في مستهل افتتاحها اللغات العربية والفارسية والتركية .

ثم توسعت في دروسها، فما أن أهل عام 1832، حتى خصصت أساتذة لتدريس اللغات: السودانية والهندية والصينية واليابانية والسامية وغيرها من لغات الشرقيين ولهجاتهم .

ويعتبر روبير منتران: " العقد الأخير من القرن الثامن عشر، الانطلاقة الحقيقية للدراسات الشرقية بفرنسا، ويبدو الاهتمام بالمؤلفات الشرقية واضحا في المصنف الشهير (وصف مصر) وهو جهد علماء رافقوا حملة نابليون بونابرت على مصر ففيه اعتمدت أولى ترجمات المؤرخين العرب إلى اللغة الفرنسية"[35] .

وسبب هذه الانطلاقة الحقيقية من وجهة نظري الخاصة، يرجع إلى حدثين هامين شهدتهما فرنسا:

الأول: يتمثل في الحملة النابوليونية على مصر .

الثاني: يتمثل في احتلال الجزائر عام 1830 وتونس عام 1881 ثم تواجدها في المغرب والشام فيما بعد.

---

34 – الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، ص 12 .

35 – المرجع السابق، ج 1 ص 34 .

بالنسبة للحدث الأول فإن أثره على الحركة الاستشراقية عموما كان عظيما، فيما أحدثه من علاقة جديدة بين الشرق والغرب، وفيما أحدثه أيضا من توجهات استشراقية أكثر تنظيما .

أما الحدث الثاني، فإن أثره يتجلى في توسيع دائرة الاستشراق، ولاسيما العناية باللغة العربية .

وما كاد ينتهي هذا القرن، حتى شهدت فرنسا تقهقرا في الدراسات الشرقية عقب ظهور المدرسة الألمانية، التي زاحمت بشهرتها المدرسة الفرنسية، وربما كان لألمانيا في هذه الفترة شأو سامق لم يكن لفرنسا، حتى سار الاعتقاد أن الاستشراق إبداع ألماني صرف.

هذا، ولم تنشط الحركة الاستشراقية الفرنسية إلا مع مجيء المستشرق الفرنسي الكبير **سلفستر دو ساسي**[36] **Silvester de Sacy** في القرن التاسع عشر حيث استطاع بقدراته العلمية الخارقة أن يعيد مجد فرنسا الاستشراقي، ويحول أنظار المهتمين بالدراسات الشرقية من جديد إلى باريس، يقول إدوارد سعيد: **"لا يرتبط اسم ساسي ببدء الاستشراق الحديث لمجرد أنه كان أول رئيس للجمعية الأسيوية بل لأن عمله، بصورة فعلية، وضع أمام هذه المهنة (الاستشراق) جسدا كاملا منتظما من النصوص، وممارسة تربوية، وتراثا بحثيا، ورابطا هاما بين البحث الاستشراقي والسياسة العامة. وكان في عمل ساسي للمرة الأولى منذ مجمع فيينا، مبدأ منهجي واع تترافق فعاليته مع**

36- سلفستر دو ساسي 1757 - 1838: ولد في باريس لعائلة جانسنية كان عملها تقليديا، المحاماة. كانت ثقافته الأولى في منزله فتثقف بالأدبين اللاتيني واليوناني، ثم درس تحت إشراف خاص من قبل بارتارون في دير للبندكتين، فحبب إليه العربية وأخذ يدرسها مع العبرية والفارسية والتركية والسريانية والكلدانية أولا، ثم تعرف على يهودي مقيم في باريس فزاده تضلعا بالعبرية والعربية فأقبل على دراستهما بعدما أحسن من اللغات الأوروبية: اللاتينية والألمانية والإسبانية والإيطالية والإنجليزية. عين أستاذا في مدرسة اللغات الشرقية الحية، ثم أصبح مديرا لها عام 1824. وقد انتخب عام 1806 أستاذا في كوليج دو فرانس، رغم أنه منذ 1805 كان يشغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية. من مؤلفاته: كتاب" **النحو العربي** " في مجلدين كبيرين، بالإضافة إلى مصنفات أخرى وتحقيقات. أنظر: نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1 ص 162 - 164

فاعلية الانضباط البحثي. ولم يكن أقل أهمية من ذلك إحساس ساسي الدائم بأنه إنسان يقف على نقطة البدء لمشروع تنقيحي هام"[37].

والمطلع على سيرة **دوساسي** الذاتية يمكنه أن يلاحظ كيف كان لهذا المستشرق أثر واضح على من عاصره من المستشرقين ومن جاءوا بعده حتى عهد **بلاشير**، ولربما ما يزال لأعماله على بعض المستشرقين سلطان كبير، يقول إدوارد سعيد: "**خلق باحثي المستقبل**"[38].

"**وقد تجاوز آثار دو ساسي حدود فرنسا إلى مجموع أوروبا خصوصا ألمانيا، لاختلاف العلماء في أوروبا قاطبة عليه، وأخذهم منه، ومن ثم صح أن يعد إمام المستشرقين في عصره**"[39]، حيث تخرج على يد **دي ساسي** معظم المترجمين الذين رافقوا نابليون في حملته على مصر. كما تخرج على يديه المستشرق السويدي **هولنبوي** و المستشرق الألماني **فليشر**، والمؤرخ الفرنسي **شامبليون** مكتشف حجر رشيد ومن ورائه أسرار الحضارة الفرعونية بأكملها[40]، يقول أحمد درويش: "**ولا شك أن ظهور شخصية دي ساسي في فرنسا بعد بداية حقيقية لظهور الدراسات العلمية المنظمة في مجال الاستشراق حول الأدب العربي، والنزعة الموضوعية الحديثة في الاستشراق مدينة لساسي بشخصيته التي أحبت العربية وتعمقت درسها، وبمدرسته التي انتمى إليها عشرات الرواد في مجال الاستشراق من مختلف البلاد الأوروبية وبنزعته التي جعلت الاستشراق يتحرر من المرجعية الدينية**"[41].

وحتى هنا يتأتى لنا القول إن هذه الفترة تعد من أهم المراحل التي اجتازها الاستشراق الفرنسي، ومن تم يسمح لنا أن نسميها بمرحلة التأسيس

---

37 – الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ص146، ترجمة: كمال أبو ديب .

38 – نفس المرجع، ونفس المكان .

39 – نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1 ص 163 .

40 – أنظر :أحمد درويش، المرجع السابق، ص 25 .

41 – نفس المرجع، ص 24 .

والاستقلال الحقيقيين للاستشراق الفرنسي، بحيث في هذه المرحلة بالذات فتح الباب واسعا لمعرفة الشرق الإسلامي ودراسته من جميع نواحيه، والاهتمام بالأعلام والشخصيات الإسلامية، والآثار الأدبية والعلمية والدينية، وإن كان روبير منتران يرى **" أن دراسة العربية في هذه الفترة كانت قد طغت على غيرها من الدراسات الاستشراقية، وأن الفترة الكلاسيكية من التاريخ الغربي – أي القرن الثامن وحتى القرن الحادي عشر للميلاد – هي التي نمت دراستها أكثر من سواها، فقدمت نتاجا مطبوعا أوفر"**[42].

بالإضافة إلى ذلك، تميزت هذه الفترة بتأسيس أول جمعية تهتم بشؤون الشرق هي الجمعية الأسيوية سنة 1822، التي انبثقت عنها المجلة الأسيوية، " **هذا ولم تكن فرنسا سباقة إلى تأسيس أول جمعية استشراقية أو إنشاء أول كرسي للغة العربية فحسب، بل بادرت إلى أعمال أخرى تؤكد دورها الريادي في هذا المجال، ذلك أن أول مؤتمر دولي للاستشراق عقد في باريس سنة 1873**"[43] .

وبذلك تكون فرنسا قد فتحت أبوابا وصفحات جديدة في تاريخ الحركة الاستشراقية .

عموما، يمكن إحصاء مميزات هذه المرحلة في أربعة منجزات علمية كبرى، وهي:

أولا: تأسيس جمعيات ومجلات وكراس علمية لنشر نتائج أبحاث المستشرقين الفرنسيين وغيرهم .

ثانيا: جمع المخطوطات والآثار الشرقية وتحقيقها ودراستها ونشرها .

ثالثا: ترجمة المؤلفات الشرقية إلى الفرنسية .

رابعا: تكوين أطر علمية فرنسية تهتم بالدراسات الشرقية .

---

42 – المرجع السابق، ج 1 ص 34 – 35

43 – الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري لمحمود حمدي زقزوق، ص 42 .

وإذا تجاوزنا مرحلة القرن التاسع عشر استقبلنا القرن العشرون بتطور هام، يقول روبير منتران: " **بولادة القرن العشرين، ظهر تحول في الاستشراق الفرنسي، فقد سمح إنشاء المدرسة العلمية (التطبيقية) للدراسات العليا في باريس بتجديد المواد المتفرعة والمتخصصة، لا سيما على صعيد الدراسات الاستشراقية. فقد كانت الدروس المعطاة في هذه المدرسة على شكل مناقشة بحوث موجهة عادة إلى مستمعين متقدمين**"[44] .

وفي هذه المرحلة ظهرت مجموعة من المستشرقين المبرزين والذين كان لهم القدح المعلى في إعلاء شأن الاستشراق الفرنسي وإخراجه إلى حيز الوجود مدرسة متفردة تخضع لقوانين محكومة بالظروف والعوامل التي أنتجته، من أمثال: **لويس ماسنيون، وهنري ماسيه، وريجي بلاشير، ومكسيم رودنسون**، وغير هؤلاء كثير، حيث غطت أعمالهم وكتاباتهم وأبحاثهم مرحلة كاملة .

من جهة أخرى " **بدأت البحوث تكتسب أبعادا جديدة، وذلك في استخدام أساليب علوم إنسانية أخرى وأهداف جديدة فتطورت هكذا البحوث والدراسات أكثر تخصصا، يوما بعد يوم، كتلك التي تعنى بقضايا التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي، والتاريخ العمراني، والمشاكل والمسائل التكوينية، وأصول اللغة، وفقه اللغة، وصولا إلى القضايا الدينية والفنون، والآثار وذلك بنوع اختلف عما كان في السابق من تاريخ إخباري أو سياسي تقريري، بحيث تغيرت أسس البحث عنها**"[45] .

44 - المرجع السابق، ج 1 ص 35 .

45 - نفس المرجع، ونفس المكان.

الفصل الثالث :أنشطة الاستشراق الفرنسي العلمية:

لقد تعددت اهتمامات المستشرقين الفرنسيين واندفعوا بقوة نحو الشرق باحثين في مدنياته وحضاراته القديمة، وتقاسموا فيما بينهم العمل والاهتمام بهذا التراث المشرقي، فعكفت جماعة منهم على دراسة مدنيات الهلال الخصيب، ومدنيات مصر الفرعونية لنبش آثارها ومعالمها، ففي عام 1843 قصد **أرنو** وهو صيدلي فرنسي **اليمن** وسار شرقا فكشف عن طريق الصدفة القوافل بين مأرب وصنعاء، وبلغ ما نسخه في رحلته تلك 56 نقشا من صنعاء وصرواح ومأرب. وبين عامي 1907 – 1908 اكتشف **لويس ماسنيون** قصر السدير الأخيصر، واكتشف **جوتيه** في سنة 1918 المدن القديمة في الجزيرة العربية .

ولقد أنشئوا لهذه الاكتشافات الأثرية معاهد ومتاحف مثل **المعهد الفرنسي للآثار الشرقية** بالقاهرة سنة 1880، وزودوه بمكتبة ومطبعة، ولهم في هذا المجال كتابات قيمة منها كتاب **"الآثار العربية والفارسية والتركية في ديوان الدوق دي بلاكا"**، وهي أقدم العاديات الإسلامية **لرينو**، و**"الآثار الشرقية " لكونتينو** والذي يقع في 28 مجلدا، وكتاب **"اكتشافات بعثة العلوم والفنون في جيش الشرق لمصر العليا "** عام 1799 **لديهرين**، ودراسات وتحقيقات وترجمات ومصنفات عن سوريا مدنا وتاريخا ومعابد وكتابات وآثارا إسلامية... **لسوفاجه.**

إلى جانب ذلك هناك عدة مجلات وحوليات ونشرات تصدر من فرنسا تعنى بالعالم العربي والإسلامي مثل المجلة الأسيوية ونشرة معهد مصر، تدور موضوعاتها حول تاريخ العرب وجغرافياتهم وأنسابهم، والبحث في أديانهم وشرائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم، ودرس لغاتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم، وأنشئوا لها عدة أقسام في كبرى الجامعات عندهم مثل **القسم العربي في السوربون**، و**معهد الآداب والتمدن الإسلامي في جامعة بوردو** .

كما اجتهد الفرنسيون في التنقيب عن مآثر مصر ومدنياتها القديمة منذ حملة نابليون، حيث أيقظت هذه الحملة في نفوسهم جذوة البحث عن أسرار

مصر ومدفوناتها، وقد كانت تلك رغبة نابليون الذي أمر بتأليف **المجمع العلمي المصري**، ونشرت بعثته بحوث علمائها ورسومهم وخرائطهم في كتاب "**وصف مصر**" (1809 – 1813) ثم حل **شامبليون** رموز الكتابة الهيروغليفية بقراءته حجر رشيد سنة 1822، وألف لها **أوجروميت** معجما سنة 1832، فوضع أساس علم الآثار المصرية ومهد السبيل للعلماء بالتنقيب على عالم عظيم مفقود.

ونظرا للتمركز الفرنسي في بعض المناطق من الوطن العربي وعلى وجه الخصوص الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان، أولى الاستشراق الفرنسي اهتمامه بصفة خاصة بدراسة كل ما يتعلق بهذه البلدان. ويظهر ذلك من خلال كثير من الأبحاث والدراسات والتحريات التي قاموا بها في هذا الصدد ولم تكتف فرنسا بدراسة أحوال هذه البلدان في فرنسا، بل أنشأت عدة معاهد وأقسام ومدارس في قلب هذه البلدان مثل **معهد قرطاجنة** في تونس سنة 1895، و**مدرسة الآداب العالية** في الجزائر سنة 1881 التي تحولت إلى جامعة سنة 1909، و**معهد الدراسات المغربية** في الرباط سنة 1931، و**المعهد الفرنسي** في دمشق سنة 1822 ثم سنة 1930 .

علاوة على عدة مجلات تهتم بشئون شمال إفريقيا **كالمجلة الإفريقية** التي تصدرها **الجمعية التاريخية** في الجزائر سنة 1856، و**المجلة التونسية** سنة 1894 التي يصدرها **معهد قرطاجنة** في تونس، و**المحفوظات المغربية** سنة 1904، و**محفوظات البربر** سنة 1905-1920[46].

ومهما اجتهدنا في دراسة المدى العلمي للمدرسة الفرنسية، فلن نستطيع أن نلم به لاتساعه من جهة ولتشعبه من جهة أخرى.

---

46 – أنظر تفصيل ذلك في " المستشرقون " لنجيب العقيقي، ج 1 ص 137 – 155

1ـ أوجه نشاط الاستشراق الفرنسي :

لعله من الصعب إن لم نقل من المستحيل الإحاطة بجميع أوجه نشاط الاستشراق الفرنسي، لذلك سنحاول التركيز هنا على أهم نشاطات المدرسة الفرنسية واهتماماتها:

في ميدان التأليف والنشر: قام المستشرقون الفرنسيون بتصنيف عدة كتب في شتى فنون الآداب والعلم والمعرفة، كما نشروا وحققوا بعض المخطوطات القديمة، وانصب اهتمامهم أولا على دراسة القرآن وترجمته وحوادث السيرة النبوية والحديث. ومن أهم ما قاموا به في هذا الصدد **ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية**، حيث ظهرت أول ترجمة سنة 1647 على يد **دي ريور**، وتلتها بعد 136 سنة ترجمة **سافاري** سنة 1783 وترجمة **كازيمرسكي** سنة 1840 ....إلخ .

ولم تقف جهودهم في هذا المجال عند حدود الترجمة فحسب، بل واصلوا التأليف في موضوعات قرآنية ذات أهمية قصوى مثل كتاب **"توافق القرآن والإنجيل "** **لبوستيل** سنة 1543، وكتاب **" سورة فاتحة الكتاب "** **لبروفنسال** سنة 1920، وكتاب**" القرآن والخلق** "ترجمة وتعليقا على مختارات لإخوان الصفا **لماركه** سنة 1964، وغير هذا كثير [47]

وفي سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نشر المستشرقون الفرنسيون كتبا كثيرة مثل كتاب**" محمد وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام الأصلية "لكازانوفا** سنة 1910، وكتاب **" أصل اسم محمد" لكولين** سنة 1925، وكتاب **"معضلة محمد" لريجي بلاشير**، وكتاب **"محمد" لمكسيم رودنسون** سنة 1961...

وفيما يخص الحديث النبوي الشريف قاموا بنشر أشهر كتب الحديث وترجموا وحققوا بعضها، ودرسوا أشهر أعلام الحديث، علاوة على وضع **المعجم المفهرس للكتب الستة**، وأتبعوه بثلاثة تذييلات للأعلام والأماكن

47 - Victor Chauvin , Bibliographie des Ouvrages arabes , V.X , p. 1 - 248

والاستشهادات القرآنية. ومن بين المستشرقين الفرنسيين الذين خصوا هذا المجال بالدراسة والبحث: **وليم مارسيه** في كتاب"**ترجمة جامع الأحاديث**" للبخاري، في أربعة أجزاء ساعده في الجزأين الأولين **هوداس** (1902 – 1914) **وسويله**، و"**الأساتذة والدراسات لمحدثين في العصر المملوكي**" (1967) ...[48] .

وعن الإسلام كتبوا عدة كتب نذكر من بينها كتاب " **النظم في الإسلام** " **لجودفري ديمومبين**، وكتاب " **أخلاق المسلمين وعاداتهم**" **لجوتييه** سنة 1931، وكتاب "**الإسلام وشهادة المؤمن**" **لماسينيون** 1953[49] .

كما بحث الفرنسيون في حضارة الإسلام من حيث نشأتها وتطورها وانتشارها وآثارها وأعلامها الأفذاذ، ومن ضمن من كتبوا فيها: **ليفي بروفنسال** كتاب "**الحضارة العربية في إسبانيا** "سنة 1938، و **لويس جارديه** "**المدنية الإسلامية حياة اجتماعية وسياسية** " سنة 1954، و **جوستاف لوبون** "**الحضارة العرب**"، **وبوتييه** "**تأثير الإسلام في الاجتماع والتمدن**"، **وريجي بلاشير** "**منزلة ابن خلدون الإنسانية في الثقافة العربية والإسلامية**" سنة 1972 .

وتناول الفرنسيون موضوع الفرق الإسلامية والملل والمذاهب بالدراسة والبحث وظهرت لهم في ذلك كتب ومؤلفات، منها كتاب "**نصوص في مذهب الإسماعيلية** " **لجويار** سنة 1873، وكتاب "**طابع الفرق في الإسلام** " **لجود فري ديمومبين** سنة 1925، وكتاب "**العقيدة الباطنية في الإسلام** "**لحينون** سنة 1947، و كتاب" **الصابئة والإسماعيلية**" **لكورين** سنة 1951 .

وللمستشرقين الفرنسيين مشاركة هامة في موضوع علم الكلام والصوفية، من أولئك **جوليسون** في كتابه " **أثر دراسة الفلاسفة العرب في تفسير علم الكلام** "سنة 1926، **وماسينيون** في كتابه "**آلام الحلاج ومذهب**

---

48 –Ibid

49 – Ibid.

الحلاجية "سنة 1909، و **ماركه** في كتابه "**أصول المراتب الصوفية في الإسلام**" سنة 1973 .

أما بالنسبة للغة العربية وآدابها، فمن جملة الكتب التي ألفت فيها معا كتاب " **اللغة العربية وأدابها وجغرافيتها** " **لكاترمير**، وكتاب "**الأدب والآثار العربية المراكشية** " **للفي بروفنسال** 1920، وكتاب " **فن النثر العربي** " **لسويليه** 1970.

هذا بالإضافة إلى عناية الفرنسيين بوضع معاجم للغة العربية وترجمتها، مثل **معجم كازيمرسكي** عربي وفرنسي، والذي يقع في مجلدين سنة 1860، و**معجم شربونو** عربي وفرنسي سنة 1876، و**معجم كوش** عربي وفرنسي سنة 1862، و**معجم جاسلين** فرنسي وعربي ويقع في ثلاثة مجلدات (1880 – 1886).

كما نقلوا من الأدب واللغة العربية إلى الفرنسية **أطواق الذهب للزمخشري**، و**ملحمة الأعراب**، و**ألف ليلة وليلة**، و **مقامات الحريري**، و**الأجرومية**، و**كليلة ودمنة**، وكتاب **المستطرف** .

كما اهتموا ببعض الشخصيات الأدبية كبشار بن برد حيث أولاه **أندريه رومان** عناية واضحة به وكتب عنه كتاب " **بشار وخبرته باللطافة شعره إلى عبيدة** " سنة 1972، وأبو الطيب المتنبي الذي حظي بعناية كبيرة من طرف **بلاشير** الذي كتب عنه كتبا ومقالات منها"**المتنبي الشاعر العربي الإسلامي** " و" **شاعر عربي في القرن الرابع الهجري** " ...

أما ما يخص التاريخ، فقد بذل فيه المستشرقون الفرنسيون جهدا طيبا تمثل في العديد من الكتب التي ألفوها في هذا الميدان، ككتاب "**مصر منذ الفتح الإسلامي إلى الحملة الفرنسية** "**لدي ساسي** 1793، و" **تاريخ البرامكة**" **لبوفا** 1912، و"**فتوح العرب في فرنسا**" **لرينو** 1836، ولم يهمل الفرنسيون الحديث في هذا الإطار عن الخلافة الإسلامية، فكتبوا عنها كتبا نكتفي بذكر واحد منها هو كتاب " **الخلافة والعالم الإسلامي** " **لجوليان** 1926 .

ولم يفت المستشرقون الفرنسيون أن يكتبوا عن جغرافية العالم الإسلامي وعن رجالاتها حيث برز في هذا الميدان مجموعة محترمة من أمثال: **بوستل " وصف القاهرة "** 1925، **وديلابورت " مباحث جغرافية عربية في إفريقيا "** بمعاونة **دي ساسي** سنة 1921، و **جويار " جغرافية الإدريسي "** سنة 1836 – 1840، **وبلاشير "مقتبسات من أشهر الجغرافيين العرب في العصر الوسيط"** سنة 1932 .

ونشط المستشرقون الفرنسيون للعلوم والفنون العربية، ونبغ فيهم فطاحل خرجت من تحت أيديهم مصنفات قيمة منهم: **كليمان موله "التاريخ الطبيعي عند العرب** "سنة 1837، و" **علم الطبيعيات**"، و"**طبقات الأرض عند العرب**"، و"**مصدر لتاريخ العلوم عند العرب** "، **وماسينيون "البيروني والقيمة الدولية للعلم العربي** " سنة 1951، **وشارل بيلا " تاريخ العلوم عند العرب من رسالة الفلك لابن قتيبة** " سنة 1954 .

وفي الفنون برز **هربن "دراسات عن الموسيقى عند القدماء العرب"**، وترجمة "**كتاب معرفة الأنغام والضروب**"، **وكازانوفا "قائمة القطع الزجاجية في العصور البيزنطية والعربية في أواخر الفاطميين**" سنة 1839، **وسالادن " تاريخ الفن الإسلامي**" سنة 1907 [50].

هذا، وإن الباحث ليعجب لأناة المستشرقين الفرنسيين وصبرهم وجهدهم، وكيف أنهم تقاسموا فيما بينهم العمل والاهتمام بالتراث العربي الإسلامي، فهذا تناول كتابا وذلك مؤلفا، والآخر عمد إلى جمع المصادر ودراستها بعد التعليق عليها ثم القيام بنشرها، حتى غدت مؤلفاتهم مرجعا للعلماء والباحثين في كل مكان سواء في الغرب أو الشرق .

---

50 – أنظر تفصيل ذلك في كتاب " المستشرقون " لنجيب العقيقي، ج 3 ص 438 – 596

المجلات:

يبث المستشرقون الفرنسيون آراءهم في مقالات تنشرها مجلات خاصة مكلفة بالأبحاث والدراسات الاستشراقية الفرنسية، وفي ما يلي كشف لأسماء أهم المجلات والدوريات :

- **صحيفة العلماء** (1665)، تصدر عن جمعية العلماء الفرنسيين في باريس، وتخص العرب والإسلام بدراسات رصينة.
- **المجلة الأسيوية** (1822) .
- **المجلة الإفريقية** (1856)، تصدرها الجمعية التاريخية الجزائرية في الجزائر.
- **نشرة معهد مصر** (1859) .
- **مجلة تاريخ الأديان** (1880) .
- **مجلة العلوم الدينية** .
- **نشرة المراسلات الإفريقية** (1881) .
- **حوليات الجغرافيا** .
- **مجلة الدراسات الإسلامية** (1927) بإشراف **لويس ماسينيون**، التي سدت الفراغ الذي أحدثه احتجاب مجلة العالم الإسلامي (1906 – 1926) .
- **مجلة أربيكا** (1954) .....[51] .

من خلال هذا الجرد السريع لأسماء هذه المجلات والدوريات والنشرات يلاحظ تعدد اهتمامات المستشرقين الفرنسيين حيث يخوضون في كل موضوع يتعلق بالعالم الإسلامي من قريب أو بعيد، مع عرض لإنتاجات المستشرقين وكذا قضايا الاستشراق، يقول **نجيب العقيقي**: **"لفرنسا مجلات خاصة بالاستشراق أو وثيقة الصلة به تصدر في باريس والشرق الأدنى وشمالي إفريقيا منذ عهد بعيد، عن الجمعيات أو المعاهد أو الإدارات الحكومية أو**

---

51 – أنظر: نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1 ص 147 – 151

الهيئات الخاصة أو الرهبانات ذوات اللسان الفرنسي، خلا المجلات التي أنشأتها جمعية المستشرقين باللغة الفرنسوية، وتعنى جميعها بالعرب في تحقيق تاريخهم وجغرافيتهم وأنسابهم، وبحث أديانهم وشرائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم ودرس لغاتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم، فأطلعت الغرب على أصالة الشرق وخصائصه وتطوره، وألفت من مجموعها مكتبة نفيسة فيها زبدة أعمال المستشرقين في آلاف المجلدات"[52].

2- *تقييم عام لأعمال المستشرقين الفرنسيين:*

يرى روبير منتران " **أن الاستشراق الفرنسي يتناول في القسم الأكبر من دراسته وأبحاثه الحقب الكلاسيكية وما بعدها بقليل خصوصا ما يتعلق باللغة والأدب والفن والآثار والعلوم الإسلامية والدينية ومتعلقاتها، غير أن ما يميز غالبية هذه الدراسات أنها فردية، أما الدراسة والبحث الجماعيان فلا يظهران إلا حينما يكون الموضوع مشاكل العالم الإسلامي وحده، ونادرا ما يمتد إلى دراسة مشاكل من الماضي السحيق"[53].**

أما عن أهم البحوث الإسلامية والعربية التي استأثرت باهتمام المستشرقين الفرنسيين، فيقول روبير منتران: " **أما النقاط القوية في البحوث الإسلامية والعربية الفرنسية بشكل عام فهي: اللغة والأدب العربي الكلاسيكي، وتاريخ البلاد والشعوب الإسلامية في الفترة الكلاسيكية، أي من القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر للميلاد، وكذا تاريخ مصر وعصر المماليك في القرن التاسع عشر، وتاريخ المغرب المعاصر والعالم التركي في العصر الوسيط، وتاريخ الإمبراطورية العثمانية ولما في مجال الفن والآثار والكتابات الأثرية، ولا سيما فيما يخص العالم العربي دراسات جديرة بالاهتمام، وكذلك بشأن المغرب العربي ومصر"[54].**

---

[52] - نفس المرجع، ج 1 ص 146 - 147

[53] - المرجع السابق، ج 1 ص 36 .

[54] - نفس المرجع، ونفس المكان .

وعن الدراسات الإسلامية والفلسفية والبحوث التي تتناول تاريخ العلوم فيراها **" ما تزال شحيحة باستثناء قضية جزئية هي تطور الفكر الإسلامي في القرن التاسع عشر وجملة بحوث تخص الفترة الكلاسيكية، أما تاريخ العلوم فهو حسب قوله شبه مهمل وكذا الأمر بشأن الشريعة والفقه"**[55].

في الجانب الآخر **" يبرز التاريخ في منظور منتران كقوة مركزية في الدراسات الاستشراقية الفرنسية، ومع ذلك لم تسلم تلك الدراسات من العيب، إذ اهتمت بشكل كبير ببدايات العالم الإسلامي وصدر الإسلام، ورصد السلالات المحلية التي حكمت تلك العهود الأولى للإسلام، أما ما يخص العالم الإسلامي المعاصر وما يتصل بالشرق الأدنى في أيامنا، فالنقص كبير"**[56].

وفيما يتعلق بشمال إفريقيا ودراسة تاريخها المعاصر فيبدو **منتران** راضيا بالجهد الذي تبذله فرنسا في هذا المجال، خصوصا وأنها أنشأت مختبرا مزودا بوسائل ناجحة هو مركز البحوث والدراسات لجمعيات البحر المتوسط **في إكس بروفنس**، وعن دور هذا المركز يتحدث منتران: **" يقوم هذا المركز بنشر مطبوعات تدور حول بلاد المغرب ولا تهمل دراساته الجوانب الاقتصادية والسياسية وعلوم الاجتماع والجغرافية والثقافية المعاصرة. وقد اكتسبت شهرة عالمية بحيث بات يقصده باحثون ودارسون من شتى أقطار العالم"**[57].

هذا، ومن مميزات هذا المركز أيضا أنه ينشر سنويا دليلا لبلدان شمال إفريقيا على مدى نحو عشرين عاما .

وعن النواقص التي اعتورت مسيرة الدراسات الاستشراقية الفرنسة، **فيجملها منتران بقوله: " لا يوجد مثلا بحوث جماعية تتناول علوم اللغة العربية، ويجب أن تشكو من نقص معجم عربي – فرنسي جيد، يستخدمه المستعرب والعربي معا.**

---

55 – نفس المرجع، ج 1 ص 37 .

56 – نفس المرجع، ونفس المكان .

57 – نفس المرجع، ونفس المكان .

أما في مجال الأدب العربي، فإن نشر النصوص العربية ما يزال موضوعا مقتصرا على أفراد قلائل لكننا لا ننسى بعض ما يتم منذ سنوات في البلدان العربية والإسلامية نفسها. وينبغي الخروج لدى دراسة الأدب، عن المفهوم التقليدي الضيق وذلك بربط الموضوع بوشائج المجتمع العربي والإسلامي، أي في البيئة التي عرف فيها هذا الأدب ولادته وانتشاره"[58].

3 – *مميزات الاستشراق الفرنسي:*

هناك سمات صبغ بها الاستشراق الفرنسي نفسه حتى تميز عن باقي المدارس الاستشراقية الأخرى، من هذه السمات ما هو راجع إلى مكونات الفرنسي ذاته النفسية والخلقية والتي يقول عنها اللورد كرومر: **"إن الأسباب التي تجعل الحضارة الفرنسية ذات درجة خاصة من الجاذبية بالنسبة الأسيويين وسكان شرقي المتوسط واضحة، وفي واقع الأمر، إن هذه الحضارة أكثر جاذبية من حضارتي إنجلترا وألمانيا، بل إنها علاوة أكثر سهولة للتقليد. قارن بين الإنجليزي الحيي، الذي لا يظهر انفعالاته بحصريته الاجتماعية وعاداته العزلوية، مع الفرنسي المفعم حيوية والمدائني، الذي لا يعرف معنى لكلمة الحياء، والذي يبدو وبعد عشر دقائق على علاقة صداقة حميمة مع أي إنسان يحدث أن يلقاه صدفة"[59] .**

ومنها ما هو راجع إلى ظروف بيئية واجتماعية وثقافية عاشتها فرنسا وتأثرت بها وأثرت فيها وتضافر هذا مع ذلك وأفرز مدرسة استشراقية واضحة في معالمها متفردة في سماتها وصفاتها متميزة في أسلوبها .

ولتوضيح ذلك نستند لماما لما يقوله يوسف أسعد داغر: **"تصطبغ – المدرسة الفرنسية – بالوضوح في الإفصاح والجلاء في التعبير، والأسلوب في البحث، والمنهج في السياق. فالمستشرق الفرنسي يهمه أن يعطيك عن**

---

[58] – نفس المرجع، و نفس المكان .

[59] – أنظر: إدوراد سعيد، المرجع السابق، ص 222 .

الموضوع الذي يبحث فيه أصدق صورة وأتمها مجلوة بعبارة ناصعة واضحة لا يواجهها لبس أو غموض. قد لا تجد فيه التتبع المضني للرأي العلمي في شتى دقائقه وألوانه ولا التقصي الدقيق الذي يصادفه مثلا لدى المستشرق الألماني"[60].

وينضاف إلى هذه السمات التي ذكرها داغر، سمة أخرى ذات دلالة خاصة وهي النزعة الإنسانية الفرنسي، وتجلية ذلك يظهر من خلال قول **روبير منتران: " لم يتحل المستشرقون بأيديولوجية التعالي فيما يخص حضارتهم، فلم يعتبروها أسمى من غيرها، بل انطلقوا من فكرة تصبو إلى التعرف الدؤوب على مختلف الحضارات"**[61] .

غير أنه يبدو من الصعب جدا في وقتنا الحاضر تعميم هذه السمات على مجموع مستشرقي فرنسا، بجمعهم على صعيد واحد ورؤية واحدة ومنهج واحد. نظرا لالتزام بعضهم بأيديولوجيات وتوجهات معرفية، وانسياق بعضهم الآخر نحو مناهج علمية مختلفة، من ثم يصبح من الصعب أيضا إن لم يكن من المستحيل جمع جميع مستشرقي فرنسا في سلة واحدة والحكم عليهم بحكم واحد.

---

60 – مصادر الدراسة الأدبية، ج 2 ص 775 .

61 – المرجع السابق، ج 1 ص 37 .

الباب الثاني

آراء المستشرقين الفرنسيين في القرآن الكريم

الفصل الأول: آراء المستشرقين الفرنسيين في تاريخ القرآن الكريم

لقد ظلت أوروبا حتى القرن السادس عشر كسائر الأمم الأخرى تفسر كتبها الدينية على أنها وحي من الله، ومع بداية منتصف القرن السادس عشر وما صاحبها من شكوك واكتشافات علمية، أخذ الغربيون يشككون في معتقداتهم الدينية، فهذا **فرنسيس بيكون** (1565 – 1626) يفتح باب الشك بشيء من الاعتدال ويقول: **"قد لا أعتقد بجميع القصص والأساطير التي جاءت بالكتب الدينية ولكن لا يمكن أن أعتقد بعدم وجود عقل مدبر لهذا العالم"**[62].

وفي سنة 1656 استدعي **سبينوزا** (1622 – 1677) أمام رجال الكنيسة بتهمة الهرطقة، جاء في رسالته في الدين والدولة: **".أن الكتب السماوية المنزلة لا تفسر الأشياء بأسبابها الثانوية، ولكنها تقدمها وترويها في طريقة وأسلوب قوي متدفق للتأثير على الناس ودفعهم إلى الإيمان والنسك والعبادة وخاصة الفئة الجاهلة القيم المتعلمة عنهم"**[63] .

وظهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، مذهب عرف أصحابه بالإلهيين يعتقدون بإله واحد وينكرون الأديان الموحى بها، ويرون أنه كان للناس منذ أبعد الأزمنة دين طبيعي قائم على الصلات بين الله وبين الناس بدون واسطة. ويرى الكاتب الفرنسي **فولتير** (1694 – 1779) **" أن فكرة التأليه، إنما اخترعها دعاة ماكرون من الكهنة والقساوسة"**[64].

"وهكذا استمرت الشكوك في الفكر الغربي بشكل واضح وتعالت الصيحات معلنة أن مسألة الوحي من بقايا الخرافات القديمة، وعللت ما جاء من الوحي في الكتب القديمة بأنه إما اختلاق من المتنبئين أنفسهم لجذب الناس إليهم، وإما هذيان يعترض بعض العصبيين فيخيل إليهم أنهم يرون أشباحا تكلمهم ولا يرون في الواقع شيئا"[65].

---

62 – أنظر: ول ديورانت، قصة الفلسفة، ص 204 .

63 – نفس المرجع، ونفس المكان .

64 - Voltaire , Essai sur les mœurs-annales de l'empire , p. 33.

65 – أنظر: فريد وجدي، دائرة المعارف القرن العشرين، ص 712 – 713

ومجمل هذه الصيحات تحاول قطع الصلة التي كانت الكتب الدينية المنزلة أقامتها بين السماء والأرض، فظهرت **المدرسة الاجتماعية** مع **دوركايم** التي ترى أن الظاهرة الدينية اجتماعية في تكوينها، مثلها مثل الظواهر الأخرى نشأت عن عبادة السلف.

وظهرت **المدرسة الماركسية** فأرجعت الظاهرة الدينية إلى انعكاس لتفوق فوق الطبيعة في ذهن الإنسان البدائي حيث أنه كان يفترض وجود قوى ما فوق الطبيعة تتحمل مسؤولية الكوارث الطبيعية، ولهذا كان على الإنسان أن يهادن هذه القوى بعبادتها وتقديم الهدايا والقرابين لها، فكان يتصورها على أنها تملك من القوة ما تستطيع به التأثير في حياته سواء بالخير أو بالشر، ثم أخذ الدين يتطور نتيجة لتطور المعارف الإنسانية، فاكتشف الإنسان أن الخطر لا يأتيه من القوى الطبيعية وإنما يأتيه من القوى الاجتماعية والاقتصادية.

وظهرت أيضا **المدرسة النفسية**، فحللت نشأة هذه الظاهرة تحليلا يختلف عن التحليل الماركسي، وإن كانت تتفق معه في قطع الصلة بين السماء والأرض في تفسير هذه الظاهرة، فالإنسان في نظر هذه المدرسة يشعر بضعف، وهذا الضعف منشأ تلك العلاقة الوطيدة التي كانت بين الطفل والأب وتتمثل هذه العلاقة في دور الرعاية والحماية من طرف الأب اتجاه الطفل، لكن الطفل عند كبره سيستقل عن الأب وبالتالي تنتهي رعايته له، فمن سيعوضها ؟.

إن الطفل وقد أصبح رجلا سيتعرض لأزمات خطيرة، فمن سيحميه ؟ إنه وهو طفل يحميه الأب، أما وقد أصبح رجلا، هل سيلجأ إلى الأب، خصوصا وقد ظهر له من خلال تجاربه حدود الطاقة البشرية وضعفها، إذن فهو سيبحث عن مصدر آخر يحميه ويكون ذا طبيعة علوية، ولكنه مصبوغ بصبغة إنسانية مبالغ فيها فهو قوي، قاس عطوف، يعرف كل شيء، ويطالب بخضوع لا مشروط " قم بهذا لأني أمرتك به " وهذا هو الإله السماوي الذي سيقوم بدور الأب .

يقول وحيد الدين خان :" **الذي يثير الدهشة أن الدين جاء على لسان الأنبياء يشمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللاشعور هو مخزن هذه المعلومات فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها؟**"[66].

لقد عرف التاريخ كثيرا من الزعماء ممن تنبئوا بأمور مستقبلية، إلا أن تنبؤاتهم باءت بالفشل وجاءت على عكس ما تصوروه، فهذا الزعيم النازي **هتلر** ألقى خطابا في مدينة **ميونيخ** سنة 1931، جاء فيه: "**إنني سائر في طريقي واثقا تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لي**"[67].

ولكننا نعرف النهاية المأسوية التي أنهى بها **هتلر** حياته هي الهزيمة والانتحار.

إن الغرب ما يزال يصر على قطع الصلة بين الناس وخالقهم، برفضه لظاهرة الوحي الإلهي، معتبرا إياها من الإلهام النفسي، فلقد ظهرت البحوث الروحية " **في أمريكا سنة 1847 م، يلخص فريد وجدي نتيجة من نتائج الأبحاث التي توصل إليها العلماء في هذا المجال، ثبت لديهم وجود شخصية راقية للإنسان وراء شخصيته العادية، وهي التي تهديه بالخواطر الجيدة، وهي التي تعطينا الإلهامات الطيبة الفجائية في الظروف الحرجة، بل هي التي تنفث في روح الأشياء وما يعتبرونه وحيا من الله، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء**"[68].

فبناء على هذا التفسير، لا يوجد لذلك الرابط الذي يربط بين السماء والأرض أي بين الله تعالى وبين النبي الموحى إليه، فما يحصل للنبي لا يكون بنزول الملك من السماء ليبلغه كلام الله، بل هو إنتاج الشخصية الباطنية التي يسلكها كل فرد، فهي التي ترشده وتعلمه

66 – الإسلام يتحدى، ص 33، ترجمة: ظفر الإسلام خان .

67 – نفس المرجع، ص 112 .

68 – نفس المرجع، ص 544 .

وعلى أثر ذلك، أخذ المستشرقون يبحثون عن المصادر التي من الممكن أن محمدا قد استمد منها معلوماته الدينية، فتاهوا في بحثهم عنها، فتارة يقولون إن هذه المصادر مسيحية وثانية يقولون إنها يهودية وثالثة إنها يهودية مسيحية معا، ورابعا إنها بعض الفلسفات القديمة، وخامسا من الرهبان الذين صادفهم الرسول صلى الله عليه وسلم، في رحلاته التجارية كبحيرى وأخرى من الشعراء الذين كان يستمع إلى شعرهم وخطبهم في سوق عكاظ كقس بن ساعدة، وبذلك وقع التعقيد والتخبط في بحثهم .

ولم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن مصدر القرآن، ولا عن الوحي، زد على هذا أن أكثر كلامهم عن الوحي كان معطلا عن الأدلة ,

والسبب الرئيس في هذه الحيرة والتخبط الذي لا ينال استقرارا على رأي واحد، يرتبط جذريا بإنكار الوحي، وكذا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ,

وفيما يلي بيان لأهم آراء المستشرقين الفرنسيين في هذا المجال .

المبحث الأول: مصدر القرآن:

يقول رسلر J. Risler في مقدمة كتاب " محمد والقرآن " لإدوار مونتيه:

«Il serait inutile d'insister sur l'intérêt véritablement exceptionnel que représente le Coran. Ce recueil des paroles immortelles tombées de la bouche du Prophète au cours de sa vie prodigieuse, les Musulmans l'ont appelé "Le Livre", comme s'il incarnait la loi par excellence, c'est-à-dire le rassemblement des préceptes de chaque Musulman se doit de conserver pieusement dans son esprit et dans son cœur. Ce que l'on ne marquera pas d'observer, c'est que le Coran repose sur les traditions les plus anciennes. Aussi, le lecteur ne sera sans doute nullement étonné de discerner dans cet exposé de la doctrine coranique l'influence profonde de la Bible hébraïque et des traditions juives, de L'Evangile et des traditions Chrétiennes de même ne sera-t-il pas surpris de retrouver à chaque instant les traces de la survivance des anciennes croyances qui précédèrent, il y a bien longtemps, l'apparition des religions révélées.

En vérité, le Coran ressuscite et précise ces principes immuables qui, au commencement des temps civilisés, constituèrent la vie religieuse de l'humanité chaldéenne, assyrienne ou persane.

Telles avaient été les premières manifestations de l'idéologie religieuse, que les vents avaient emportées et qui retombèrent sur les peuples endormis du monde oriental .Ces légendes, ces traditions orales, ces réminiscences, le Prophète Mahomet comprit qu'il fallait les rassembler et les codifier sous forme de la loi morales, par la voix du livre.

Telle qu'elle apparut, la doctrine, que l'on trouve exposée dans le Livre, bien qu'elle ait rassemblé la quintessence des dogmes antérieurs, se montre pleine d'une profonde originalité».

" إنه ليس من النافع أن نؤكد على القيمة المهمة التي يمثلها القرآن هذه المجموعة من الكلمات الخالدة التي خرجت من فم الرسول خلال حياته العظيمة، والمسلمون سموه الكتاب كما لو كان يجسد القانون يعني مجمع المفاهيم التي يجب على كل مسلم أن يحافظ عليها في فكره وقلبه، والذي لا يفوتنا أن نشير إليه هو أن القرآن يرتكز على تقاليد أقدم منه، لذلك فإن

القارئ لن يكون مندهشا إذا ما أدرك في عرض المذهب القرآني التأثير العميق لتوراة اليهود وتقاليدهم، وإنجيل النصارى وتقاليدهم كذلك فإن القارئ لن يكون مندهشا إذا ما وجد في كل وقت آثار بقايا المعتقدات القديمة التي سبقت بزمن طويل ظهور الأديان الموحاة، وفي الحقيقة إن القرآن يبعث ويوضح هذه المبادئ القارة التي في بداية الحضارة شكلت الحياة الدينية للكلدانيين والأشوريين والفارسيين .

كانت هذه أولى تمظهرات الأيديولوجية الدينية التي حملتها الرياح وألقت بها على الشعوب النائمة للعالم الشرقي، هذه الأساطير والتقاليد الشفوية وهذه البقايا فهم النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لابد أن تجتمع وتقتن في إطار القانون الأخلاقي للكتاب (القرآن) .

هكذا ظهرت المذهبية المعروضة في القرآن التي رغم أنها جمعت الاعتقادات العميقة، فإنها لا تخلو من أصالة عميقة"[69] .

في الحق، يجسد هذا النص المعاني العامة التي اتفق على جوهرها المستشرقون الفرنسيون عند حديثهم عن موضوع مصدر القرآن وإن اختلفوا في بعض الأحايين في الشكل لهذه المعاني، التي أعني بها المصادر التي استقى منها محمد معاريفه الدينية .

فهذا إدوارد مونتيه **E. Montet** ينسب المعرفة الدينية التي تلقاها محمد صلى الله عليه وسلم إلى ثلاثة عناصر الأول خارجي والثاني داخلي والثالث ذاتي أضافه محمد من عنده، يقول:

«Il y a dans le Coran trois sources de connaissance religieuse: Il y a d'abord une source juive et chrétienne, à laquelle Mahomet a pu puiser par l'intermédiaire de la tradition orale, il est absolument certain qu'il n'a jamais eu entre les Livres sacrés des Juifs et des Chrétiens.

Il y a ensuite un fond antéislamique, auquel se rattachent les antiques usages religieux arabes que le Prophète a maintenus.

Il y a enfin l'élément nouveau, l'Islam, introduit par Mahomet».

---

[69] - E. Montet , Mahomet le Coran , p. 5 - 6

" في القرآن نجد ثلاثة مصادر للمعرفة الدينية: الأول المصدر اليهودي والمسيحي، ومنه عرف محمد بواسطة الرواية الشفهية، ويقينا أنه لم ير أي كتاب مقدس لليهود أو النصارى، الثاني الأخبار القديمة التي حفظها محمد، وأخيرا الإسلام الذي جاء به محمد"[70].

وأضاف قائلا:

«La morale du Coran a conservée des antique usages de l'Arabie de la polygamie et l'esclavage, mais en limitant la première et en adoucissant le second».

" إن حكمة القرآن قد حافظت على التقاليد القديمة بالجزيرة كتعدد الزوجات والرق، لكن مع تحديد الأولى وتلطيف الثانية"[71].

ورغم اعترافه بوجود هذه المصادر الثلاثة في القرآن الكريم، يرى أن اليهودية تشكل المصدر الرئيس للعقيدة القرآنية، بقوله:

«La religion Juive parait avoir été la principale source de la doctrine coranique. Cela est si vrai que , dans les éléments communs au christianisme et au judaïsme, dont nous constations la présence dans le Coran , le texte arabes du Prophète est pénétré de l'inspiration juive plutôt que de l'inspiration chrétienne: c'est la forme juive qui l'emporte. Cela n'a rien de surprenant, Juifs et Arabes étant tous deux d'origine sémitique: il s'agit ici d'une influence de race».

"ما يؤكد ذلك أننا نجد عناصر مشتركة بين المسيحية واليهودية التي نلاحظ حضورها في القرآن الكريم إلا أن النص العربي للنبي تعمق في الإلهام اليهودي أكثر من الإلهام المسيحي، لذلك فالشكل اليهودي هو المسيطر وليس في ذلك ما يدعو للدهشة ما دام اليهود من أصل سامي، فالأمر يتعلق هنا بتأثير الجنس"[72].

وهو نفس رأي هنري ماسيه **Henri Massé**، الذي يقول:

---

[70] - Op. Cit , p. 20 - 21
[71] - Op. Cit , p. 22
[72] - Op. Cit , p. 27

«Il est incontestable que, dans le Coran, l'influence juive se décèle plus précisément que l'influence chrétienne».

"ومما لا ريب فيه أن التأثير اليهودي في القرآن يبدو أكثر وضوحا من التأثير المسيحي"[73] .

ويظهر أن هذا الرأي لم يعجب بعض المستشرقين حيث رأوا فيه تنقيصا للتأثير المسيحي في العقيدة القرآنية، فهذا **موريس جود فري ديمومبين** **Gaude froy-Demembynes Maurice** يرى أن الاتصالات الأولى للنبي كانت مع المسيحيين من خلال رحلاته التي قام بها إلى سوريا التي التقى فيها بالراهب **بحيرى**، وعلى هذا تكون المسيحية من وجهة نظره المصدر الأساس للمعرفة الدينية التي كانت للرسول صلى الله عليه وسلم، طيلة السنوات الأولى لدعوته ثم يقول :

« Mais on s'est étonné, avec raison, que mis en présence des cérémonies chrétiennes dans des églises ornées de statues et de peintures, il n'en ait conservé aucun souvenir».

" لكن الذي يحير بحق أن محمدا حضر احتفالات المسيحيين، في الكنائس المزينة بالتماثيل والرسوم، ولم يحتفظ لنا بأية ذكرى"[74].

وحاول **سيمون جرجي Simon Jargy** تبرير هذا الرأي محتجا على أن الإسلام كان يتعاطف مع المسيحيين ويقدر المسيحية، وأن هذا التعاطف والتقدير لم يتوقف على الأقل بالنسبة لمجموعة منهم إلى نهاية مهمة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

« Un verset résume l'excellence de cette entente islamo-chrétienne aux heures de son apogées, et au moment de la rupture avec les juifs à Médine».

" في القرآن آية تلخص الاتفاق الإسلامي – المسيحي الممتاز في ساعات ذروته، وفي وقت القطيعة مع يهود المدينة"[75] .

---

73 - H. Massé , L' Islam , p. 25
74 - Maurice Gaude froy-Demembynes , Mahomet , p. 62
75 - Simon Jargy , Islam et Chrétienté , p. 54

وذهب خياله بعيدا حين قال:

« Dans sa vie privée même , Mahomet n'a pas caché sa sympathie pour les Chrétiens , deux des femmes, qu'il épousera après la mort de Khadija avaient été mariées à des chrétienne, tandis que Marya, d'origine éthiopienne, sera également chrétienne. Il est vrai que la législation coranique autorise le mariage entre musulman mâle et chrétienne ou juive ».

"خلال حياته – أي حياة الرسول – لم يخف محمد تعاطفه مع المسيحيين، فالمرأتان اللتان سيتزوجهما بعد موت خديجة كانتا متزوجتين من مسيحيين، كما كانت ماريا من أصل أثيوبي هي أيضا مسيحية. والحقيقة أن الشريعة الإسلامية كانت تسمح بزواج الرجل المسلم بالمرأة المسيحية أو اليهودية"(76).

وختم قوله ب:

«L'accusation portée contre les juifs et particulièrement grave. L'accusation contre les chrétiens a un sens plus précis: ils occultent sciemment les Ecritures afin de ne pas reconnaître la mission prophétique de Mahomet et la véracité du message coranique».

" إن اتهام اليهود كان جد عنيف، في حين اتهام المسيحيين كان له معنى محدد، هو أنهم أخفوا علم كتاباتهم أو أناجيلهم، من أجل أن لا يعرفوا المهمة النبوية لمحمد، وكذلك صدق رسالته القرآنية"(77).

وعند طور أندري **Tor Andrae** أنه:

«Depuis Sprenger a établi son importante thèse de l'accord entre la doctrine coranique de la révélation et l'Elxaisme, on trouve chez presque tous les savants qui accordent quelque attention à l'influence du christianisme sur le monde des idées religieuses de Mahomet »(78).

---

76 - Ibid , p .56
77 - Ibid , p. 92
78 - Tor Andrae , Les Origines de l'Islam et le Christianisme , p. 9

"منذ أن قام Sprenger برسالته الهامة عن العلاقة بين العقيدة القرآنية والوحي ما فتئنا نجد معظم العلماء يولون عناية للتأثير المسيحي على عالم الآراء الدينية لمحمد".

ويبدو أن **طور أندري** نفسه انجرف وراء هذا الرأي عندما قال:

«Tout ce qui est dans le Coran, touche au Christianisme ».

"كل ما في القرآن يمس النصرانية من بعيد أو قريب"[79]. ورأى مجموعة من الباحثين " **أن النصرانية تركيب للإسلام كما أن اليهودية تركيب للنصرانية** " .

« Le Christianisme (et on peut en dire autant de Judaïsme) est une composante de l'Islam comme le Judaïsme l'est pour le Christianisme »[80].

وذهب **شارل بيلا Charles Pellat** إلى القول:

«Les voyages qu'il dut faire pour le compte de l'entreprise l'amenèrent à connaître des marchands juifs et chrétiens, et peut –être des moines qui jetèrent en lui les germes de l'inquiétude religieuse».

"إن الرحلات التي قام بها محمد لحساب زوجته قادته إلى معرفة تجار يهود ومسيحيين وربما رهبان الذين أوحوا إليه أصول الدين"[81] .

ونفى **بلاشير Blachère** أن تكون هذه الرحلات مصدرا لمحمد في تكوين معارفه الدينية، وقال :

«Pour ce qui touche du christianisme, nous ne possédons nul indice que Mahomet ait trouvé moyen de s'en instruire durant ses voyages d'affaire en Syrie ou ailleurs ».

---

79 - Ibid , p. 201
80 - Groupe de Recherches Islamo-Chrétiens , ces Ecritures qui nous questionnent la bible et le Coran , p. 134
81 - Charles Pellat , L'Islam , Civilisations peuples & Mondes , p. 443

" فيما يتعلق بالمسيحية فليس لدينا أي دليل على أن محمدا قد توصل إلى وسيلة لمعرفتها من خلال أسفاره التجارية في سوريا أو غيرها"[82].

لكن يبدو أن هذه الفكرة، قد جرت ذيولها على بلاشير، حين أعلن في هامش كتابه "**معضلة محمد**" أن **سيرجيوس بحيرى** أملى على النبي صلى الله عليه وسلم، كل المادة العضوية للقرآن، يقول:

«Le moine Serguis dicte à Mahomet toute la matière organique du Coran »[83].

ومن أغرب الخيال أن نجد المستشرق الروماني **Ghlorghiu** يتحدث عن راهب آخر اسمه **نيسترويس** كان يعيش في نفس حجرة بحيرى بعد موته، وأن هذا الراهب شرح للنبي صلى الله عليه وسلم كسابقه بحيرى بأن الله ليس خاصا بجنس أو شعب كما يتصوره اليهود وأن الله يرى للرجال الأتقياء في كل الجنسيات وبكل حرية ويمكن للرجال أن يرتقوا إلى معارف الأتقياء رغم كونهم ليسوا يهودا أو نصارى، أو إذا كانوا ذوي لون أصفر أو أحمر أو سود أو يابانيين أو هنود، وقال له حتى العرب يمكن أن يظهر من بينهم نبي، وهذا نص كلامه:

«La Caravane traverse de nouveau Bosra. Le moine Bohaira est mort. Dans sa cellule vit un autre moine, qui s'appelle Nestorius. qu'il soit manichéen ou non, Nestorius explique à Mahomet, comme son prédécesseur, que Dieu n'est pas la propriété excusive d'une race ou d'un peuple, ainsi que le prétendent les Juifs, et que Dieu se montre aux saints hommes de toutes les nationalités et sous toutes les latitudes. Les hommes peuvent accéder à la sainteté, même s'ils ne sont ni Juifs, ni Chrétiens, même s'ils sont de couleur jaune, rouge ou noire, Japonais ou Indiens. Il lui dit que même les Arabes, peut apparaître un prophète »[84].

---

82 - R. Blachère , Le problème de Mahomet , p. 36
83 - R. Blachère , Le problème de Mahomet , p. 31
84 - C. Virgil Ghlorghiu , La vie de Mahomet , p. 79 - 80

وجمح به خياله الطائش مرة أخرى وزعم أن محمدا قد سمع المواعظ الدينية الأولى في سوق **عكاظ**، وقد كان لها تأثير بالغ عليه، ومن الشعراء – في نظره – الذين شدوا بشعرهم انتباه النبي صلى الله عليه وسلم، الأسقف **قس بن ساعدة** الرئيس الديني لمدينة **نجران**، ثم قال بعد ذلك:

«Pour Mahomet, la visite à foire d'Ukaz est une leçon majeur» [85].

"إن زيارة سوق عكاظ بالنسبة لمحمد أصبحت درسا هاما".

ومن ناحية أخرى، أثار المستشرقون الفرنسيون في طريق بحثهم عن مصادر القرآن قضية أخرى تتعلق بمصدر القصص القرآني، وزعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم، اقتبسها من ثلاثة مصادر رئيسة، وهي:

1 – أسفار العهد القديم .

2 – التلمود .

3 – أناجيل العهد الجديد .

كما استعان ببعض حكايات العرب وأساطيرهم قبل الإسلام، خصوصا ما تعلق منها بأخبار الشعوب العربية الغابرة كعاد وثمود وغيرها .

ويركزون في هذا الصدد على بعض القصص التي تماثل القصص اليهودي والمسيحي فيقولون :

«-L'histoire biblique de la Création du père du genre humain et de son séjour au Paradis est relaté dans le Coran. - Le paradis: c'est à une source aggadique que Mahomet a emprunté le tableau général du paradis , dans lequel il a ajouté quelques détails secondaires pour l'adapter à la mentalité arabe.

- Caien et Abel: le récit biblique des deux fils d'Adam est relaté dans le Coran sous une forme un peu différente.

---

85 - Ibid , p. 74

- Ad et Thémoud: l'histoire de la chamelle des thémoudites est sans doute d'origine arabe anté-islamique , car il n'y a rien d'analogue dans la littérature aggadique.

- Nemrod et le Patriarche: Cette histoire du patriarche Abraham est tirée entièrement des sources aggadiques.

- Joseph et La femme de Potiphar: tous ces détails sont tirés de sources rabbiniques dans le Talmud Babylonien.

- Histoire de la Vierge Marie: Toute cette légende est tirée du Proévangile de Jacques ».

"- إن قصة خلق سيدنا آدم وكذا إقامته في الجنة قصة توراتية مروية بتفصيل في القرآن .

- إن قصة الجنة مصدرها هاجادي، استعار محمد من هذا المصدر الإطار العام وأضاف عليه بعض الجزئيات الثانوية لكي توافق عقلية العرب .

- إن قصة قابيل وهابيل رواية توراتية رواها القرآن بشكل مختلف بعض الشيء عن الرواية التوراتية .

- أما قصة ناقة ثمود، فلاشك أنها من أصل عربي لأنها ليس لها نظير في الكتابات الهاجادية[86] .

- أما قصة الأب إبراهيم مستمدة كليا من مصادر هاجادية.

- أما قصة يوسف وامرأة العزيز، فكل أجزائها مأخوذة من مصادر الحاخامات ومن تلمود بابليون .

- وأما قصة مريم العذراء، فكل أساطيرها مأخوذة من أناجيل جاك"[87]

---

86 **الهاجادة:** أحد كتب اليهود المحشوة بالأساطير، وليس كتابا منزلا. ولكنه مجموعة أخبار وقصص وقواعد كثيرة منها ما هو- خيالي من التوراة نفسها والتقاليد اليهودية، وفيها تحويرات كثيرة للتاريخ اليهودي والعقائد الدينية فضلا عن أن هذا النظام أو هذه المجموعة أو هذه الأساطير، لم تكن مكتوبة ولا معروفة لدى العرب، ولذلك كان الأخذ منها يعد في حكم المستحيل .

87 - D. Sidersky , Les Origines des légendes musulmans dans le Coran et dans les vies des prophètes , p. 1 – 137.

ويصرح Sidersky بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، سرد كل هذه القصص في القرآن لتدعيم عقيدة التوحيد التي بشر بها، ويتضح لنا ذلك من قوله:

«Pour étayer sa doctrine du monothéisme, le Prophète des Arabes entretenait ses auditeurs païens de l'histoire de certains personnages bibliques. Toutefois les narrations coraniques diffèrent notablement des textes correspondants de l'Ancien et du Nouveau testament, que Mahomet avait évidemment déformés et amalgamés avec des récits de sources apocryphes».

"لكي يعضد نبي العرب عقيدة التوحيد الإسلامية، حدث مستمعيه الوثنيين عن بعض الشخصيات التوراتية. ومع ذلك فالروايات القرآنية تباين النصوص التي تنتمي بالخصوص إلى العهد القديم والجديد. والتي من الواضح أن محمدا بدل أو غير فيها ومزجها بروايات أبو كريفية أخرى مختلفة"(88).

وذكر **طور أندري** Tor Andrae بعض التأثيرات الأخرى التي نقلها عنه **هنري ماسيه** H. Massé في كتابه " **الإسلام** " مثل تأثير **السريانيين** وتأثير **السبئيين** وتأثير **السامريين**، يقول :

«Il convient d'indiquer les singulières correspondances que Tor Andrae a récemment constatées plusieurs passages du Coran rappellent des textes syriaques du Coran , qui figurent parmi les plus anciens, ressemblent étrangement à certains passages des homélies de Saint Ephrem. D'autre part, à l'influence des Sabiens dont parle de Coran, il faut ajouter la possibilité d'une influence samaritaine»(89).

وزعم مجموعة من المستشرقين في مقدمتهم Pareja أن النبي صلى الله عليه وسلم، أخذ من عقائد الجاهلية: الإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بالجن، و حرمة الكعبة والحج بكل ممارساته، يقول:

---

88 - Op. Cit , p. 1
89 - H. Massé, L'Islam, p. 25

«Les sources autochtones que constituaient les traditions et les mœurs arabes, telles, par exemple, la croyance aux gins, génies, les récits légendaires de peuples disparus, les rites du pèlerinages et la vénération de la Kàba»(90).

ومع هذا التفاوت في تعيين مصدر القرآن الكريم، ومع هذا الاختلاف الواضح في الرأي إلا أن كلمتهم تكاد تتحد على اعتبار اليهودية والمسيحية المصادر الأساسية للقرآن، وعلى اعتبار القرآن أيضا عملا أصليا وشخصيا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال **هنري لامينز H. Lammens**:

«Le Coran doit être considéré comme l'œuvre authentique et personnelle de Mahomet »(91).

إلا أن ساحة الاستشراق الفرنسي لم تخل من مستشرقين موضوعيين، أنصفوا الإسلام والرسول صلى الله عليه وسلم، من هذه الافتراءات والضلالات، من أمثال **Roger du Pasquier** الذي رد بقوة على هؤلاء المستشرقين، ووصفهم بأعداء الإسلام، حين قال:

«Les études faites en occident pour tenter de déterminer les sources ou aurait puisé Muhammed ou de démontrer le phénomène psychologique par lequel il aurait tiré son inspiration de son inscient n'ont jamais prouvé qu'une chose: Le préjugé antimusulman de leurs auteurs».

"إن الدراسات التي تمت في الغلاب لتحديد المصادر التي استقى منها محمد أو لتبين الظاهرة النفسية التي أخذ منها إلهامه من "لاوعيه" لم تثبت قط إلا شيئا واحدا: الوهم الذي يعيشه أعداء الإسلام من المؤلفين "(92).

ورأى **ماصون Masson**:

«Le Coran retient les noms de quelques prophètes de la Bible et relate un certain nombre d'épisodes les concernants. La tradition musulmane est cependant unanime pour affirmer qu'il

---

90 - F. M. Pareja, en collaboration Islamologie , p. 598
91 - H. Lammens , L'Islam croyances et institutions , p. 49
92 - Roger du Pasquier , Découverte de l'Islam , p. 63

ne s'agit pas d'emprunts aux livres des Anciens, mais que tout ce qui intéresse ces personnages a été directement révélé à Muhammed. On lit, en effet à la suite de l'histoire de Noé».

"إن القرآن احتفظ بأسماء بعض أنبياء التوراة، وروى بتفصيل حقبا معينة متعلقة بهم. غير أن الرواية الإسلامية المجمع عليها تؤكد أن الأمر لا يتعلق بالاستعارة من كتب القدامى ولكن كل ما يتعلق بهؤلاء الأشخاص كان موحى بها مباشرة. ونقرأ ذلك عند تتبعنا لقصة نوح"[93] .

وأنكر Bousquet أن يكون القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، موضحا أن هذه الفرية ألصقها به المسيحيون ردا على إنكار القرآن لألوهية المسيح، ثم قال:

« L'homme extraordinaire dont nous allons parler n'est pas, pour eux, l'auteur, mais la Révélation du Coran, chargé par Allah de transmettre son message au monde: Allah seul, et non Mahomet, en est l'auteur».

"إن الرجل الفذ الذي سوف نتكلم عنه ليس مؤلفا، ولكن مفسرا للقرآن، مبعوث من الله لتبليغ رسالته إلى العالم: الله وحده، وليس هو المؤلف"[94].

ويتابع قوله :

«Le texte du Coran se présente théologiquement comme la parole même de Dieu, dont Mahomet n'a été que le récitant, aucun livre de la Bible ne se présente de la sorte à nous, et cela souffrit pour donner au Coran une originalité remarquable».

" إن نص القرآن يظهر بمظهر لاهوتي كأنه كلام الله، وأن محمدا ليس إلا راو لهذا النص، ولا كتاب من التوراة يظهر بمظهر القرآن، وهذا يكفي لإعطاء القرآن أصالة رائعة"[95].

---

93 - D. Masson , Le Coran , p. L II
94 - Kasimirski, Coran, Tome premier , Introduction et Notes de G. H. Bousquet, p. 9
95 - Ibid , p. 18

ورد Roger Arnaldez على قول من قال: إن رحلات النبي صلى الله عليه وسلم، التجارية قد ساعدته على تكوين معارف دينية، وقال:

«Chose étonnante! Car les soucis de négoce ne laissent guère le temps de méditer sur des mystères si éloignés des biens visibles et tangibles qui font l'objet des contrats de vente».

" إنه شيء غريب ! لأن هموم التجارة لا تسمح بوقت للتأمل في الغرائب البعيدة جدا عن الخيرات المرئية والمحسوسة التي هي موضوع عقد البيع"(96) .

الـــــرد:

لا خلاف بين المسلمين في أن القرآن كلام الله منزل بالوحي على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى بذاته الجليلة هو المتكلم به والمنشئ له، فميزته على سائر الكتب السماوية أنه إلهي في لفظه ومعناه(97).

وقد أثبت الباحثون المسلمون قديما وحديثا هذه الحقيقة وأقاموا الأدلة على أن مصدر القرآن رباني محض، يقول الأستاذ **رابح لطفي جمعة: " على كل حال فإن جميع الناقدين والمعترضين يسلمون بحقيقتين لاشك فيهما: الأولى أن محمدا لم يرجع إلى نص مكتوب، والثانية أنه قبل القرآن لم يكن هناك شيء اسمه كتاب، فهو أول كتاب عرفه العرب"(98) .**

ويقول الدكتور **محمود حمدي زقزوق: " نود في هذا الصدد أن نذكر السادة المستشرقين بأن مهد اليهودية والمسيحية والإسلام هو الشرق ... فالشرق هو مهبط الرسالات السماوية، وعلى أرضه سار رسل الله يحملون رسالته إلى الناس جميعا، والمقياس لهذه الأديان جميعا لابد أن يكون مقياسا**

---

96 - Roger Arnaldez , Mahomet ou la prédication prophétique , p. 40

97- أنظر: القرآن والمستشرقون للتهامي نقرة، ص 28، مجلة " مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية "، ج. الأول.

98 - القرآن والمستشرقون، ص 54 .

واحدا لأن مصدرها واحد. ولكن هذا المقياس الذي نعنيه لن يكون بالتأكيد ذلك المقياس الذي يريد أن يطبقه المستشرقون على علاقة هذه الأديان بعضها ببعض، وهو مقياس التأثير والتأثر كما لو أن الأمر يدور حول شيء إنساني يخضع لهذا المقياس الإنساني، ولهذا فنحن نرفض – ومعنا كل الحق – منهج المستشرقين في دراسة الإسلام لأنه منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبي، ولأنه منهج يقصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية، ويحاول أنت يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية"[99] .

أما الدكتور **محمد عبد الله دراز**، فقد ألم بجميع الاحتمالات التي يمكن أن تكون مصدرا لهذا القرآن ودرسها دراسة مستفيضة، وخلص بعد ذلك إلى النتيجة الآتية: " **لقد بحثنا – مسترشدين بالوقائع التاريخية – افتراض وجود مصدر بشري لتعاليم القرآن فتتبعنا مؤسس الإسلام في مراحل حياته المزدوجة: الحياة العادية وحياة الرسالة في مسقط رأسه أو في موطنه الأخير، في رحلاته، وفي اتصالاته، وتعرضنا لقدرته على القراءة ولمدى توفر الوثائق تحت يده .**

فجميع سبل البحث التي وقعت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أي احتمال لطريق طبيعي أتاح له فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة. ورغم الجهد الذهني الذي نبذله لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته، فإنه يتعذر علينا اعتبارها تفسيرا كافيا لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة والمفصلة التي يقدمها لنا القرآن الكريم في مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون...إلخ"[100] .

أما نحن، فقبل أن نسوق هذا الموضوع ونبدأ في دراسته، نود أن نشير إلى قضية كثيرا ما لهج بها المستشرقون الفرنسيون ألا وهي قضية الاقتباس من الديانات السابقة، لنقول: " **إن الاقتباس في أبسط مدلوله هو أخذ فكرة أو مبدأ من كتاب أو من شخص كتابة أم شفهية، كلها بلفظها ومعناها أو**

---

99 – الإسلام في الفكر الغربي، ص 73 .

100 – مدخل إلى القرآن الكريم، ص 165 .

بمعناها دون لفظها. أوهو أخذ جزء من الفكرة أو المبدأ باللفظ أو المعنى معا، أوبالمعنى دون اللفظ فقط.

ولكي تتحقق عملية الاقتباس لابد من توفر ثلاثة أركان:

الأول: الكتاب أو الشخص المقتبس منه.

الثاني: الشخص المقتبس (اسم فاعل) .

الثالث: المادة المقتبسة (اسم مفعول) .

والمقتبس في عملية الاقتباس أسير المقتبس منه ـ قطعا ـ ودائر في فلكه إذ لا طريق له إلى معرفة ما اقتبس إلا ما ذكره المقتبس منه، فهو أصل والمقتبس فرع لا محالة. وعلى ذلك يمتنع على المقتبس أن يزيد في المادة المقتبسة أية زيادة غير موجودة في الأصل، طالما الثابت أن المقتبس لا طريق له لمعرفة ما اقتبس إلا ما ورد عند المقتبس منه، فكيف يزيد على الفكرة والحال أنه لا صلة له بمصدرها الأول إلا عن طريق المقتبس منه.

وعلى هذا، فإذا جرى الاقتباس على هذا المنهج، فقد صدقت دعوى من يقول إن فلانا اقتبس من فلان أو من كتاب. أما وأن يتشابه ما كتبه اثنان، أحدهما سابق، والثاني لاحق، واختلف ما كتبه الثاني عن ما كتبه الأول مثل: أن تكون الفكرة عند الثاني أبسط وأحكم ووجدنا فيها ما لم نجده عند الأول، أو أن يصحح الثاني أخطاء وردت عند الأول، أو يعرض الوقائع عرضا يختلف عن سابقه. في هذه الحالة تبطل دعوة القائل إن فلانا اقتبس من فلان أو كتاب كذا"[101] .

وتعالوا بنا نجرب هذه الأسس التي تحكم عملية الاقتباس على ما ادعاه القوم هنا، وننظر أولا: هل فعلا اقتبس نبينا عليه الصلاة والسلام، مادة القرآن من اليهود والنصارى ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال، يجدر بنا أن نسوق وضعية الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام .

---

[101] - أنظر: الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي للدكتور عبد العظيم المطعني، ص 540 – 541.

الحالة الدينية في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام:

اليهودية:

من الحقائق الثابتة التي لم يستطع المستشرقون أن يخفوها حتى عن أنفسهم أن اليهودية دين غير عالمي احتكره اليهود لأنفسهم، معتبرين أنفسهم شعب الله المختار، وعاشوا طيلة حياتهم منطوين على أنفسهم، رافضين الاندماج مع أي عنصر غريب عليهم، وعاملين أيضا على أن يكون دينهم مقفلا .

أضف إلى هذا، " **أن اليهود لم يكن لهم فنون ولا علوم ولا صناعة و لا أي شيء تقوم به حضارة. كما أنهم لم يأتوا قط بأية مساعدة مهما صغرت في شيد المعارف البشرية. فإن عدوت العهد القديم وجدت بني إسرائيل لم يؤلفوا كتابا، والعهد القديم هذا لم يشتمل على شيء يستحق الذكر سوى ما جاء فيه من بعض الشعر الغنائي**"[102]، يقول المفكر الفرنسي **غوستاف لوبون**: " **إن تأثير اليهود في تاريخ الحضارة صفر، وإنه واسع من الناحية الخلقية، وإذا كانت البشرية لا تزال سائرة وراء الأوهام على الخصوص، وجب علينا أن نعترف بأنه خرج من صدر اليهود وهم من أشد ما ساد العالم هؤلاء فقد خضع لسلطانه نحو ألفي سنة وسيظل خاضعا له عدة قرون لا ريب**"[103] .

وثمة حقيقة أخرى، هي أن أكثر اليهود لا يعترفون باليهودية التي كانت منتشرة في الجزيرة قبيل ظهور الإسلام .

وهكذا، " **لم تستطع اليهودية أن تؤثر في حياة العرب الدينية تأثيرا أكبر**"[104] .

---

[102] - اليهود في تاريخ الحضارات الأولى لغوستاف لوبون، ص 15 - 22

[103] - نفس المرجع، ص 24 .

[104] - تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان، ص 28 .

ولم يستطع العرب أن يستفيدوا من مجاورتهم لهم شيئا، ولم يتأثروا بهم وهذا ما حمل الدكتور **علي سامي النشار** على القول: "**إنه لم يكن لليهود قبل الإسلام تاريخ فكري أو أصالة عقلية أوفلسفية**"[105] .

المسيحية:

أما المسيحية، فلم يكن حظها في الجزيرة العربية بأحسن من حظ اليهودية على الرغم من انتشار صوامعها في فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء، بالإضافة إلى أن الصحراء كانت دوما ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية .

من جهة أخرى، كان التماسك الاجتماعي بين المسيحيين متفسخا، على عكس اليهود، كما يقول **هنري ماسيه:**

«La cohésion sociale semble beaucoup plus forte chez les juifs que chez les chrétiens. Ceux-ci se rattachent à diverses églises hétérodoxes, dont les rivalités les affaiblissent».

"يبدو أن التماسك الاجتماعي كان أكثر قوة عند اليهود منه عند المسيحيين، فهؤلاء يرتبطون بكنائس مختلفة النزعات أضعفتها المنافسة"[106] .

وشايعه في هذه الفكرة بلاشير، الذي قال: " **بينما كانت الطوائف اليهودية تعيش منطوية على نفسها كانت المسيحية على النقيض تتظاهر بأشكال مختلفة مثيرة بذلك خيال البدو**"[107] .

وهكذا، فإن انقسام المسيحيين على أنفسهم إلى طوائف عديدة، وانقسام المسيحية نفسها إلى طرائق قدد، قد جعل العرب يعزفون عنها، كما أن عقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح اللتان تشكلان

---

105 - الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة للدكتور علي سامي النشار وعباس أحمد الشربيني، ص 1 .

106 - Op , Cit , p. 21

107 - تاريخ الأدب العربي لبلاشير، ص 67 .

عصب الديانة المسيحية، قد عجز العرب عن فهمهما، زد على ذلك أن المسيحية جل تعاليمها كانت منصبة على التبشير بالآخرة، ومعلوم أن العرب في جاهليتهم كانوا ينكرون وجود حياة أخرى بعد الحياة الدنيا قطعا، يقول دوزي: **"لم تستطع المسيحية بما فيها من تقاليد وعقيدة التثليث وعقيدة صلب المسيح أن تجذب انتباه العرب وأفكارهم"**[108].

بتعميم الملاحظة، لم يكن لأي من هاتين الديانتين أي أثر في حياة العرب الروحية أو المادية، فقد فشلتا في مد جذورهما بين العرب، والدليل على ذلك ما كان عليه العرب من ضلال مبين، حيث وصفهم الله تعالى بالأميين على اعتبار أنهم كانوا جاهلين برسالات السماء السابقة، قال تعالى: **﴿هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**[109].

ولعل الحديث عن ضلال المبين الذي كان عليه العرب يدفعنا إلى السؤال التالي: كيف كانت حالة العرب الدينية قبل ظهور الإسلام ؟

لقد كشف القرآن الكريم في كثير من آياته والعديد من مواضعه عن مظاهر العرب الدينية والخلقية، مستنكرا عليه ما ابتدعوه من بدع كثيرة كالشرك بالله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[110]، وقوله سبحانه: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ

---

[108] - أنظر: حضارة العرب لصلاح الدين خوذا بخش، ص 28 .

[109] - سورة الجمعة، الآية 2 .

[110] - سورة الأعراف، الآيتان 194 - 195

قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[111]، وقوله عز وجل: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[112].

ومن مظاهر التدين عندهم أيضا، الكفر باليوم الآخر، والتكذيب بلقاء الله تعالى وببعث الأرواح وببعض ما ذكرته الرسل من صفات الجنة والنار، قال عز من قائل: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾[113].

ومن مظاهر التدين عندهم أيضا، نسبة النقائص إلى الله سبحانه، كقول طائفة منهم: الملائكة بنات الله، أسوة باليهود الذين قالوا عزير بن الله، والنصارى الذين قالوا المسيح بن الله، يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ ﴾[114]، ويقول سبحانه: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾ ﴾[115]، ويقول عز ذكره: ﴿ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[116].

ومن الشعائر التعبدية عند العرب في الجاهلية، الطواف بالبيت العتيق عراة رجالا ونساء مشبكين بين أصابعهم يصفرون ويصفقون، وهذا ما عابه عليهم القرآن الكريم بقول الله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[117].

---

111 - سورة النمل، من الآية60

112 - سورة النمل، من الآية 64 .

113 - سورة الكهف، الآيات 103 - 105

114 - سورة الأنعام، الآيتان 100 - 101

115 - سورة الإسراء، الآية 111 .

116 - سورة النحل، الآية 57 .

117 - سورة الأنفال، الآية 35 .

ومن شعائرهم أيضا، الذبح عند القبور، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾(118) .

أما الجانب الأخلاقي، فلم يكن هو الآخر أحسن حظا من غيره من الجوانب الأخرى، والشواهد على ذلك من القرآن الكريم تترى عن جهلهم وجبروتهم، فنقرأ في القرآن أن العرب كانوا يدفنون بناتهم أحياء مباشرة بعد ولادتهن مخافة الخزي والعار والذل والمهانة، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾(119) .

ونقرأ عن ارتكابهم للفاحشة، قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ ﴾(120) .

ونقرأ عن التعدي على حقوق المرأة واحتقارهم لها واستصغارهم لشأنها ودورها في الحياة، قوله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾(121)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ ﴾(122)، وقوله سبحانه: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝ ﴾(123) .

---

118 - سورة الأنعام ،الآيتان 162 - 163

119 - سورة النحل، الآيتان 58 - 59

120 - سورة الإسراء، الآية 32 .

121 - سورة النساء، من الآية 19 .

122 - سورة النساء، الآية 22 .

123 - سورة النساء، من الآية 7 .

ولم يقف الأمر عند الحد فحسب، بل بلغت بهم الحماقة العمياء درجة قتل أولادهم مخافة الفقر والعوز، يقول سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾[124] .

وإن شئت أن تتوسع في معرفة جهل العرب وما ابتدعوه، فاقرأ سورة الأنعام، فإن فيها كثيرا من ضلالتهم ومبتدعاتهم وحماقاتهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (**إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام**) .

موقف الإسلام من التوراة والإنجيل:

من الغريب حقا أن يظن المستشرقون الفرنسيون أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، اقتبس من التوراة والإنجيل، وهم يعرفون مسبقا موقف الإسلام من هذين الكتابين. فقد بين الله في كثير من آياته كيف حرف اليهود والنصارى كتابيهما، يقول ابن قيم الجوزية: **" أما التحريف، فقد أخبر سبحانه عنهم في مواضع متعددة، وكذلك لي اللسان بالكتاب ليحسبه السامع منه وما هو منه فهذه خمسة أمور: أحدها: لبس الحق بالباطل وهو خلطه به بحيث لا يتميز الحق من الباطل. الثاني: كتمان الحق، والثالث: إخفاؤه وهو قريب من كتمانه الرابع: تحريف الكلم عن مواضعه، وهو نوعان تحريف لفظه وتحريف معناه الخامس: لي اللسان به ليلبس على السامع اللفظ المنزل بغيره، وهذه الأمور إنما ارتكبوها لأغراض لهم دعتهم إلى ذلك"**[125] .

ومن هذه الآيات القرآنية:

1 – قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[126] .

---

[124] – سورة الإسراء، الآية 31 .

[125] – هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص 49 .

[126] – سورة البقرة، الآية 101 .

2 – قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧ ﴾[127].

3 – قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾[128].

4 – قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٧١ ﴾[129].

5 – قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٠ ﴾[130].

6 – قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ٤٣ ﴾[131].

7 – قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦ ﴾[132].

إن قراءة متأنية للتوراة والأناجيل المتداولة تكشف لنا عن اختلافات عميقة في قضايا كثيرة بينها وبين القرآن الكريم مثل قضية التوحيد وقضية الخلق وقضية القصص وقضايا التشريع .

نجد في التوراة الأنبياء الذين تعارفنا على إجلالهم واحترامهم، نراهم عصبة من الأشرار: سكرين ولصوصا وزناة وكذابين ومخادعين وقتلة ...

127 - سورة البقرة، الآيتان 146 - 147

128 - سورة البقرة ،الآيتان 159 - 160

129 - سورة آل عمران، الآية 71 .

130 - سورة الأنعام، الآية 20 .

131 - سورة الرعد، الآية 43 .

132 - سورة الصف، الآية 6 .

والله نراه يفعل الفعل ثم يندم عليه ويختار الرسول ثم ينكشف أنه قد أخطأ الاختيار ... وكأنه لا يرى من أمر نفسه شيئا ولا يعرف ماذا يخبئه الغيب ؟[133].

فهذا نبي الله **لوط** عليه السلام، تحكي عنه التوراة " أن **ابنتيه سقتاه خمرا حتى غاب واضطجعت كل منهما معه في ليلة لتحمل منه، فحملت كل منهما من أبيها، وهو لا يعلم باضطجاعهما ولا بقيامهما**"[134].

والذي يقرأ القرآن الكريم يرى كيف مجد الله نبيه **لوط** عليه السلام ورفعه إلى القمة في الطهارة والفضل والكمال الإنساني والقدوة الصالحة، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[135].

وانظر أيضا إلى الأوصاف التي يعطيها الله لبعض أنبيائه ورسله في سورة مريم، حيث يقول سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ﴾[136].

ونجد عند النصارى في أناجيلهم، أن آدم عليه السلام، لما عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه عنها، صار هو وجميع أفراد ذريته

---

133 – أنظر: التوراة للدكتور مصطفى محمود، ص 15 .

134 – التوراة، سفر التكوين، الإصحاح 19 .

135 – سورة العنكبوت، الآيات 28 - 30 .

136 – سورة مريم، من الآيات 51 - 58

مخطئون مستحقون للعقاب في الآخرة، ومن ثم إن جميع ذريته جاءوا مخطئين مذنبين، فكانوا مستحقين للعقاب أيضا بذنوبهم، ولما كان الله تعالى متصفا بالعدل والرحمة جميعا طرأ عليه – سبحانه وتعالى عن ذلك – مشكل منذ عصى آدم عليه السلام، وهو أنه إذا عاقبه هو وذريته كان ذلك منافيا لرحمته فلا يكون رحيما !! فكأنه منذ عصاه آدم عليه السلام، وهو يفكر في وسيلة يجمع بها بين العدل والرحمة ! فلم يهتد إلى ذلك إلا في عام الحمل بعيسى عليه السلام، وميلاده وحين اشتد عوده، وأصبح إنسانا كاملا، يسخر أعداءه لقتله أفظع قتلة، وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب، فيحتمل اللعن والصلب من أجل فداء البشر وخلاصهم من خطاياهم، كما يقول **يوحنا** في رسالته: " **هو كفارة للخطايا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم أيضا**"[137].

في حين إذا رجعنا إلى القرآن الكريم وجدناه يستعرض لنا هذه القضية بشكل يخالف تماما ما جاء في الأناجيل فيذكر أن آدم عليه السلام، وزوجته حواء أكلا من الشجرة بإغراء من الشيطان لهما، بعد أن تظاهر بنصحهما، يقول سبحانه: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[138].

وندم آدم عليه السلام، وزوجته على ما جنياه من إثم عظيم في معصية الله، وتوجها إلى الله بالدعاء ليتوب عليهما ويغفر لهما زلتهما، فألهمهما الله كلمات يتضرعان بها إليه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

---

[137] - رسالة يوحنا، الإصحاح، ج 2 ص 2

[138] - سورة البقرة، الآيتان 35 - 36

لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[139]، فتاب الله عليهما، حين قال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾[140].

ثم اصطفى الله آدم بعد ذلك من بين من اصطفاهم من الأنبياء والمرسلين على العالمين، وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[141].

أما عن قولهم إن جميع أفراد ذرية آدم خاطئون مستحقون للعقاب في الآخرة بسبب معصية أبيهم آدم، فقد أوضح الله في كتابه العزيز أن كل نفس تحاسب على ما جنته يدها ولا تتحمل ذنب غيرها، يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[142]، ويقول سبحانه في سورة أخرى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾[143].

قضية الخلق :

وإذا انتقلنا إلى قضية الخلق وجدنا القرآن أيضا يخالف ما جاء في التوراة والأناجيل مخالفة تامة وإن اتفق معهم في بعض الأمور، إلا أن ما خالفهم فيه أعظم، يقول موريس بوكاي: **"يدعي كثير من المؤلفين الأوروبيين أن رواية القرآن عن الخلق قريبة إلى حد كبير من رواية التوراة، وينشرحون لتقديم الروايتين بالتوازي إني أعتقد أن هذا مفهوم خاطئ فهناك اختلافات جلية، ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقا من وجهة النظر العلمية تكتشف في القرآن دعاوى لا يجدي البحث عن معادل لها في التوراة.**

---

[139] - سورة الأعراف، الآية 23 .

[140] - سورة البقرة، الآية 37 .

[141] - سورة آل عمران، الآية 33 .

[142] - سورة النجم، الآيات 36 - 40

[143] - سورة فاطر، من الآية 18 .

كما أن التوراة من ناحية أخرى، تحتوي على معالجات تفصيلية لا معادل لها في القرآن"(144) .

قضية القصص:

في قصية القصص وجدنا القرآن ينفرد بذكر أخبار جديدة لم يرد لها ذكر في التوراة والأناجيل ويميط اللثام عن حقائق طمسها اليهود والنصارى بفعل التحريف والتزوير والكتمان، فهذه قصة الطوفان حين " **تتحدث عنها التوراة، فهي تتحدث عن طوفان عالمي لعقاب كل البشرية الكافرة، بينما يشير القرآن على العكس إلى عقوبات عديدة نزلت على جماعات محددة جدا ... فالقرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقابا نزل بشكل خاص على شعب نوح، وهذا يشكل الفرق الأول، أما الفرق الثاني فهو أن القرآن على عكس التوراة لا يحدد زمن الطوفان، ولا يعطي أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها ... والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح، فقد أعطى الله أمرا لنوح بأن يضع في السفينة كل ما سيعيش ما بعد الطوفان، بالإضافة إلى الأسرة التي قطع منها الإبن الملعون، ولا تشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة وإنما تقدم ثلاثة روايات عن محتوى السفينة"**(145) .

ويكون مناسبا جدا أن نسوق هنا مقارنة أخرى بين القرآن والتوراة عن قصة يوسف، ونرى أن نستند لماما إلى ما ذكره **مالك بن نبي** في كتابه " **الظاهرة القرآنية** "، حيث استعرض جميع النصوص التي جاءت في التوراة وقابل بينها وبين ما ورد في القرآن حول قصة يوسف، موضحا ما انفرد به كل منهما من حقائق وأحداث، واستخلص بعد ذلك بعض النتائج لهذه المقارنة، وسنعمل هنا على تلخيص بعض ما ذكره مالك بن نبي ...

---

144 - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص 157 .

145 - نفس المرجع، ص 246 .

وفي هاتين الروايتين اللتين فرغنا من عرضهما يمكننا أن نقارن بعض العناصر المتشابهة بطريقة تبرز لنا الطابع الخاص بالقرآن، وإنه يلزمنا أن نبحث قضية هذا التشابه بين الكتابين، وهو أمر جد مفيد لموضوعنا .

إن مدى التاريخ واحد تماما في تلك الروايتين، ومع ذلك فإن مجرد التأمل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصة تميز كلتهما على حدة، فرواية القرآن تنغمر باستمرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني. فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن فهو نبي أكثر منه أبا، وتبرز هذه الصفة على الأخص في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسسوا من يوسف وأخيه. وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم، وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحق، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها وتقر بخطيئتها. وفي السجن يتحدث يوسف بلغة روحية مخلقة، سواء مع صاحبيه أم مع السجان فهو يتحدث كنبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها.

وفي مقابل ذلك، نجد الرواية الكتابية تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية – الوثنية بالطبع – بأوصاف عبرانية، فالسجان يتحدث كموحد، وفي القسم الخاص بتعبير الرؤية في القصة يرتسم رمز الجماعة في صورة أقل إجادة فعبارة التوراة هي (**فابتلعت السنابل الجياد**) أما في الرواية القرآنية فإنها تعقبها فحسب .

والرواية الكتابية تكشف أيضا عن أخطاء تاريخية تثبت صفة (**الوضع التاريخي**) للفقرة التي نناقشها، فمثلا فقرة (**لأن المصريين لا يجوز لهم أن يأكلوا مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين**) يمكننا التأكيد بأنها من وضع النساخ الميالين إلى أن يذكروا فترة المحن التي أصابت بني إسرائيل في مصر، وهي بعد زمن يوسف .

وفي رواية التوراة استخدم إخوة يوسف في سفرهم " حميرا " بدلا من " العير " في رواية القرآن، على حين إن استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلا عن ذلك فإن ذرية إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل رعاة الأغنام والمواشي .

وأخيرا، فإن " حل " عقدة القصة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية حيث يشتمل في الفصول الأخيرة – التي أثرنا حذفها كي نتجنب الإطالة المملة – على تفاصيل عادية عن استقرار العبرانيين في مصر.

أما في القرآن فإن هذا الحل يدور حول الطابع المميز للشخصية المحورية: يوسف الذي يختم هذا الختام المنتصر: **﴿يا أبت هذا تاويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾** (146).

إن هذه الموازنة تؤكد الفرق الواضح بين التوراة والقرآن، فقد تفرد القرآن بذكر حقائق لا وجود لها في التوراة، بل وخالف التوراة في عدة أخبار، مما يقيم الدليل مرة أخرى على أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يقتبس من اليهود أو النصارى، ويقيم الدليل أيضا على أمانة النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يبلغه عن ربه، ولقد تأكدت لنا هذه الحقيقة بجلاء كبير، حين قال الله عز وجل في نهاية قصة يوسف: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾(147) .

---

146 – سورة يوسف، من الآية 100 .

147 – سورة يوسف، الآية 102 .

ثم إننا إذا تساءلنا عن الهدف من ورود القصص عموما في القرآن، وجدنا القرآن الكريم لا يقصد إلى سرد التاريخ كما هو الحال بالنسبة للتوراة والإنجيل، وإنما إلى الأمور الآتية:

1- إثبات الوحي والرسالة .

2- بيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح عليه السلام، إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم، وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة، والله واحد رب الجميع ...

3- بيان أن الدين كله موحد الأساس، وتبعا لهذا كانت ترد قصص كثيرة عن الأنبياء مجتمعة كذلك .

4- بيان أن وسائل الأنبياء في الدعوة موحدة وأن استقبال قومهم لهم متشابه .

5- بيان الأصل المشترك بين دين محمد صلى الله عليه وسلم، ودين إبراهيم عليه السلام، بصفة خاصة ثم أديان بني إسرائيل بصفة عامة، وإبراز أن هذا الاتصال أشد من الاتصال العام بين جميع الأديان .

6- بيان أن الله سبحانه ينصر أنبياءه في النهاية ويهلك المكذبين، وذلك تثبيتا لمحمد صلى الله عليه وسلم، وتأثيرا في نفوس من يدعوهم إلى الإيمان .

7- تصديق التبشير والتحذير، وعرض نموذج واقع من هذا التصديق .

8- بيان نعمة الله على أنبيائه وأصفيائه .

9- تنبيه أبناء آدم إلى غواية الشيطان، وإبراز العداوة الخالدة بينه وبينهم منذ أبيهم آدم، وإبراز هذه العداوة عن طريق القصة أروع وأقوى وأدعى إلى الحذر الشديد من كل هاجسة في النفس تدعو إلى الشر .

10- بيان قدرة الله على الخوارق .

11- بيان عاقبة الطيبة والصلاح، وعاقبة الشر والإفساد .

12 - بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة والحكمة الكونية البعيدة الآجلة(148).

وأنت إذا قرأت التوراة والإنجيل، لا ترى من هذه الأغراض شيئا، بل ترى على العكس من ذلك، أن السرد القصصي هو الذي يغلف الإطار العام للقصص، ويخالك ذلك تحس أنك لست أمام كتاب ديني يبرز فيه الأثر الإلهي من وعظ وتذكير وتبشير وإنذار، لا أبدا، بل يجعلك تحس وكأنك أمام قصة تاريخية مزجت فيها الحقيقة بالأساطير والخيالات التي نسجتها عقول الحاخامات والرهبان .

قضية التشريع :

وإذا ألفينا قضية القصص القرآني وجدنا الفرق والاختلاف يبلغ مداه في قضية التشريع، فقد جاء القرآن بتشريعات غاية في الضبط والحكمة، راعى الله فيها مصالح الفرد والجماعة على حد سواء، حتى لا يكون هناك ظالم ومظلوم، وكافح كل ما يمكن أن يكون مصدرا لفساد المجتمع، وحدد مسئولية كل واحد في المجتمع، وبين ما للفرد من حقوق وما عليه من واجبات، ونظم العلاقات بين الأفراد، يقول **محمد عبد الله دراز: " إذا كان هدفه – القرآن – الأول هو أن يحافظ على التراث الأخلاقي الذي نزلت به الكتب المقدسة السابقة ويؤيده، فإن له رسالة أخرى لا تقل عنه أهمية وقدسية، ألا وهي إتمام وإنهاء الصرح الإلهي الذي بناه الرسل والأنبياء على مر العصور ... أو كما يقول القرآن ذاته إن هدفه أن يوضح للناس أقوم الطرق في السلوك والاعتقاد"**(149) .

---

148 - أنظر: التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، ص 145 - 155

149 - المرجع السابق، ص 106 .

ولاستجلاء بعض مظاهر الاختلاف بين القرآن والكتب السماوية الأخرى في مجال التشريع، نقتصر هنا على مشكلة الربا لننظر كيف عالجت التوراة والإنجيل والقرآن هذه الآفة.

في التوراة نجد نصوصا كثيرة تشير إلى تحريم الربا وإن كان هذا التحريم لا يخلو من نظرة عنصرية تخدم في جوهرها العام فكرة " **شعب الله المختار** " فقد جاء في العهد القديم: " **إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي**"[150].

وإذا كانت اليهودية قد حرمت التعامل بالربا على الشعب اليهودي لكنها أباحت التعامل به مع الأجانب، وفي ذلك نص صريح، حيث جاء في سفر التثنية: " **لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا. للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها**"[151].

ولقد تعرض القرآن الكريم لهذه المسألة ووقف منها موقفا معارضا بأن قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾[152].

أما في النصرانية فقد تنبه رجال الكنسية إلى فظاعة الجرائم المرتكبة ضد العنصر البشري بفعل تفشي ظاهرة الربا، فأعلنوا الحرب عليها، ويتمثل ذلك في العديد من النصوص التي لاقيتها في هذا الصدد، أكتفي بذكر واحد منها، فقد جاء في العهد الجديد: " **وإن أقرضتم الذين ترجون أن**

---

[150] - التوراة، سفر الخروج، الإصحاح الثاني والعشرون، 26

[151] - التوراة، التثنية، الإصحاح الثالث والعشرون، 19 - 20

[152] - سورة النساء، من الآيتين 160 - 161

تستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما"(153).

لكن الشيء الذي تؤخذ عليه هذه النصوص أنها لم تكن إلزامية لأنها لا تتجاوز عالم المثل وإطار النصيحة، الأمر الذي خفف من فعاليتها، والشاهد على قولي هذا أيضا، هو الكثير من التعديلات والتسامح الذي طرأ على العديد من المواقف بالضبط خلال القرن السادس عشر الميلادي، وساعد على ذلك التجدد الذي حدث في الفكر الكنسي بعد ثورة **مارتن لوثر وجون كالفن**، بل إن الكنيسة ذاتها دخلت في هذه الزوبعة بأن أباحت أخذ الفائدة واعتبرتها غير محرمة في الأخلاق إلا إذا تجاوزت الحد الطبيعي لها .

أما الإسلام فلم يكن بدعا من الأديان السماوية في نظرته للربا، حيث حاول معالجة هذه المعضلة واستئصال آفاتها إلا أن تصوره لهذه المشكلة وإدراكه لحجم خطورتها وإلمامه الشامل بكل ما يتمخض عنها من تحولات تمس جميع المرافق والمجالات، لذلك شدد في أمرها وأكد حرمتها، بل إنها الحرب من الله ورسوله على المتعاملين بالربا، وهذه هي المفارقة الكائنة بين منهج الإسلام ومناهج الكتب السابقة في المعالجة.

فقد سلك القرآن في معالجة هذه المعضلة، منهج التدرج الزمني تهيئة للفرد نفسيا لتقبل حكم الله النهائي، وهو أيضا من باب التيسير على العباد وعدم إحراجهم، بعدما تأصلت جذور هذه الآفة في نفوس الناس، واستأثرت بالأذهان وتحكمت في الضمائر، ويشهد لذلك قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾(154).

وقد جاء موقف القرآن واضحا وصريحا، حين حرم التعامل بالربا تحريما قطعيا، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ

---

153 - إنجيل لوقا، الإصحاح السادس، 35 -36

154 - سورة البقرة، من الآية 275 .

ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ
وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن
كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ
رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾[155] .

فهذه هي نظرة القرآن لمشكلة الربا وهذه هي طريقته ومنهجه في معالجتها، ولقد كانت تلك النظرة شاملة تخترق حجب الظاهر وتنفذ إلى عمق الأشياء حتى إذا ما كشفت عن أصولها بادرت إلى استئصال أضرارها وقدمت في الوقت ذاته البديل والعلاج، لئلا يبقى الأمر مجرد تحريم فقط، فالله لا يحرم شيئا إلا وفي الحلال ما يغني عنه، فهو ينهى عن الربا ويأمر بالإنفاق، ينهى عن الأول لما فيه من مضار، ويأمر بالثاني لما فيه من منافع، وتلك ميزة معترف بها للقرآن الكريم وحده، دون غيره من الكتب سماوية كانت أو غير سماوية .

قضية العقيدة :

أما في مجال العقدي، فتكشف لنا المقارنة أن مواجهة اليهودية والنصرانية لا تحتاج إلى جهد كبير في نقض أصولهما العقدية، فأنت إذا نظرت إلى عقيدة اليهود مثلا وجدتها عقيدة عنصرية خاصة بشعب الله المختار، يقول سهيل ديب: **"اليهودية معتقد يختلف عن معظم المعتقدات والأديان هي دين مغلق، فلا يحق لأي إنسان أن يعتنق اليهودية بمعنى أوضح: أن اليهود لا يقبلون في صفوفهم إنسانا جديدا يعتنق دينهم، خلافا لجميع المبادئ والأديان التي تعمل لزيادة المؤمنين بها. ولكي يكون الإنسان**

---

[155] - سورة البقرة، الآيات 275 - 279

يهوديا يجب أن يكون من أم يهودية وما زالت محاكم إسرائيل ترفض الاعتراف بيهودية مواطنيها من أب يهودي وأم غير يهودية"[156].

أما عقيدة النصارى فلا تقوم على العقل، فالعقل عندهم لا وجود له، عقيدة تقوم على الشعور فقط، لأن العقل لا يمكن بتاتا أن يقبل أن الواحد ثلاثة وأن الثلاثة واحد.

فلما جاء الإسلام صحح هذه العقائد الفاسدة وجعل مبدأ العقيدة الشهادة بأن الله واحد لا شريك له، وجعلها دعوة عالمية لا ترتبط بشعب دون آخر .

على أي حال، لقد كان هدفنا من هذه المقارنة الطفيفة التي لم نقصد إليها في بحثنا هذا، بين القرآن والتوراة والإنجيل، إلا أن نبين خطل الرأي القائل إن النبي صلى الله عليه وسلم، اقتبس مادة القرآن من التوراة والإنجيل، وأن القرآن لم يأت بشيء جديد، وأن كل ما فيه مأخوذ من اليهودية والنصرانية، وأن القصص التي جاء بها القرآن تشبه إلى حد بعيد ما هو موجود في التوراة والإنجيل. ونحن إذ نرفض بالدليل والبرهان أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم، مقتبسا لشيء من التوراة والإنجيل، فإننا لا ننكر أن يكون هناك تشابه أو توافق في بعض الأحيان بين بعض الآيات القرآنية والروايات التوراتية والإنجيلية، فالنبي صلى الله عليه وسلم، لم يزعم أنه جاء بدين جديد، ولكنه أعلن بوضوح تام أن الله سبحانه أرسله ليعيد ملة إبراهيم عليه السلام، التي حرفت من بعده، إلى أصلها وليؤكد إلى ما كان الله قد أوحي به إلى أنبيائه السابقين، يقول تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[157].

وإلى هنا يتاح لنا الكلام عن العلاقة بين القرآن والتوراة والإنجيل.

156 - التوراة تاريخها وغايتها، ص 5

157 - سورة الشورى، الآية 13 .

علاقة القرآن بالتوراة والإنجيل:

إن علاقة القرآن بالكتب السماوية الأخرى، في مبدأ نزوله وفي مرحلته الأولى كانت علاقة تصديق وتأييد لما سبقه، قال ابن عباس رضي الله عنهما، في معرض تفسيره لكلمة المهيمن: " **القرآن أمين على كل كتاب قبله**"[158]، وكذلك الحال بالنسبة للمسيحية التي جاءت مصدقة ومؤيدة للتوراة، قال عز وجل: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾[159].

كما أن الله قد أخذ على جميع النبيين ميثاقا إذا جاءهم رسول مصدق لما معه أن يؤمنوا به وينصروه، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾[160].

أما المرحلة الثانية، فكانت مرحلة تصحيح لما طرأ على التوراة والإنجيل من تحريف وتغيير وإضافات وحشو، كما كانت مرحلة تعديل في بعض أحكام التوراة والإنجيل إذ أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنه جاء ليحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ

---

158 - فضائل القرآن لابن كثير، ص 3 .

159 - سورة المائدة، الآيات 46 - 48

160 - سورة آل عمران، الآية 81 .

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(161).

يقول محمد عبد الله دراز: " هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء، وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه﴿ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾(162)"(163).

وطبيعي أن يحدث ذلك، مادام القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية نزولا، فالضرورة تقتضي أن يكون معدلا ومجددا، وأن يكون عاما وشاملا ومصححا ومتمما لكل ما سبق.

رحلات الرسول التجارية ولقاؤه بالراهب بحيرى :

حاول بعض المستشرقين الفرنسيين، أن يجدوا في رحلات الرسول صلى الله عليه وسلم، التجارية إلى الشام متكئا لفكرتهم الخبيثة القائلة إن محمدا صلى الله عليه وسلم، استقى معلوماته الدينية من اليهود والنصارى، وأخذوا في تأويل النصوص الدالة على ذلك وقالوا إن محمدا صلى الله عليه وسلم، لقي في رحلته إلى الشام راهبا نسطوريا في مدينة بصرى يدعى **بحيرى** واخذ عنه أصول العقيدة القرآنية .

---

161 - سورة الأعراف، الآية 157 .

162 - سورة الصافات، من الآية 37 .

163 - الدين لمحمد عبد الله دراز، ص 188 .

ولقد كان هذا الراهب ناسكا مؤمنا على دين المسيح **عيسى بن مريم** عليه السلام، يقول ابن كثير: " **والذي يظهر من سياق القصة أنه كان راهبا نصرانيا والله أعلم**"[164] .

و" **اسم بحيرى في النصرانية سرجس، وكان من عبد القيس، وقيل إنه كان نسطوريا من أتباع أريوس في التوحيد، وكان ينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث**"[165] .

والذي صح من خبر لقاء النبي صلى الله عليه وسلم، بهذا الراهب كما جاء في **سيرة ابن هشام**، أن النبي صلى الله عليه وسلم، لما خرج إلى الشام كان عمره تسع سنين وقيل اثنتي عشرة سنة، وكان في صحبة عمه أبي طالب، ولم يكن عمه يتركه طرفة عين حرصا عليه وخوفا على حياته، فلما نزل الركب بصرى قريبا من صومعة الراهب بحيرى الذي رأى رسول الله وهو في صومعته حين أقبل الركب، غمامة تظله من بين القوم، وصنع للقوم طعاما، وأرسل في طلبهم جميعا، وكان أن تخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نظر بحيرى في القوم ولم ير الصفة التي يعرفه بها ويجدها عنده، قال: " **يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، فلما حضر الرسول، جعل يلحظه لحظا شديدا حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا قام إليه بحيرى، فقال: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك، قال رسول الله: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما، فقال بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سلني عما بدالك** "، فجعل يسأله عن أشياء من حاله. وفي الأخير قال بحيرى لعمه أبي طالب: "**ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفته ليبغنه شرا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم**،

---

164 – البداية والنهاية، ج 2 ص 286

165 – أنظر: مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي، م. الأول، ص 64 .

فأسرع به إلى بلاده، فخرج به"، فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام[166].

ويكمن أن نستخلص من هذه الرواية الحقائق التالية:

أولا: إن الرسول صلى الله عليه وسلم، عند لقائه **ببحيرى** لم يكن في تؤهله تماما لتلقي أي شيء من بحيرى، يقول **عبدالودود شلبي: " هل يتصور بشر.. أن طفلا لا يزيد سنه عن تسع سنوات أو اثنتي عشرة سنة، يلتقي برجل فيتعلم منه لغته .. ثم يلقنه أصول عقيدته وديانته، كل ذلك في بضع ساعات .. ؟ هل يتصور ذلك عاقل من البشر ؟"**[167] .

ثانيا: إن لقائه ببحيرى كان لقاءا عابرا، لا يعدو فترة تناول طعام، ثم إن موضوع ذلك اللقاء كما أوضحته الرواية يدور فحواه عن علامات النبوة، لما كان عند بحيرى من ذكر ونعت عن النبي المنتظر، فأخبر أهله بذلك وأمرهم بحفظه من اليهود .

ثالثا: إن الرسول صلى الله عليه وسلم، في لقائه ببحيرى، كان مع رفقة ولم يكن لوحده .

رابعا: إن الذي دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يخالف إلى حد بعيد ما كان يعتقد به بحيرى. فهل يعقل أن يأخذ محمد من بحيرى الديانة المسيحية ثم يحاربها في جوهر عقيدتها التي هي عقيدة التثليث، ويعلن منذ البداية أنه جاء بعقيدة التوحيد، يقول **عبد الجليل شلبي: " ما حظ بحيرى من هذا العمل ؟ إن محمدا لم يحارب الوثنية فقط، لقد حارب المسيحية وأنكر من أول ما جهر برسالته أن يكون لله ولد"**[168] .

---

166 – سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام، ج 1 ص 194 – 196

167 – التزوير المقدس، ص 105 .

168 – صور استشراقية، ص 63 .

خامسا: "إن قومه المعادين له، الذين هم من أحرص الناس على القدح في نبوته مع كمال علمهم، لو علموا أنه تعلم ذلك من بشر لطعنوا عليه بذلك وأظهروه، فإنهم – مع علمهم – بحاله يمتنع أن لا يعلم ذلك لو كان، ومع حرصهم على القدح فيه، يمتنع أن لا يقدحوا فيه، ويمتنع أن لا يظهر ذلك"[169].

سادسا: " إنه قد تواتر عن قومه أنهم كانوا يقولون: إنه لم يكن يجتمع به من يعلمه ذلك"[170].

سابعا: " إنه لو كانت هذه القصص المتنوعة قد تعلمها من أهل الكتاب مع عداوته لهم لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه، ولو أظهروا ذلك، لنقل ذلك وعرف فإن هذا من الحوادث التي تتوفر الهمم والدواعي على نقلها"[171].

ثامنا: "إن مثل هذا لو كان لابد أن يعرفه، ولو خواص الناس، وكان في أصحابه الذين آمنوا به من يعرف ذلك، وكان ذلك يشيع، ولو تواصوا بكتمانه كما شاع ما كتم من أمر الدول الباطنية، ولا كان خواصه في الباطن يعلمون كذبه وكان علمهم بذلك يناقض تصديقه في الباطن كما عرف في نظائر ذلك"[172].

تاسعا: إن الله أوضح في كتابه الحكيم أن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يتلق هذا الدين عن أحد من الرهبان، ولم يستفت فيه أحدا، وأن كل ما دعا به بين الناس إنما هو وحي ألهم الرسول صلى الله عليه وسلم، معناه كما ألهم لفظه، قال تعالى:﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾[173].

---

169 – أنظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية، ج 3 ص 25 .

170 – نفس المرجع، ونفس المكان .

171 – نفس المرجع، ونفس المكان .

172 – نفس المرجع، ونفس المكان .

173 – سورة النجم، الآيات 3 – 5

قال ابن قيم الجوزية في معرض تعليقه على هذه الآية: "**ينزه – الله – نطق رسوله أن يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، ولم يقل وما ينطق بالهوى لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به فيتضمن نفي الأمرين، نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه. فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال**"[174].

قصة قس بن ساعدة الأيادي مع الرسول صلى الله عليه وسلم:

لهج بعض المستشرقين الفرنسيين أن الرسول صلى الله عليه وسلم، قد أفاد من الشعراء والحكماء النصارى، وتحدثوا بالخصوص عن **قس بن ساعدة**، وقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يسمع إلى شعره وخطبه في سوق **عكاظ**، وأخذ عنه بعض القضايا الدينية سيما ما تعلق منها بالبعث والنشور والحساب .

"**قس بن ساعدة الأيادي هذا، كان أسقفا لنجران، وكان حكيم العرب، وكان مقرا بالبعث، وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال، يقول الأعشى:**

وأحكم من قس وأجرا من الذي بذي ... الفيل من خفان أصبح خادرا"[175].

وكان النبي قد سمعه يخطب في عكاظ على جمل، ولم يع من كلامه إلا ألفاظا مبهمة.

ونرى من ضرورة البحث أن نذكر في هذا الصدد ما رواه ابن كثير، عن **عبادة بن الصامت**، قال: "**لما قدم وفد أياد على النبي صلى الله عليه وسلم، قال: يا معشر وفد أياد ما فعل قس بن ساعدة الأيادي قالوا: هلك يا رسول الله. قال: لقد شهدته يوما بسوق عكاظ على جمل يتكلم بكلام معجب مونق لا أجدني أحفظه. فقام إليه أعرابي من أقاصي القوم، فقال: أنا أحفظه**

---

174 – التبيان في أقسام القرآن، ص 153 .

175 – المسعودي، المرجع السابق، م. الأول، ص 58 .

يا رسول الله. قال: فسر النبي صلى الله عليه وسلم، بذلك. قال: فكان بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: يا معشر الناس اجتمعوا فكل من فات فات، وكل شيء آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، ونجوم تزهر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أقسم قس بالله قسما لا ريب فيه إن دينا هو أرضى من دينكم هذا، ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين	**ن من القرون لنا بصائر**
لما رأيت مواردا	**للموت ليس لها مصادر**
ورأيت قومي نحوها	**يمضي الأصاغر والأكابر**
لا من مضى يأتي إلي	**ك ولا من الباقين غابر**
أيقنت أني لا محا	**لة حيث صار القوم صائر"[176]**

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(رحم الله قسا، إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده)[177] .**

ويدل هذا الخبر دلالة قاطعة على أن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يأخذ عن قس شيئا مما توهمه المستشرقون، والشاهد على ذلك أنه لم يحفظ عنه شيئا، بل هو موقف إعجاب كسائر العرب الذين أعجبوا بشعره وخطبه وحكمه، حتى أصبحوا يتمثلون بشعره بل ورفعوا قسا إلى مصاف الحكماء، يقول الجاحظ: **" ولأياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته، وهو الذي رواه لقريش والعرب، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسناد تعجز عنه الأماني، وتنقطع**

---

176 – البداية والنهاية، ج 2 ص 230 .

177 – المسعودي، المرجع السابق، م. الأول، ص 59 .

دونه الآمال وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث، ولذا كان خطيب العرب قاطبة"[178].

ونفى **محمد عبد الله دراز** أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم، قد حصل على أفكاره الدينية من بعض الشعراء العرب أو النصارى ومن شابههم، وقال: **" نلاحظ أولا أن القرآن يوضح لنا أن الرسول لم يكن يألف الشعر بوجه عام، بحيث اعتبره القرآن بالنسبة للرسول لهوا، وقال: ﴿وما علمناه الشهر وما ينبغي له﴾ (يس 69). لا يليق بشخصه، ومن هنا نجد اتجاهين في الأدب الجاهلي، الأول: وهو أن بعض الشعراء، مثل الأعشى كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية. وهو ما لا نجد له أثرا في القرآن بل لقد كان اهتمام هؤلاء الشعراء ينصب أكثر على الخمر الذي سيوجه إليه القرآن ضربته القاضية بدلا من تجنيده. فالقرآن لا ينتمي إلى هذه الفئة. أما النوع الثاني من الشعر فقد كان يكاد يتخصص تماما في الأفكار الدينية"**[179].

وليس هذا هو نهاية الكلام في هذا الموضوع، فلدينا مزيد وبراهن أخرى على مصدر القرآن الإلهي، منها:

1 - معلوم لدى أصحاب السير وأهل المعرفة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان أميا من قوم أميين، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **(إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا ثلاثا حتى ذكر تسعا وعشرين)**[180].

وقد وصف الله نبيه صلى الله عليه وسلم، بأنه أمي أي أنه لا يعرف القراءة والكتابة، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ

---

178 – البيان والتبيين، ج 1 ص 52 .

179 – مدخل إلى القرآن الكريم، ص 142 .

180 – سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، كتاب الصيام، حيث إنا أمة أمية، ج 4 ص 139–140.

بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾[181]، يقول ابن تيمية: "**بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة وهو معلوم لجميع قومه الذين شهدوه، متواتر عند من غاب وبلغته أخباره من جميع الناس: أنه كان أميا لا يقرأ كتابا، ولا يخط كتابا من الكتب لا المنزلة ولا غيرها، لا يقرأ شيئا مكتوبا منزلا ولا غيره، ولا يكتب بيمينه كتابا ولا ينسخ شيئا من كتب ولا ينسخ شيئا من كتب الناس لا المنزلة ولا غيرها**"[182].

2 – نجد القرآن الكريم يخالف التوراة والإنجيل في بعض الحقائق التاريخية، فمثلا في قصة موسى عليه السلام يشير القرآن الكريم إلى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾[183]، في حين يؤكد سفر الخروج من التوراة أن التي كفلته هي ابنة فرعون، جاء فيه: "**فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر. فرأت السفط بين الحلفاء فأرسلت أمتها وأخذته. ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي. فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. فقالت أخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبي. فذهبت الفتاة ودعت أم الولد. فقالت لها ابنة فرعون اذهبي بهذا الولد وأرضعيه لي وأنا أعطي أجرتك. فأخذت المرأة الولد وأرضعته. ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابنا. ودعت اسمه موسى وقالت إني انتشلته من الماء**"[184]. كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق، ولا يتجاهل حتى مسألة نجاة بدنه من الغرق مع موته، قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا

---

181 – سورة العنكبوت، الآية 48 .

182 – الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج 4 ص 31 .

183 – سورة القصص، الآية 9 .

184 – التوراة، سفر الخروج، الإصحاح الثاني، الآيات 5 – 8

مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾[185]، في حين نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم، جاء في سفر الخروج: " **فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى**"[186].

3 - لقد تناول القرآن الكريم تواريخ الأمم السابقة، كانت مجهولة لإيغالها في القدم، وما كان محمد صلى الله عليه وسلم، مؤرخا ولا ملما بدراسة اللغات القديمة كالهيروغليفية والحميرية والعبرية والقبطية وغيرها، ولكان للعرب بها معرفة أو خبر، ولكنها كما قال القرآن: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾[187].

يقول أبو حامد الغزالي: " **هذه كلها أشياء إلهية لا تعرف ألبتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه**"[188].

4 – الإنباء بالمستقبل القريب أو البعيد، فالإنباء بالماضي قد تتناقله ألسنة الناس جيلا بعد جيل، أما الإنباء بالمستقبل فهو فوق طاقة البشر وفوق

---

[185] – سورة يونس، الآية 92 .

[186] – التوراة، سفر الخروج، الإصحاح الرابع عشر، الآيات 26 – 31

[187] – سورة هود، الآية 49 .

[188] – إحياء علوم الدين، ج 2 ص 353 .

التخمين خصوصا إذا أتى هذا الإنباء طبق الحقيقة التي أنبأ بها قبل وقوعها، ولقد حفل القرآن بالعديد من هذه الأنباء كغزوة بدر التي أخبر الله فيها نبيه بانهزام جمع قريش، وتوليهم الأدبار، مع أن المسلمين كانوا أقل عددا وعدة، على عكس خصومهم القريشيين، وفعلا حدث ما أخبر به الله وتم النصر للمسلمين، قال تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ ﴾ [189].

عن عكرمة، قال: **"لما نزلت هذه الآية، قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يثب في الدرع وهو يقول: ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ فعرفت تأويلها يومئذ"**[190].

5 – في القرآن آيات فيها عتاب شديد لمحمد صلى الله عليه وسلم، فلو كان القرآن من تأليفه ما ورد فيه هذا العتاب، فقد ورد ذلك في مواضع كثيرة، مثل ما حدث له مع ابن أم مكتوم الأعمى، فقد ذكر غير واحد من المفسرين، **"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يوما يخاطب ويناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبيا وأمية ابني خلف ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله علمني مما علمك الله وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشتغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله لقطعه كلامه، وقال في نفسه، يقول هؤلاء الصناديد: إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات:** ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝ ﴾[191]. **فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحبا بمن**

---

189 – سورة القمر، الآية 45 .

190 – أنظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج 4 ص 267 .

191 – سورة عبس، الآيات 1 – 10

عاتبني فيه ربي"(192)، ومثل ما حدث له في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك، قال عز وجل: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ ﴾(193)، وكذا التوعد الشديد والإنذار بأخزى العقوبة إن لم يبلغ ما أنزل إليه من ربه، يقول سبحانه: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ ﴾(194)، وقوله عز من قائل: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ۝ ﴾(195).

6 – إنه كثيرا ما جاء في القرآن آيات تخالف وتناقض ميول الرسول صلى الله عليه وسلم، ورغباته، فقد ثبت في الصحيحين أن **أبا طالب** عم رسول الله قد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حبا شديدا طبيعيا لا شرعيا، فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى الإيمان والدخول في الإسلام، فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر، ولله الحكمة التامة، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾(196).

كما كان شوق الرسول صلى الله عليه وسلم، كبيرا إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، لكن الله سبحانه لم يسرع إلى تلبية رغبته إلا بعد مضي ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، قائلا: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ

192 – أنظر: أسباب النزول للواحدي، ص 332 .

193 . – سورة التوبة، الآية 43

194 – سورة الإسراء، الآيات 73 – 75

195 – سورة الحاقة، الآيات 44 – 47

196 – سورة القصص، من الآية 56 .

شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾(197).

7 – يصور القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم، في صورة الإنسان المذعن لأمر الله سبحانه، الملتزم بحدوده، مقرا بالعجز المطلق تجاه قدرته وإرادته، يقول الحق سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾(198)، وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾(199).

7 – **"إنه صلى الله عليه وسلم، كانت تنزل به النوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجته القصوى تلح عليه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد له مقالا ومجالا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنا يقرؤه على الناس"**(200)، من ذلك قصة الإفك، حيث أبطأ نزول الوحي قرابة شهر، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حيرة من أمره لا يستطيع فعل أي شيء لتبرئة زوجه مما وقع عليها من باطل، فلو كان القرآن من صنعه ما كان له أن ينتظر هذه المدة خصوصا وأن المسألة تتعلق بالعرض، يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ،

---

197 – سورة البقرة، الآية 144 .

198 – سورة يونس، الآيتان 15 – 16

199 – سورة الأنعام، من الآية 50 .

200 – أنظر: النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، ص 23 – 24

وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾(201).

8 – تضمن القرآن بعض الحقائق العلمية التي بقيت مجهولة حتى كشف بعضها في العصر الحديث في المخابر الحديثة والأقمار الصناعية، يقول وحيد الدين خان: " تؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مدهشة صدق تكلم النبوءة، التي وردت في القرآن الكريم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (202)"(203).

9 – إن أسلوب القرآن الكريم يخالف تماما أسلوب الحديث، رغم خروجهما من مشكاة واحدة، يقول أبو البقاء: "الحاصل أن القرآن والحديث يتحدان في كونهما وحيا منزلا من عند الله بدليل ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾(204) إلا أنهما يتفارقان من حيث أن القرآن هو المنزل بالإعجاز والتحدي به بخلاف الحديث وأن ألفاظ القرآن مكتوبة في اللوح المحفوظ، وليس لجبريل عليه السلام، ولا للرسول عليه الصلاة والسلام، أن يتصرفا فيها أصلا. أما الأحاديث فيحتمل أن يكون النازل على جبريل معنى صرفا فكساه

---

201 – سرة النور، الآيات 11 – 20

202 – سورة فصلت، الآية 53 .

203 – الإسلام يتحدى، ص 132 .

204 – سورة النجم، الآية 4 .

حلة العبارة، وبين الرسول بتلك العبارة أو ألهمه كما تلقفه، فأعرب الرسول بعبارة تفصح عنه"[205] .

وعود بنا إلى السؤال الذي طرحناه في مقدمة ردنا على آراء المستشرقين الفرنسيين حول مصدر القرآن الكريم والذي هو: هل اقتبس الرسول صلى الله عليه وسلم، مادة القرآن من اليهودية والنصرانية ؟

في الحق تبدو لنا دعوى الاقتباس من التوراة والإنجيل باطلة ودعوى التلقي من **قس بن ساعدة وبحيرى فاسدة**، ودعوى الأخذ عن العرب في الجاهلية منكرة، وقد عرضنا آراءهم على أبسط القواعد العلمية، وأيسر مسلمات المنطق، وعلى الوقائع التاريخية ولم تستطع أن تثبت أمامها ولو للحظة قليلة، مما يؤكد ضعفها وتفاهتها .

---

205 - الكليات، ق. الرابع، ص 38 .

المبحث الثاني: الوحي الإلهي:

لقد ظل السواد الأعظم من المستشرقين عند دراستهم للوحي ينطلقون من ثوابت معرفية ذات صلة بدياناتهم التي ترى أن آخر تجليات الوحي قد انتهت مع موسى عليه السلام، أو عيسى عليه السلام، وبالتالي فإن النبوة يستحيل ظهورها في أحد بعدهما، ومن هذه الفرضية يتعاملون مع القرآن على أنه حدث بشري محض، فهو إما عملية انتقائية اعتمدت على الكتب السماوية الأخرى – كما ألمحنا إلى ذلك في المبحث السابق -، أو إنتاج ومزج بين عناصر الديانات الوثنية التي كانت سائدة في القرن السابع الميلادي، إلى آخر هذه الهرطقات التي لا سند لها من الصحة .

ولكي نلامس الحقيقة في أدق جوانبها، نرى من الواجب علينا أن نبحث في حقيقة الوحي في الديانات اليهودية والنصرانية، وكذا في الفكر الأوروبي الحديث، فهذا هو المدخل الطبيعي والمباشر لمدارسة رأي المستشرقين الفرنسيين في وحي الله سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

مفهوم الوحي عند أهل الكتاب :

يعرف الوحي عند النصارى بأنه " **حلول روح الله في الكتاب الملهمين** ". وتبعا لهذا التعريف، فإن الاتصال بالله يتم مباشرة عن طريق الحلول ولا يحتاج إلى الواسطة، و من ثم لا يقتصر الوحي على الأنبياء وحدهم كما هو مفهوم الإسلام، ولكن يشمل أيضا الكتاب الملهمين. ولهذا نجد الكنيسة الكاثوليكية ترى أن بابا روما معصوم ويستحيل فيه ارتكاب الإثم والخطيئة لأن روح القدس ينطق من خلاله بوصفه خليفة بطرس الرسول، إلا أن سر العصمة لم يعد قاصرا على بابا روما وحده، بل تعداه إلى باقي البطارقة فزعموا لأنفسهم العصمة بفعل روح القدس التي تحل فيهم. والوحي بهذا المعنى لا يختلف عن الإلهام في شيء، ويمكننا أن نلامس هذه الحقيقة أيضا من خلال قول المستشرق **لويس غرديه: " إن الموحى إليه في المسيحية علة وسطية حرة، يحركها الله العلة الأولى وصاحب الوحي وفقا للوجه الذي**

قامت هي عليه حرة، ثم إنه يسع الموحى إليه أن يسخر لغايته الآثار والمستندات البشرية ويجوز فيها تبعا لأسلوبه ولسانه الخاص"[206].

ويرى النصارى بأن عيسى عليه السلام، لم يكن يتلقى الوحي بالكيفية التي كان يتلقى بها الأنبياء الآخرون عليهم السلام، والذي عبر عنها القرآن الكريم في سورة الشورى ب ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾[207]، ويرون أن الله تعالى إذا اتخذ الشجرة حجابا لتكليم موسى عليه السلام، فإن المسيح عليه السلام، اتخذه الله حجابا يكلم من خلاله العباد، وهذا ما يعنون بقولهم حلول اللاهوت في الناسوت، أي أن الله تعالى حل في المسيح عليه السلام، وبناء على هذا التفسير فإن الله والمسيح صارا شخصا واحدا.

وقد رد **ابن تيمية** رحمه الله، على هؤلاء النصارى ردا عنيفا من عدة وجوه، فوصل إلى أن القول بحلول الله واتحاده بالمسيح لا يقوم عليه دليل في كتبهم ولا كتب المسلمين، وهو قول مرفوض نقلا وعقلا، يقول **ابن تيمية**: " **وجماع هذا أن النبوات المتقدمة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر نبوات الأنبياء لم تخص المسيح بشيء يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه، كما يقول النصارى، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد صلى الله عليه وسلم، في قوله:** ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾[208]"[209].

وقد أورد **ابن تيمية** بعض النصوص الصحيحة التي تبطل قولهم بالاتحاد، منها قول المسيح عليه السلام، لما سئل عن علم الساعة فقال: "**لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب فقط**"[210].

---

206 - فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، ج 3 ص 181

207 - سورة الشورى، الآية 51 .

208 - سورة النساء، من الآية 171 .

209 - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج 2 ص 191

210 - نفس المرجع، ونفس المكان .

وعقب على هذا النص بقوله: " **فنفى عن نفسه علم الساعة، وهذا يدل على شيئين: على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علم الساعة، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم الله، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد، فإنه لو كان الاتحاد حقا كما يزعمون لكان الابن يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه، فإنه هو الله عندهم والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالما قادرا يحيي ويميت**"[211]. و النصارى في حديثهم عن روح القدس يختلفون اختلافا كبيرا عما في الإسلام فهم يرون أن روح القدس هي حياة الله، وهذا ما سيجعلهم يقولون إن المسيح ابن الله بمعنى أنه من روح الله، ولكنهم في نفس الوقت لا يفسرونه بأن روح القدس حلت في غير المسيح، من الأنبياء وأيضا الحواريين إلا أنهم لا يفسرون في هذه الحالة بحياة الله، حتى يسلموا من التناقض، ولكن التناقض يظل قائما، فإما أن نفسر روح القدس بأنها حياة الله سواء حلت في المسيح أو في غيره، وإما لا نفسرها بذلك في جميع الحالات ولكن أن نفسر روح القدس بأنها حياة الله مع المسيح فقط، فهذا ما لم يقم عليه دليل، وسواء مع المسيح أو مع الأنبياء الآخرين فتفسير روح القدس بأنها حياة الله لم يرد في أي كتاب من الكتب المنزلة وإنما ذلك وقع من تعريف النصارى وتبديلهم، يقول ابن تيمية رحمه الله: " **روح القدس لم يعبر بها أحد الأنبياء عن حياة الله التي هي صفته، بل روح القدس في كتب الله يراد بها الملك، ويراد بها الهدى والوحي والتأييد فيقال:** روح الله، **كما يقال:** نور الله وهدى الله، وملك الله، ورسول الله **لم يرد به أحد من الأنبياء، بقوله روح الله وروح القدس ما يريده الإنسان بقوله "روحي"** "[212]. ويقول أيضا: " **وقد يعبر بعض الناس بلفظ الروح عن الحياة، والله تعالى حي له حياة، ولكن لم ترد**

211 - نفس المرجع، ج 2 ص 218 .

212 - نفس المرجع، ج 2 ص 247 .

الأنبياء عليهم السلام بقولهم: روح القدس حياة الله بل أرادوا به ما يجعله الله في قلوب الأنبياء وأيدهم به، كما يراد بنور الله ذلك"[213] .

وقد قادهم هذا التفسير إلى القول بألوهية روح القدس وذلك في مجمع القسطنطينية الأول سنة 381 ميلادية، لقد قرر هذا المجمع أن روح القدس هو " **الرب المحي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له وممجد** " .

وقد قدم المؤرخ النصراني **ابن البطريق**، التعليل الذي قاد المجمع إلى القول بألوهية روح القدس حيث قال: " **ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح القدس شيئا غير حياته فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق فقد قلنا إن روح الله مخلوقة، وإذا قلنا إن روح القدس مخلوقة قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حي وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن**" .

إنه كما نلاحظ تعليل انطلق من مقدمة خاطئة، فلا يعقل أن تكون النتيجة صحيحة. والمقدمة كما رأينا تحتاج إلى دليل يثبت صحتها، ولا يوجد في نصوص الكتاب المقدس عندهم ما يبرهن على صحتها، بل إن أهل العلم الصحيح عندهم يرفضون ذلك، يقول **ابن تيمية**: " **وقد تكلم على هذا من تكلم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله، وبينوا ما وقع في ذلك من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم، وذكروا مما عندهم من النصوص الصريحة بأن المسيح عبد الله ليس هو الله مما يتبين به بطلان قولهم"**[214] .

ولسنا نحن المسلمين وحدنا الذين ننكر حلول اللاهوت في ناسوت المسيح، بل يشاركنا اليهود في ذلك، ولكن مع فارق، وهو أننا لا ننكر نبوة المسيح في حين أن معظم اليهود ينكرونها أصلا .

يتفق اليهود على أن الله تعالى كلم موسى عليه السلام، ويضيفون بأنهم هم أيضا سمعوا كلام الله بآذانهم أثناء تكليمه لموسى، فقد جاء في سفر

---

[213] - نفس المرجع، ج 2 ص 248 .

[214] - نفس المرجع، ج 2 ص 217 .

الخروج: " ... وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن، ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد. وقالوا لموسى تكلم أنت معنا فنسمع. ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت. فقال موسى للشعب لا تخافوا. لأن الله إنما جاء لكي يمتحنكم ولكي تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا. فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الله.

فقال الرب لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل. أنتم رأيتم أنني من السماء تكلمت معكم. لا تصنعوا معي آلهة فضة و لاتصنعوا كلم آلهة ذهب. مذبحا من تراب تصنع لي وتذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمك وبقرك. في كل الأماكن التي فيها أضع لاسمي ذكرا آتي إليك وأباركك. وإن صنعت لي مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة. إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها. ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كيلا تنكشف عورتك عليه"[215].

ولكن القرآن الكريم يقدم لنا غير ما تقدمه التوراة، ويبين لنا الظروف التي تم فيها تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام، قال عز وجل: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ ﴾[216].

فهذه الآية توضح كيف كان ابتداء الوحي إلى موسى عليه السلام، وتكليم الله عز وجل إياه، وذلك عندما كان عائدا من أرض حطين ومعه زوجته. إذ ذاك أمره الله تعالى بتبليغ دعوته إلى فرعون فقال: ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ ﴾[217].

ويجب أن نعلم بأن موسى عليه السلام، كان وحده عند تكليم الله تعالى له، على خلاف ما تصوره التوراة من خلال النص السابق، حيث تزعم بأن موسى قاد الشعب إلى لقاء الله، وأنهم أيضا سمعوا كلام الله بآذانكم في لهيب

215 – التوراة، سفر الخروج، الإصحاح العشرون، الآيات 18 – 19

216 – سورة طه، الآيات 9 – 13

217 – سورة طه، الآية 24 .

النار المشتعلة[218]، وهذا ادعاء يحتاج إلى دليل ولا يوجد دليل في القرآن الكريم، باعتبار أنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسلم من التحريف، قال تعالى ذكره: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[219].

ويشير القرآن الكريم إلى أن موسى عليه السلام، أوتي التوراة والألواح، قال تعالى: ﴿ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ ﴾[220]، وقال أيضا: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا ﴾[221]. فهل الألواح هي التوراة أم غيرها؟[222] يرى ابن كثير أن هذه الألواح مشتملة على التوراة، ثم أورد رأيا آخر يرى بأن الألواح ليست هي التوراة، وأن الله تعالى أعطاها لموسى قبل التوراة أما متى أنزلت التوراة؟ فالقول الراجح أنها أنزلت بعدما أهلك الله تعالى فرعون وملأه[223]، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ ﴾[224].

ونجد اليهود يميزون بين التوراة والتلمود، إذ يعتبرون التوراة كلام الله المنزل على موسى عليه السلام كتابة في حين يعتبرون التلمود في جزئه الأول المنشاة كلام الله المتحدث به إلى موسى شفويا، وفي جزئه الآخر الجمارا وهي شرح لهذا الكلام الشفوي[225].

---

218 - أنظر: الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا، ص 148 .

219 - سورة الأعراف، من الآيتين 142 - 143

220 - سورة الإسراء، من الآية 2 .

221 - سورة الأعراف، من الآية 145 .

222 - تفسير القرآن العظيم، ج 2 ص 246

223 - نفس المرجع، ج 3 ص 390

224 - سورة القصص، من الآية 43 .

225 - Anthologie Juive: des Origines à nos jours , p. 138 .

وهذا ادعاء تزعمه اليهود، لأنه لا يوجد له سند في كتاب الله، ولا يعقل أن ينزل من عند الله، فما كان الله لينزل وحيين، فيأمر بتقديس أحدهما، ويتساهل في التلاعب بالآخر. وهذا ما صنعه اليهود، فهم يقدسون التلمود ولا يجيزون مخالفته، ويعتبرون ذلك جريمة تستحق الموت على خلاف التوراة فمخالفتها لا تستحق العقوبة، فقد جاء على لسان الحاخام أيا: **" احذر يا بني واتبع تعاليم التلمود لا التوراة، فالتوراة تتضمن أحكاما مخالفتها الموت، وأما من يخالف عرفا جاء في التلمود فالقتل عقابه "** .

والنبوة عند اليهود ميراث يرثه الإنسان كما أنها صناعة تتعلم في المدارس[226]، بل إن النبوة يمكن الاستيلاء عليها عن طريق الحيلة والمكر والدهاء والمؤامرة، فقد جاء في سفر التكوين: **" وحدث لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا ابني فقال له هاأنذا. فقال إنني قد شخت ولست أعرف يوم وفاتي. فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لي صيدا. واصنع لي أطعمة كما أحب وأتني بها لآكل حتى تباركك نفسي قبل أن أموت"**[227]. ففعل يعقوب باتفاق مع أمه، فأحضر الطعام إلى أبيه، وكان هذا الأخير أعمى، فأكل الطعام وقال: **" ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين"**[228] .

فإذا كانت التوراة تتصور النبوة على أنها ميراث وعلى أنها صناعة تتعلم، وعلى أنها تنال عن طريق المكر والدهاء فإن القرآن بريء من هذا التصور، فالنبوة بيد الله كباقي نعمه يهبها لمن يشاء من عباده الصالحين، قال عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾[229] .

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن هذه التوراة ليست هي تلك التي أنزلت على موسى عليه السلام، وحيا من الله تعالى، بل هي مما كتبه

---

226 – أنظر: محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص 148 .

227 – التوراة، سفر التكوين، الإصحاح السابع والعشرون، الآيات 1 – 4

228 – التوراة، سفر التكوين، الإصحاح السابع والعشرون، الآية 29 .

229 – سورة الحج، الآية 75 .

اليهود بأيديهم وقالوا هذا من عند الله، وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾(230).

الوحي القرآني في دراسة المستشرقين الفرنسيين :

لقد غامر المستشرقون الفرنسيون بتقديم مجموعة من التفسيرات للوحي القرآني، وما دامت المغامرة في ميدان البحث العلمي لا تخلو من فائدة فإننا نقر في يقين جازم أن المغامرة في تفسير الوحي قد أثبتت زلل قدم المستشرقين الفرنسيين خاصة، وتعثر أقلامهم وانفلات خيال كثير منهم. ونقطة الخطأ الأولى التي ينطلق منها المستشرقون عموما والفرنسيون منهم خاصة في البحث في هذه الظاهرة هي إنكار الوحي أساسا مما يؤدي بهم إلى القول إن القرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا الموقف له ما يبرره، وهو أن جمهرة كثيرة منهم لم يفهموا حقيقة الوحي والنبوة ولم يعرفوا العلاقة التي تربط بينهما، ومن ثم راحوا يطبقون في دراستهم للوحي مقاييس العلوم التجريبية التي أثبتت الدراسة والبحث عجزها التام عن تقديم أي تفسير صحيح للوحي، بحيث وقفت عند حدود " **ظواهر الأشياء** " ولم تستشف ما وراء هذه الظواهر، ولم تصل إلى الأعماق والجذور.

ونحن إذا تتبعنا جزئيات تفسيراتهم للوحي القرآني، نجدها تركز على ثلاثة موضوعات رئيسة، وهي:

الموضوع الأول: الظروف التي تلقى فيها محمد أول بلاغ إلهي .

الموضوع الثاني: فتور الوحي .

الموضوع الثالث: العوارض التي تعتري النبي صلى الله عليه وسلم، عند نزول الوحي .

230 - سورة آل عمران، الآية 78 .

وقبل الذهاب في تفاصيل هذه الآراء فنحن مدعوون، منذ البداية إلى محاولة تحديد مصطلح الوحي على الرغم مما يكتنف هذا التحديد من صعوبة وغموض في اللغة الفرنسية، فهذا هو المنطلق الصحيح لتحديد نظرة الاستشراق الفرنسي للوحي القرآني .

تعريف الوحي:

يعبر الفرنسيون عن الوحي بكلمة "**Révélation**"، التي تعني:

«Action de Dieu faisant connaître aux hommes les vérités que leur raison ne saurait découvrir »

" فعل من الله لإطلاع الناس على الحقائق التي لا تستطيع عقولهم أن تكشفها"[231]، أو هو:

«La manifestation d'une réalité qui restait jusqu'alors cachée, obscure ou inconnue ».

"إظهار الحقيقة التي ظلت إلى ذلك الحين محجوبة و غامضة أو مجهولة"[232] .

إن الناظر في هذا التعريف، لا يكاد يجد مدلولا محددا لكلمة الوحي، وكان أولى أن نسميه إلهاما فهو لا يختص بالأنبياء فقط، وإنما يشمل جميع الناس، مع العلم أن هناك فروقا كبيرة بين الوحي والإلهام، منها :

أولا: إن الوحي يحصل بواسطة الملك، ولذلك لا تسمى الأحاديث القدسية بالوحي، وإن كانت كلام الله، أما الإلهام فقد يحصل من الحق بغير واسطة الملك .

ثانيا: إن الوحي من الشهود المتضمن للكشف المعنوي لأنه إنما يحصل بشهود الملك وسماع الكلام، في حين الإلهام من الكشف المعنوي .

ثالثا: إن الوحي من خواص النبوة، في حين الإلهام أعم .

---

231 - Petit Larousse , Dictionnaire Encyclopédique , p. 804 - 805

232 - D. Masson, Le Coran et la Révélation Judéo-chrétienne, Etudes comparées, p. 211 .

رابعا: إن الوحي مشروط بالتبليغ دون الإلهام(233) .

وللمزيد من الإيضاح، نقول: إن الوحي هو الإيماء بالتكليم خفية عن أن يفهمه الغير، وأصله الإشارة السريعة على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة بعض الجوارح وبالكتابة، وحمل عليه قوله تعالى عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝ ﴾[234] ولم يتكلم .

وحمل على الإيماء، قول الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثر ذاك الوحي في وجناتها

وحمل على الإشارة، قوله تعالى: ﴿ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾(235) .

هذا، وقد اتخذ الملوك والأمراء حروفا وكلمات بأرقام اصطلحوا عليها وعبروا عنها باسم " **شفرة** "، كناية عن المعنى، واستنباطا منه، ومنعا من أن يفهم الغير ما يتخابرون به .

يتحصل من خلال هذا الكلام، أن الوحي: **هو إعلام خفي سريع خاص بمن يوحى إليه، بحيث يخفى عن غيره، كما كان يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، في فراش عائشة رضي الله عنها، فيعلم ما هو المراد وهي لا تدري، وكذلك كان يوحى إليه بمحضر من أصحابه رضي الله عنهم جميعا،**

233 - أنظر: أبو البقاء، المرجع السابق، ق. الأول، ص 285 - 286

234 - سورة مريم، الآية 11 .

235 - سورة آل عمران، من الآية 41 .

فيعي ما يتلقاه وهم لا يعلمون شيئا منه إلا تغير حال الرسول صلى الله عليه وسلم، عما كان عليه من قبل الوحي[236].

والقرآن استعمل كلمة " **الوحي** " بمعنى **الخفاء** في سورة الشورى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝ ﴾ [237]، وفي سورة القصص: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ ﴾[238] ويطلق عليه أيضا "**الإلهام الفطري للإنسان**".

كما استعملها بمعنى **التسخير** في سورة النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ﴾[239] ويطلق عليه أيضا " **الإلهام الغريزي للحيوان** ".

كما استعملها بمعنى **الوسوسة** في سورة الأنعام: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ﴾ [240].

كما استعملها بمعنى **الأمر** الذي يلقيه الله إلى الملائكة ليفعلوه في سورة الأنفال: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[241] .

وإذا تأملنا في هذه الاستعمالات القرآنية لكلمة " **الوحي** "، نجده استعمل فعل " **وحى** " إحدى وسبعين مرة: في مرتين منها لم يصرح بالموحى إليه،

236- أنظر: الصحاح في اللغة والعلوم للجوهري، م 1 ص 673، و الكليات لأبي البقاء، ق. الخامس ص 35 – 36، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ص 536، لسان العرب لابن منظور، مادة الوحي، ج 6 ص 4787 – 4789

237 – سورة الشورى، من الآية 51 .

238 – سورة القصص، الآية 7 .

239 – سورة النحل، الآية 68 .

240 – سورة الأنعام، من الآية 121 .

241 – سورة الأنفال، من الآية 12 .

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [242]، وقوله سبحانه: ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [243].

وفي سبع وستين مرة تعدى الفعل ب" إلى " .

ومرة واحدة تعدى الفعل ب " في " كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [244].

ومرة واحدة تعدى الفعل ب " اللام " كما في قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ ﴾[245].

قال أبو حيان الأندلسي: **" وعدى أوحى باللام، وإن كان المشهور تعديتها بإلى، لمراعاة الفواصل ... وإذا كان الإيحاء إليها احتمل أن يكون وحي إلهام، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة"**[246] .

والنتيجة، أننا نرى أن الموحى به يتعدى إليه الفعل بنفسه .

أما الموحى إليه، فيتعدى الفعل إليه بحرف الجر إلى إذا كان من الأحياء باستقراء الآيات السبع والستين التي جاء الوحي فيها بإلى.

أما الجماد فلا يتعدى الوحي إليه بحرف الجر إلى، بل بحرف جر في أو باللام.

الموضوع الأول: الظروف التي تلقى فيها النبي أول بلاغ إلهي:

لقد تساءل كازيمرسكي **Kasimirski** عند الظروف التي حملت محمدا صلى الله عليه وسلم، على أن يعتقد بنفسه حقيقة أنه أوحي إليه، ثم قال:

«Là encore soyons prudents: chez beaucoup d'inspirés, et chez bien des gens du commun, il n'y a pas une notion claire de la différence qui existe entre l'objectivement vrai et le

---

242 - سورة النجم، الآية 4 .

243 - سورة الشورى، من الآية 51 .

244 - سورة فصلت، من الآية 12 .

245 - سورة الزلزلة، الآيتان 4 - 5

246 - البحر المحيط، ج 8 ص 501 .

subjectivement nécessaire, il est difficile d'appliquer toujours, à cette obscurité, le nom d'hypocrie. Ce n'est pas non plus faire avancer beaucoup la question que d'affirmer qu'il était épileptique, ou en proie à quelque état de folie religieuse. Le fait d'une psychologie anormale n'a même pas besoin d'être discuté, seulement, ce qui est intéressant, ce n'est pas ce par quoi il aurait pu ressembler à un épileptique, ou à un fou ordinaire, mais précisément ce par quoi il en a différé; il y a eu et il y aura beaucoup de fous et d'épileptiques, mais il n'y a eu qu'un fondateur de la religion musulmane».

"لنكن حذرين، فعند كثير من الموحى إليهم، وكذلك عند كثير من الناس لا توجد فكرة واضحة للاختلاف الموجود بين الموضوعية الصحيحة والذاتية الضرورية، إنه من العسير أن نستعمل دائما في ظل هذا الغموض اسم مكر أو خبث ولن يفيد أيضا أن نزعم أنه كان مصابا بالصرع أو فريسة لحالة جنون ديني، إن الحالة النفسية الغير طبيعية لم تكن لتناقش، إن ما يهم، ليس أن يشبه المصروع أو المجنون، ولكن بالتحديد ما هو وجه الاختلاف بينه وبين هؤلاء المجانين والمصروعين، فهناك مجانين كثر ومصروعون كثر لكن لم يكن أحد منهم مؤسسا لديانة الإسلام"[247].

وتحدث إدوراد **مونتيه** **E. Montet** عن حال الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة وتصور أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان على استعداد كامل لاستقبال الوحي من شدة ما عاناه من الأزمات التي صادفته في صغره، وزاد على أن جعل هذه الأزمات سببا في إصابة الرسول صلى الله عليه وسلم، بالهذيان، حتى أخذت تتجلى له الملائكة في خلوته، ولم يلبث **مونتيه** طويلا عند هذا التعليل، فذكر أن كثرة تفكير محمد أيضا فيما عليه قومه من شرك وضلال خلق في ضميره ثورة، ويتضح لنا ذلك بجلاء من خلال قوله:

«Il (Mahomet) n'eut pas de révélation jusqu'à l'âge de 40 ans. Mais ses méditation solitaires le préparation depuis longtemps à en avoir. Ce qui l'y prédisposait d'ailleurs, c'étaient

---

247 - Coran , Tome Premier , p. 12 - 13

les crises nerveuses dont il était atteint depuis sa jeunesse et, au cours desquelles, il avait des hallucinations. C'est dans les retraites qu'il avait l'habitude de faire dans le désert que les apparitions d'anges finirent par se manifester. Ces phénomènes spirituels se produisirent en lui à la vive impression de révolte que provoqua dans sa conscience le spectacle du polythéisme grossier et de l'immoralité de ses contemporains».

" لم يتلق محمد الوحي عندما بلغ سن الأربعين لكن تأمله المعزول أهله منذ سن بعيد لاستقبال الوحي والذي هيأه لذلك الأزمات العصبية التي مني بها منذ صغره، وعلى أثرها أصيب بالهذيان وأخذت تتجلى له الملائكة في خلوته التي اعتادها في الصحراء، هذه الظواهر بدأت عنده نتيجة للضغط والثورة التي أحدثتها"[248] .

في حين يرى بلاشير **R. Blachère:**

«La vocation manifestée en deux temps: d'abord par un songe. ensuite par une vision ».

" أن ظهور دعوة الرب – الوحي – تمت على مرحلتين: في البداية عن طريق التفكير، وبعد ذلك عن طريق الرؤية"[249] .

والحق أن مثل هذه الادعاءات قد ألفنا سماعها من كثير من المستشرقين، فهذا المستشرق الألماني كارل بروكلمان يقول: **"أغلب الظن أن محمدا قد انصرف إلى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكرة جدا، وهو أمر لم يكن مستغربا عند أصحاب النفوس الصافية من معاصريه الذين قصرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمأهم الروحي"[250] .**

فهي لا تختلف عنه جملة ولا تفصيلا من حيث التصور العام للظروف التي تلقى فيها محمد صلى الله عليه وسلم، أول بلاغ إلهي.

---

[248] - L 'Islam , p. 12 .
[249] - Le problème de Mahomet , p. 40.
[250] – تاريخ الشعوب الإسلامية، ص 34 .

الـــــرد:

"من الأمور المسلم بها عند المؤرخين المسلمين والغربيين على السواء، أن بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، كانت على رأس الأربعين وفي السن الذي يستحيل أن يبتدئ أو يبتدع فيها الإنسان علما أو فنا، أو يسن فيها شرعا أو يضع قانونا، أو أن ينهض في العالم بانقلاب عظيم أو عمل خطير، مما لم يكن قد ظهر استعداده له، وأخذ بمقدمات في ريعان الصبا وشرخ الشباب"[251].

وتواترت الروايات الصحيحة على أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يظهر طيلة تلك الفترة بأي مظهر عقلي أو علمي ولا حتى مادي ينبئ بمستقبله ذاك، وأنى له ذلك وهو اليتيم الفقير الأمي، الذي لم تكن لديه مواهب أدبية ظاهرة، ولم يملك من أسباب الغنى والقوة ما يعينه على بلوغ مركز السلطة والجاه، ويجعله في نظر قومه عظيما وعزيزا بل " **كان راعيا للغنم، يقوم بين الفينة والأخرى ببعض التجارة تارة لنفسه وتارة لزوجته خديجة**"[252].

على كل حال، لم تكن حالة محمد صلى الله عليه وسلم تلك تؤهله لتولي أي من أمور قريش الدينية أو الدنيوية، فمن غير اللائق والمعقول – بمقاييس البشر – أن يمكنوه من زمام القيادة الدينية والزعامة الدنيوية طالما هذا حاله وتلك وضعيته، وإن عرف عندهم بالأمين " **لما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة**"[253]، وأحبوه لذلك، غير أن هذا الحب لم يكن ليغير من واقع حاله شيئا، ولم يدفع قومه إلى تنصيبه إلى قيادة المجتمع.

وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يلتفت إلى هذه الأشياء، ولم يعبأ بها ولم يسع إلى أمر من أمور القيادة، بل كان منذ طفولته ميالا إلى الوحدة، تواقا إلى العزلة، مبتعدا عن جهالة قومه وضلالتهم، تاركا عبادتهم، " **فلم يعبد معهم صنما ولا عظم وثنا وكان متدينا بفرائض العقول في قول جميع الفقهاء**

---

251 – أنظر: محمد رشيد رضا، المرجع السابق، ص 302 .

252 – أنظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، م 8 ص 125 - 130

253 – أنظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ص 172 .

والمتكلمين من توحيد الله تعالى وقدمه وحدوث العالم وفنائـه، وشكر المنعم، وتحرير الظلم، ووجوب الإنصاف وأداء الأمانة"[254].

يقول محمد رشيد رضا: "التحقيق في صفة محمد صلى الله عليه وسلم، من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته: هو أنـه خلقه كامل الفطرة ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستقلالي الهيولاني ليبعثه متمما لمكارم الأخلاق وأنه بغض إليه الوثنية وخرافات أهلها ورذائلهم من صغر سنه وحبب إليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية، أو منكرات القوة الوحشية، كسفك الدماء، والبغي على الناس، أو المطامع الذنيئة كأكل أموال الناس بالباطل. ليبعثه مصلحا لما فسد من أنفس الناس، و مزكيا لهم بالتأسي به وجعله المثل البشري الأعلى لتنفيذ ما يوجه إليه من الشرع الأعلى"[255].

نستنتج من ذلك كله، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان غافلا عن أمر الوحي لم يفكر فيه قطعا ولم يبحث عنه كما تصور ذلك المستشرق الفرنسي **موريس جودفري – ديمومبين:**

«Il s'en va errant à travers la montagne, tel un poète cherchant l'inspiration. Il fait retraite au mont Hira, au- delà, de L'Abu Qubais, dans une grotte et l'on retrouve ici la valeur religieuse des grottes dans l'histoire de l'humanité, c'est là que l'effluve divin vient le toucher ».

"إن النبي كان تائها عبر الجبل، مثل أي شاعر، باحثا عن الإلهام واعتكف في غار حراء إلى أن أصابه فوحان إلهي"[256].

فلو كان الأمر كذلك، ما كان له أن يشعر بالرعب والخوف عندما رأى **جبريل** وسمع صوته حتى أنه قطع خلوته في الغار، وعاد إلى بيته مسرعا، تروي أحاديث بدء الوحي أن النبي صلى الله عليه وسلم، خاف على نفسه لما

---

[254] – أنظر: أعلام النبوة للماوردي، ص 222 .

[255] – المرجع السابق، ص 112 .

[256] - Maurice Gaudefroy – Demombynes , Mahomet , p. 68 .

رأى الملك أول مرة، ولم تجد زوجته **خديجة** رضي الله عنها، أمامها من وسيلة لتهدئ بها من روعه إلا أن تذكره بما سلف من عمله الصالح، وخلقه الطيب، حين قالت: **" كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"**[257]، ثم أخذته بعد ذلك إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ليفسر له الحالة التي كان عليها ويطمئنه على نفسه .

وبعد، فإن هذا ليس شأن من يفكر في الوحي ويبحث عن الوحي، يقول **عبد الرحمن السهيلي: " كل حديث يزعم فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يعرف فيه أنه نبي، هو حديث كذب لا يعتد به، لأنه صلى الله عليه وسلم، لم يكن يعرف حتى ليلة الوحي أنه نبي"**[258] .

فالوحي إذا حقيقة مستقلة خارجة عن ذاتية محمد صلى الله عليه وسلم، وعن شعوره بعيدة عن خياله الداخلي، كما تصور ذلك **مكسيم رودنسون**[259]، ولم تكن له يد في إحداث الوحي، فلم يتفق أبدا – كما رأينا سابقا – أنه سعى أن يكون نبيا رسولا، بينما الذي حدث أن الله تعالى اختاره، على الرغم من كل الظروف المعاكسة لذلك الاختيار، فكان اختياره سبحانه له أكبر تحد لكل المقاييس التي تعارف عليها البشر، حتى أن قومه استنكروا ذلك الاختيار لما علموه من حاله، فقالوا كما حكى القرآن الكريم: ﴿ **لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴿٣١﴾ ﴾[260]، لكنه اختيار من الله الذي يعلم حيث يجعل رسالته. فالمسألة إذا أبعد من التفكير والتأمل والخيال الداخلي، فلو كان الوحي يأتي بهذه الطرق لما كان لمحمد صلى الله عليه وسلم، فيه نصيب، فلقد سبقه

---

[257] - رواه البخاري في جامعه الصحيح، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، ج 1 ص 36.

[258] - الروض الأنف، ج 2 ص 170 .

[259] - Maxime Rodinson , Mahomet , p. 100: « **La révélation se présentait sous forme d'une imagination intérieure qui ne s'exprimait pas en mots et quand la crise cessait , il récitait des paroles correspondant pour lui de façon évident à ce qui lui avait été inspiré** »

[260] - سورة الزخرف، من الآية 31 .

إلى التفكير والعزلة خلق كثير أجهدوا أنفسهم في التأمل وسعوا حثيثا إلى النبوة وتلقي الوحي، لما سمعوا عن قرب ظهور آخر نبي هذا الزمان، وما أصابهم شيء ولا نالوا مطلبهم، يقول مالك بن نبي: **"من الوجهة النفسية ليس "الشعور "النبي أي دور في عملية الوحي، وهو – بداهة – لا يحتوي على تيار الوحي الذي لم يأت بعد، أما " لا شعوره " فلم يكن له أن يلد تلقائيا فكرة مركبة أثبتها التاريخ بصورة وضعية إيجابية"[261].**

الموضوع الثاني: فتور الوحي

يقول إدوارد مونتيه E. Montet:

«Comme , il n'eut pas d'autres révélations dans la période qui suivit cette nuit mémorable , il se demandait s'il n'était pas le jouet d'un démon , la croyance à la possession et au pouvoir des esprits partout présents et actifs étant très répandue à cette époque en Arabie. Dans d'autres moments, il avait le sentiment d'être l'objet d'une grâce divine spéciale, car il croyait à la réalité des visions qu'il avait eues. Mais des doutes se présentaient de nouveau à son esprit .Etait-il chargé d'une mission divine, ou était-il atteint de folie ? Il alla même jusqu'à la pensée du suicide».

" بما أنه لم يتلق الوحي في الحقبة الموالية لهذه الليلة الخالدة تساءل محمد هل كان لعبة في يد الشيطان، إن الإيمان ب" التملك " وقدرة الجن كانت منتشرة في هذا الوقت في الجزيرة، وفي أوقات أخرى كان له إحساس بأنه موضوع عناية إلهية خاصة. لأنه كان يصدق الرؤيا التي كان قد رآها. لكن الشكوك ظهرت من جديد في ذهنه، هل هو موضوع مهمة إلهية أم أنه أصيب بالجنون؟ إنه ذهب إلى حد التفكير في الانتحار"[262].

261 – الظاهرة القرآنية، ص 269 .

262 - L'Islam , p. 13 .

أما **بلاشير Blachère فيقول:**

«Mahomet connut alors une période d'atroce angoisse, il se sentit retomber, dans ses incertitudes, doute de sa mission, se crut à tout jamais abandonné par le Seigneur. Bientôt après cependant l'Ange porteur de la parole d'Allah revint le visiter et lui donna confiance».

" عرف محمد فترة كرب شنيع، وشعر أنه وقع ضحية شكوكه، وشك في بعثته، وكان يظن أن ربه تخلى عنه للأبد. إلا أن الملك حامل رسالة الله لم يتأخر عن الإسراع إلى زيارته ومنحه الثقة"[263].

إن الذي جاء به **مونتيه** و**بلاشير** هنا لا يختلف كثيرا عما أورده الشيخان **البخاري** و**مسلم** رحمهما الله، في صحيحيهما، وإن كان التعبير يخونهما في صوغ الفكرة العامة للموضوع، لذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى بيان وجه الحق في هذا الموضوع كي يستقيم الفهم ولا يبقى أي غموض أو التباس .

إذ من الأدلة الثابتة على أن الوحي شيء منفصل عن ذاتية الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن إرادته، مسألة **فتور الوحي**، حيث قضت الحكمة الربانية أن يحتجب الوحي مدة تزيد عن السنتين[264].

فحزن النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك الانقطاع المفاجئ حزنا شديدا وبدأ القلق يستبد به، كما بدأ يشك في أن ما أتاه ربما يكون مسا من الجن، أو أن يكون من الشيطان، وذهب به التفكير مرارا – كما قالت **عائشة** رضي الله عنها – إلى أن يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكان كلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي بنفسه منه تبدى له جبريل عليه السلام، وقال له: **" يا محمد أنت** رسول الله حقا، **فيطمئن لقول جبريل ويسكن له وتعود الثقة إلى نفسه بأن ربه ما ودعه وما قلى"**[265].

---

263 - Le problème de Mahomet , p. 41 .

264 – أنظر: فضائل القرآن لابن كثير ' ص 13 .

265 – صحيح مسلم بشرح النووي، باب بدء الوحي إلى رسول الله، ج 2 ص 205 – 206

عن ابن شهاب، قال: " **أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، أن جابر بن عبد الله الأنصاري وكان من أصحاب رسول الله وهو يحدثهم عن فترة الوحي قال في حديثه: فبينما أنا أمشي سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسا على كرسي بين السماء والأرض، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجأت منه فرقا، فرجعت فقلت زملوني زملوني، فدثروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر، وثيابك فطهر، والرجس فاهجر﴾ وهي الأوثان قال ثم تتابع الوحي**"[266] .

واستنكر **محمد علي** أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم، قد فكر في الانتحار، وقال: " **علينا أن لا نقفز إلى استنتاج غير معقول ولا تبرره المقدمات فنزعم أنه مضى إلى هناك لكي ينتحر (بعد أن فتر الوحي). لقد كان من دأبه أن ينطلق إلى الجبال قبل تلقيه الوحي بزمن طويل ولقد كان طبيعيا، وهو النزاع إلى التأمل أن يلتمس العزلة في الجبال وهي خير مكان يستطيع فيه أن يفرغ للتحنث والتفكير. وهكذا فليس ثمة أيما سبب يدعونا إلى الافتراض أنه قصد إلى الجبال وفي نيته أن ينتحر**"[267] .

قد يكون استنتاج **محمد علي** صحيحا ومعقولا إلى حد ما، لو لم ترو هذه القصة على لسان **عائشة** رضي الله عنها، وفي صحيحي **البخاري ومسلم** رحمهما الله .

إن الحكمة من فتور الوحي، تتخلص فيما يلي :

أولا: أن يذهب الخوف الشديد الذي اعترى محمدا صلى الله عليه وسلم، عند بدء الوحي في **غار حراء** .

ثانيا: أن يحصل عند النبي صلى الله عليه وسلم، الشوق لرؤية الملك فيكون استقباله للوحي بعد ذلك على تشوق منه، غير مشوب بكراهية .

---

266 – نفس المصدر، ونفس المكان .

267 – حياة محمد ورسالته، ص 71 .

ثالثا: أن الله سبحانه أراد أن يظهر الانفصال التام بين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، قبل البعثة، وشخصيته بعدها، ليبين أن شيئا ما قد نزل من هذا الكتاب لم يطبخ في ذهن محمد صلى الله عليه وسلم، سابقا .

رابعا: أن الوحي كان ينزل حين يشاء الله ويفتر على مشيئته لا دخل لمحمد صلى الله عليه وسلم في هذه المسائل والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى، منها على سبيل المثال حادثة الإفك، حيث أبطأ الوحي شهرا كاملا لرد هذه الريبة التي كادت أن تعصف بقلب الرسول صلى الله عليه وسلم، وتقوض صرح هذا الدين كله.

الموضوع الثالث: العوارض التي كانت تعتري الرسول عند نزول الوحي :

لقد تحدث مكسيم رودنسون **M. Rodinson** عن العوارض التي كانت تعتري الرسول صلى الله عليه وسلم، عند نزوله الوحي وقال:

«IL y avait moins de surprise et de terreur, mais c'était toujours une épreuve douloureuse et pénible. Le visage du Phophète se couvrait de sueur; des frissons le secouaient et il restait une heure inconscient, comme en état d'ivresse. Il n'entendait pas ce qu'on lui disait, transpirait, abondamment, même par temps froid, entendait des bruits bizarres, comme des chaînes ou des cloches, ou un bruissement d'ailes ».

"إن نزول الوحي على النبي كان يمثل دائما تجربة مؤلمة شاقة، بحيث يمتلئ وجه النبي عرقا، والارتعاشات تهزه، ويبقى ساعة من غير وعي، كأنه في حالة سكر، لا يسمع ما يقال له، ويعرق بغزارة، حتى في الأوقات الباردة، ويسمع أصواتا غريبة لسلاسل أو أجراس أو هدير"[268].

268 - Mahomet , p. 100 .

ورأى موريس جدفروي- ديمومبين

Maurice Gaudefroy-Demombynes

«Mohammed ne cède qu'avec peine à la contrainte de l'ange. Il se débat, il grogne, tel un jeune chameau, dit la tradition; l'écume sort de sa bouche et la sueur de son corps. Quand la révélation lui vient tandis qu'il est monté sur sa chamelle, celle-ci fléchit sous le fardeau. Il entend un bruit de chaîne, une tradition dit un tintement de cloches, qui est particulièrement pénible. Mais les cloches étaient inconnues à Mekke».

" أن محمدا لم يستسلم بسهولة لضغط الملك، يناقش ويدمدم كالجمل، كما قالت الرواية، الزبد يخرج من فمه وكذا العرق من جسمه، حينما يأتيه الوحي وهو على ناقته، هذه الأخيرة تخور قواها من شدة الثقل فتبرك، ويسمع أصوات السلاسل، ورواية تقول رنين الأجراس، كان شاقا جدا، لكن الأجراس لم تكن معروفة في مكة"[269] .

نلاحظ عند صاحبي هاتين القولتين، جهلا خطيرا بالعوارض التي كانت تعتري الرسول صلى الله عليه وسلم، خلال نزول الوحي من حالة خاصة ناشئة عن انفصاله عن بشريته، واتصاله بالعالم الروحاني، ويصفون هذه الظاهرة بالهوس، ويقدمونها في صورة من صور الانحرافات النفسية، وفي ما يلي بيان لوجه الحق في هذه المسألة، يقول **غوستاف لوبون: " يجب عد محمد من فصيلة المتهوسين كما هو واضح وذلك كأكثر مؤسسي الديانات، ولا كبير أهمية لذلك، فأولوا الهوس وحدهم لا ذوو المزاج البارد من المفكرين، هم الذين ينشئون الديانات ويقودون الناس"[270] .**

لقد سجل لنا أصحاب السيرة، ومدونو الأحاديث النبوية كل ما يتصل بكيفية نزول الوحي على **محمد** صلى الله عليه وسلم، وصوروا لنا العوارض

---

[269] - Mahomet , p. 71 - 72

[270] - حضارة العرب، ص 144 .

التي كانت تبدو على الرسول صلى الله عليه وسلم، أثناء نزول الوحي، تصويرا دقيقا، وما غفلوا عن جزئية صغيرة ولا كبيرة في هذا المجال .

قالت **عائشة** رضي الله عليها: **" إن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي، فقال رسول الله أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقا"**[271] .

تأتي شدة الوحي وصعوبته في هذه الحالة على الرسول صلى الله عليه وسلم، من أن الله سبحانه وتعالى أراد التقريب بين رسول روحي الذي هو **جبريل** عليه السلام، ورسول بشري من الناس الذي هو **محمد** صلى الله عليه وسلم، وهنا تظهر قدرة الله في نفس **محمد** صلى الله عليه وسلم، فيجردها من المؤثرات والعوارض المادية كالمرض والخطأ والنسيان، ومن شواغل الحياة الدنيا ويطهرها من الأحداث، ويغلب فيها الجانب الروحي، حتى ترتفع عن المظهر المادي، ويكون على أتم صفاء وكمال، وحينئذ يكون أهلا لمناجاة الملك الروحاني – جبريل – وعلى أتم استعداد ليتلقى عن الملك ما شاء الله من الوحي، ولا يكون هذا مشوبا بشائبة تشوب صفاءه، ولا خاضعا لشيء من المؤثرات البشرية كالغضب أو اضطراب الأعصاب .

وقد أشار الشيخ **الكرماني** في تعليقه على هذا الحديث إلى نفس الحقيقة، عندما قال: **" إن سنة الله لما جرت من أنه لابد من مناسبة بين القائل والسامع حتى يصح بينهما التحاور والتعليم فتلك المناسبة، إما باتصاف السامع بوصف القائل لغلبة الروحانية عليه وهو النوع الأول أو باتصاف القائل بوصف السامع وهو النوع الثاني والدليل عليه تمثله رجلا"**[272] .

---

271 – صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج 1 ص 25 – 28

272 – صحيح البخاري بشرح الكرماني، باب كيف كان بدء نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم، ج 1 ص 28.

ويقول القسطلاني: " وإنما كان هذا الضرب من الوحي أشد على النبي صلى الله عليه وسلم، من غيره لأنه كان يرد فيه من الطبائع البشرية إلى الأوضاع الملكية فيوحى إليه كما يوحي إلى الملائكة بخلاف الضرب الآخر الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم"[273].

ويتضح من ذلك " أن حالة الرسول صلى الله عليه وسلم، كانت تتغير عند نزول الوحي حتى أن جنبيه ليتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، مما يدل على كثرة معاناته التعب والكرب عند نزول الوحي، لما فيه من مخالفة العادة"[274].

وقد رأت خولة بنت ثعلبة رضي الله عليها، الرسول صلى الله عليه وسلم، حين نزل عليه الوحي، وشهدت ذلك عن كثب، وقالت: "الله في وفي أوس بن صامت أنزل الله عز وجل صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه وضجر قالت: فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب. فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل علي فإذا هو يريدني على نفسي. قالت: فقلت كلا والذي نفس خويلة بيده ولا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواثبني وامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فلقيته عني. قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابها ثم خرجت حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه فجعلت أشكو إليه صلى الله عليه وسلم، ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه. قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن فتغشى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما كان يتغشاه ثم سرى عنه. فقال لي: يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك ثم قرأ علي ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله

---

[273] – إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ص 59 .

[274] – فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 1 ص 21 .

سميع بصير، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتومنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم﴾ (275). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، مريه فليعتق رقبة. قالت: فقلت يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام. قال: فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر. قالت: فقلت والله يا رسول الله ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإنا سنعينه بعرق من تمر، قالت: فقلت وأنا يا رسول الله سأعينه بعرق آخر قال: قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي عنه ثم استوصي بابن عمك خيرا. قالت: ففعلت"(276).

ورغم شدة معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم، من هذا النوع من الوحي، ورغم ما يبدو عليه من العوارض كالكرب والرعدة، والعرق الكثير والتغشي، فقد كان صلى الله عليه وسلم، يستبقي وعيه وعقله كاملا، وقد أثبت لنفسه ذلك حين قال مرة: " **فيفصم عني وقد وعيت ما قال** " وقوله مرة أخرى: " **فيكلمني فأعي ما يقول**"، يقول الكرماني: " **فإن قلت فلم قال في الأول " وعيت ما قال " بلفظ الماضي، وفي الثاني بلفظ المضارع قلت لأن الوعي في الأول حصل قبل الفصم ولا يتصور بعده، وفي الثاني الوحي حالة المكالمة ولا يتصور قبلها، أو لأنه كان الوعي في الأول عند غلبة التلبس بالصفات الملكية، فإذا عاد إلى حالته الجبلية كان حافظا فأخبر عن الماضي بخلاف الثاني فإنه على حالته المعهودة**"(277).

---

275 - سورة المجادلة، الآيات 1 - 4

276- مسند الإمام أحمد بن حنبل، باب المرأة التي نزل فيها الوحي في حضرة رسول الله وشهدت ذلك عن كثب، ج 6 ص 410 - 411

277 - المصدر السابق، ج 1 ص 28 - 29

وبهذا الوعي الكامل " نرى المباينة والمناقضة بين الوحي وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تصفر فيها الوجوه، وتبرد الأطراف وتصطك الأسنان، وتتكشف العورات، ويحتجب نور العقل، ويخيم ظلام الجهل، لأنها كانت كما علمت مبعث نمو في قوة البدن، وإشراق في اللون، وارتفاع في درجة الحرارة، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلعته"(278) .

يقول مالك بن نبي: " إذا نظرنا إلى حالة النبي، وجدنا أن الوجه وحده هو الذي يتحقن، بينما يتمتع الرجل بحالة عادية، وبحرية عقلية ملحوظة من الوجهة النفسية، بحيث يستخدم ذاكرته استخداما كاملا خلال الأزمة نفسها على حين يمحي وعي المتشنج وذاكرته خلال الأزمة، فالحالة بناء على هذه الملاحظات ليست حالة مرض كالتشنج .

ونضيف أيضا أن الأعراض الجسمية التي رويت عن النبي لا تظهر إلا في اللحظة التي تعتريه فيها الظاهرة القرآنية، وفيها وحدها، أي في اللحظة الخاطفة للوحي .

هذا التلازم الملحوظ بين ظاهرة نفسية أساسا، وحالة عضوية معينة هو الطابع الخارجي المميز للوحي"(279).

على العموم، هذه صورة واحدة من صور اتصال النبي صلى الله عليه وسلم، بالعالم الروحاني العلوي، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾(280) .

ومحمد صلى الله عليه وسلم، ليس بدعا في ذلك من الرسل ولا أولهم، فالله سبحانه أوحى إليه كما أوحى إلى نوح عليه السلام، وغيره من الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

278 – أنظر: النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، ص 72 .

279 – المرجع السابق، ص 130 - 131

280 – سورة الشورى، الآية 51 .

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ (281) .

إن ما وصل إليه المستشرقون الفرنسيون خلال دراستهم للوحي بإرجاعه إلى عوامل اجتماعية ونفسية وأعراض مرضية، لا يمكننا الاعتماد عليه، مادام محركها الأساس هو نكران الوحي المحمدي أصلا .

ولقد تعامى هؤلاء عن حقيقة عظمى تتجلى في صمود القرآن الكريم – الممثل الحقيقي للوحي الرباني – أمام كل التحديات العلمية والنفسية والاجتماعية والسياسية، طيلة هذه القرون .

وإن هذا الصمود القوي والدائم لدليل كاف وبرهان مقنع على أن هذا القرآن الكريم ما كان ليصدر عن عقل بشري، هذا العقل الذي أثبتت التجارب ضعفه وتقلباته وانسياقه وراء الأهواء في أغلب الأحيان، بل لابد أن يكون صادرا عن عقل آخر هو أكبر العقول وأكملها وأسلمها من التقلبات، عقل مدبر حكيم، عليم بما كان وسيكون .

إن التجارب قد أظهرت على أن أي إنتاج أنتجه العقل البشري سواء عن طريق الإلهام أو الكشف أو التعلم، ومهما بلغ هذا العقل من القوة والذكاء، لا يسلم من الانتقادات والعيوب التي وجهت إليه في عصر إنتاجه أو في العصور التالية عليه .

---

281 – سورة النساء، الآية 163 .

الفصل الثاني: تصور المستشرقين الفرنسيين للغة القرآن الكريم

المبحث الأول: تعريف القرآن:

عرف المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير R. Blachère كلمة "قرآن" بما يلي:

«Dans les premières révélations inaugurant la prédication de Mahomet, figure déjà la racine verbale à laquelle appartient le substantif Qur'an, si défectueusement transcrit jusqu'au XVIIIe siècle sous les formes Alcoran, AlKoran, el Koran. Pour ne pas contrarier un usage qui tend à se généraliser en France, on adoptera l'orthographe Coran. Comme le mot Qur'ân se présente souvent dans des passages coraniques avec le sens de « récitation à voix haute», ce terme pourrait bien être un emprunt arabe au syriaque qui connaît un vocable tout proche ayant cette signification. En tout état de cause, pour Mahomet et les hommes de sa génération, ce substantif tout chargé au surplus d'une musicale sonoriste énonce fondamentalement l'idée de « communication orale», de «messages» reçu de la bouche d'un archange, de «prédication religieuse», c'est seulement vers la fin de l'apostolat de Mahomet , quand les révélations commencèrent à être fixées graphiquement , que le mot prit parfois le sens général d'Ecriture dans l'acception ou nous l'entendons, comme très souvent il alterne avec le vocable kitâb, qui signifie exactement «texte écrit, Livre», on a donné abusivement ce dernier sens au substantif qur'an».

"إن السور المنزلة الأولى التي افتتحت دعوة محمد، تشتمل على الأصل اللغوي لاسم " القرآن " الذي كتب بصورة خاطئة حتى القرن الثامن عشر إنه el Koran، AlKoran، Al coran، ولكن لا نخالف التقاليد السائدة في فرنسا وسوف نتبنى هذا الهجاء " قرآن" حيث أنه في بعض المقاطع القرآنية وردت كلمة "قرآن" بمعنى التلاوة ويمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية، التي يرد فيها لفظ مشابه جدا لهذا المعنى. أما

بالنسبة لمحمد وأبناء جيله، فإن كلمة قرآن فضلا عن كونها مزودة بجرس موسيقي، تعبر أساسا عن فكرة التبليغ بالقول، والتبشير الديني والرسالة التي أخذت عن ملاك. وفي وقت قريب من نهاية دعوة محمد فقط، عندما ابتدأ الكلام المنزل يثبت بالكتابة والتدوين، أمكن للكلمة " قرآن " أن تأخذ المعنى العام للكتاب المقدس، وفقا للمفهوم الذي نعرفه نحن. وحيث أن هذه الكلمة يعبر عنها أحيانا بلفظ كتاب، الذي يعني " نص مكتوب " فقد أعطى هذا المعنى الأخير لكلمة قرآن"[282].

ويعرف هنري ماسيه **H. Massé** لفظة " قرآن " بقوله:

«Le Coran est la bible de l'Islam. Que signifie le « Coran » ? les savants musulmans en ont discuté la prononciation , l'origine et le sens: Coran dérive de la racine arabe quara'a , « Lire » ou plus fréquemment « réciter , déclamer », en d'autres termes: La révélation que Mahomet recevait d'Allah et qu'il exprimait ensuite. Le Livre sacré de l'Islam est parfois nommé Kitab (Livre, Bible) ou dhikr (avertissement)».

"القرآن هو توراة الإسلام فماذا تعني كلمة قرآن ؟ لقد تناقش العلماء المسلمون في لفظها وأصلها ومعناها: (قرآن) مشتقة من الجذر العربي " قرأ " والأكثر تواترا: " تلا، أنشد " وبعبارة أخرى فإنه الوحي الذي تلقاه محمد من الله ثم أوضحه. وكتاب الإسلام المقدس يسمى أحيانا "الكتاب" أو "الذكر" (التحذير)"[283].

نقف في هذين التعريفين على ثلاثة آراء رئيسة تشكل روح هذين النصين ومضمونهما الأساس:

أولها: إن المعنى اللغوي لكلمة " قرآن " هو التلاوة على أن تكون هذه التلاوة بصوت مرتفع "**Récitation à voix haute**"، كما جاء عن بلاشير، وإني لأستغرب كيف أسقط **رضا سعادة** هذه العبارة

282 - Le Coran , « Que sais- je ? » , p. 15 - 16

283 – L' Islam , p. 71 .

في ترجمته لهذا النص، واكتفى بالقول .. ووردت كلمة " **قرآن** " بمعنى التلاوة[284].

ولقد رأى **بلاشير** أن المعنى اللغوي لكلمة " **قرآن** " حددته بعض المقاطع القرآنية التي وردت في السور الأولى التي نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولم يعين هذه الآيات ولا حتى السور .

ثانيها: قول **بلاشير** أن كلمة " **قرآن** " مأخوذة عن اللغة السريانية.

ثالثها: وهو تابع للرأي الثاني لكن الجديد فيه أن **بلاشير** علق مسألة تدوين القرآن وكتابته على مسألة أخرى تتعلق بتسمية القرآن بالكتاب .

الـــــرد:

<u>الرأي الأول:</u>

ذكر **بلاشير** أن السور الأولى التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم، تشتمل على الأصل اللغوي لكلمة " **قرأ** "، ولم يعين هذه الآيات ولا حتى أسماء السور التي تحمل هذا الأصل اللغوي. ولعله قصد بكلامه ذلك سورة العلق، فهي التي ينطبق عليها كلام **بلاشير**، لماذا؟

لأنها أول السور نزولا على **محمد** صلى الله عليه وسلم، كما أنها هي التي وردت فيها الآية التي تحمل الأصل اللغوي لكلمة " **قرآن** "، ففي سورة العلق يقول الحق عز وجل: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾[285].

أي اقرأ **"ما أنزل إليك من القرآن مفتتحا باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة. فمحل الباء من " باسم ربك " النصب على الحال. وقيل الباء بمعنى على، أي اقرأ على اسم ربك. يقال: فعلى كذا باسم**

---

284 – القرآن لبلاشير، ص 23 .

285 – سورة العلق، الآية 1 .

الله، وعلى اسم الله وعلى هذا فالمقروء محذوف أي اقرأ القرآن وافتتحه باسم الله"[286] .

وهو نفس قول **الفخر الرازي**: **" (اقرأ) أي اقرأ القرآن، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه"**[287] .

وعلى هذا يكون ما ذهب إليه كل من **بلاشير وماسيه**، موافقا لما جاء عن هذين المفسرين، خصوصا إن قصد **بلاشير** هذه الآية بالتحديد فجميع الأوصاف تنطبق عليها. ذلك أن فعل **" قرأ "** و **"تلا"** في اللغة العربية يحملان نفس المعنى، يقول **أبو البقاء**: **" قال بعض الفضلاء: القرآن في الأصل مصدر (قرأت الشيء قرآنا) بمعنى جمعته، أو قرأت الكتاب قراءة أو قرآنا بمعنى تلوته. ثم نقله العرف إلى المجموع المخصوص والمتلو المخصوص: وهو كتاب الله المنزل على محمد، ونقله أهل الأصول إلى القدر المشترك بين الكل والجزء. ثم نقله أهل الكلام إلى المدلول المقروء، وهو الكلام الأزلي القائم بذاته المنافي للسكون والآفة"**[288] .

نستفيد من هذا، أن كلمة **" قرآن "** مصدر مشتق من فعل **" قرأ"** وأن هذا الفعل إن قصد به قراءة كتاب يعني التلاوة. وعلى هذا يكون معنى القرآن في الأصل اللغوي هو التلاوة، لكن علماء اللغة العربية مثل **أبو البقاء**[289] **والفيروز أبادي**[290] **وابن منظور**[291] في تعريفهم لم يقيدوا القراءة أو التلاوة بشرط، كأن تكون بصوت مرتفع كما ذكر **بلاشير**، كما أنهم لم يبينوا ما إذا كان الأصل اللغوي لكلمة **" قرآن "** قد ذكر في السور الأولى التي نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم، أم لا. وإنما اتفقوا على أن القرآن في معناه اللغوي

---

286 – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج 2 ص 119 .

287 – التفسير الكبير، ج 32 ص 13 .

288 – الكليات، مادة القرآن، ص 34 .

289 – نفس المصدر، ونفس المكان .

290 – أنظر: القاموس المحيط، مادة قرآن، ج 1 ص 24 .

291 – أنظر: لسان العرب، مادة قرأ، م. الخامس، ص 3563 .

مشتق من فعل " قرأ " الذي يعني التلاوة. وهو نفسه ما ذهب إليه بعض المستشرقين الفرنسيين كماصون D. Masson التي تقول:

«Le mot Qur'an (Coran) dérive du Verbe Q-r'a signifie «Lecture» ou «récitation» ». "

إن كلمة "قرآن" مشتقة من فعل "قرأ" والتي تعني "القراءة" أو "التلاوة"[292].

وحين نبحث عن المصادر التي استند إليها **بلاشير** في وضع هذا التعريف لا نعثر على شيء، وهذه آفة علمية لا يعذر فيها كاتب كبير مثل **بلاشير** .

الرأي الثاني :

يقول **Pearson:**

«La plupart des savants occidentaux admettent aujourd'hui l'opinion de F.Schawally et d'autres selon laquelle «ce terme» vient du syriaque ker Lecture des Ecritures, leçon » ».

"جل علماء الغرب اليوم يتبنون فكرة شوالي، في ما يتعلق بلفظة القرآن، على أنها مأخوذة عن السريانية"[293].

غير أن رأي **بلاشير** هذا لم يصل إلى حد اليقين، فهو يفترض أن تكون هذه الكلمة مأخوذة من اللغة السريانية، ويتضح ذلك من قوله:

«Ce terme pourrait bien-être un emprunt arabe au syriaque».

"يمكن أن تكون هذه الكلمة مأخوذة عن اللغة السريانية[294].

وكأن المصدر الذي استقوا منه هذه الفكرة واحد، من غير تحر ولا ترو، وعلى هذا يكون ما قاله **Pearson** على درجة كبيرة من الصحة، حيث لا يستبعد أن يكون **بلاشير** قد أخذ هذه الفكرة عن **شوالي** .

---

292 - Le Coran , p. XLI .
293 - Encyclopédie de L'Islm , Tome V , p. 401 .
294 - Le Coran « Que sais-je » , p. 15 .

وليست كلمة " قرآن " وحدها التي ادعى **بلاشير** بأنها مأخوذة عن السريانية، ولكن هناك كلمات أخرى ذات أصل عربي ادعى أنها غير عربية مثل: كتب، وسطر، ونصب، يقول **بلاشير**:

«Les verbes kataba « écrire » satara «aligner» , «tracer des lignes» nasaba «gratter» se réfèrent aussi à des correspondants hebraiques ou syriaques».

"إن الأفعال كتب، سطر، نصب، ترجع إلى العبرية والسريانية"[295].

إننا لا نمانع أن تكون للفظة " **قرآن** " مشابه في اللغة السريانية، كما أننا لا نمانع أن يكون لها نفس الاشتقاق ونفس المعنى، لكن هذا لا يعني أن اللفظة في حد ذاتها مأخوذة عن اللغة السريانية، فالتشابه قد يحدث، يقول الإمام الشافعي: **" لا ننكر إذا كان اللفظ قيل تعلما أو نطق به موضوعا: أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلا من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها، مع تنائي ديارها، واختلاف لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه منها"**[296].

وعلى فرض أن لفظة " **قرآن** " مأخوذة عن السريانية، ألا يكفي أنها تعربت ثم لفظت بها العرب بألسنتها، فصارت عربية بتعريب العرب إياها. خصوصا وأن علماء النحو جعلوا الأسماء المعربة على ضربين:

الضرب الأول: لايعتد بعجمته، وهو ما أدخل عليه لام التعريف، نحو **"الديباج"** و **"الديوان"** ...

الضرب الثاني: ما يعتد بعجمته، وهو ما لم يدخل عليه لام التعريف ك**"موسى"** و**"عيسى"** ...[297].

---

[295] - Introduction au Coran , p. 5 .

[296] - الرسالة، ج 1 ص 44 - 45

[297] - أنظر: المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم لأبي منصور الجواليقي، ص 5 .

وعلى هذا، يمكن إن صحت هذه الفرضية طبعا، أن ندرج كلمة "قرآن" ضمن الضرب الأول لدخول لام التعريف عليها، ومن ثم فهي من الأسماء التي لا يعتد بعجمتها .

في الجانب الآخر نفى ابن فارس أن يكون في كتاب الله شيء بغير لغة العرب، وقال: **"فأما قولنا: إنه ليس في كتاب الله تبارك وتعالى شيء بغير لغة العرب، فقوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[298]"**[299] .

وقال أبو عبيدة: **" إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول"**[300] .

ثم قال: **"وقد يوافق اللفظ اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد، وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها"**[301] .

كما أنكر **القاضي عياض** أن يكون في القرآن لفظ عربي مستدلا بقوله تعالى: ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[302]، وقال: **"أقوى الأدلة قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾[303] ولو كان فيه لغة العجم لما كان عربيا محضا بل عربيا وعجميا، ولاتخذ العرب ذلك حجة وقالوا نحن لا نعجز عن العربية، أما العجمية فنعجز عنها"**[304].

أما **السيوطي** فقد اختار ما أخرجه ابن جرير بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل، قال: **" في القرآن من كل لسان. وروى مثله عن سعيد بن جبير ووهب بن منبه. ثم قال: فهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه**

---

298 – سورة الزخرف، من الآية 3 .

299 – الصاحبي، ص 42 .

300 – نفس المصدر، ونفس المكان .

301 – نفس المصدر، ونفس المكان .

302 – سورة النحل، من الآية 103 .

303 – سورة فصلت، من الآية 44 .

304 – أنظر: المستصفى لأبي حامد الغزالي، ج 1 ص 105 – 106

الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والأخرين ونبأ كل شيء، فلا أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن ليتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب"[305].

ومعلوم أن لفظة " **قرآن** " بل مادة القراءة لم ترد في نص جاهلي، ولم تكن شائعة في ذلك الوقت شيوع غيرها من الكلمات الدينية كالحج والصوم والصلاة وإن كانت كلمة " **تقرأ** " قد وردت في بيت **عمرو بن كلثوم**، على رواية **أبي عبيدة**:

ذراعى عطيل أدماه بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا

(أي أنها لم تضم في رحمها شيئا)[306].

ولكن هبه صحيحا أن مادة القراءة لم ترد في نص جاهلي آخر، فهل يدل هذا دلالة قاطعة على عدم وجود الكلمة في اللغة ؟ إن الاعتماد على النص وحده في إثبات وجود كلمة أم لا لا ينبغي أن يكون كل شيء. فهناك وسائل أخرى غير النص، تستطيع أن تبين لنا وجود هذه الكلمة في اللغة من عدمه، منها الاشتقاق، وعلى هذا الأساس لا نستبعد أن تكون كلمة "**قرآن**" قد اشتقت من "**قراءة**" العربية الأصل. والدليل على ذلك أن كثيرا من آي القرآن تزدوج فيها كلمتي القرآن والقراءة، كقوله تعالى:﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾** ﴾[307]، وقوله:﴿ **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ** ﴾[308]، وقوله: ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ** ﴾[309]، إذا فإن كلمة القرآن مشتقة من القراءة.

---

305 – الإتقان في علوم القرآن، ج 2 ص 106

306 – نفس المصدر، ونفس المكان .

307 – سورة النحل، الآية 98 .

308 – سورة الإسراء، من الآية 106 .

309 – سورة الأعراف، من الآية 204 .

ومع ذلك، فقد وجدنا للفظة " **قرآن** " عدة اشتقاقات، استطاع **السيوطي** أن يستعرض في كتابه " **الإتقان** " مجموعة منها، سنكتفي هنا بذكر بعض منها للتمثيل لا للحصر .

يقول **الفراء: "إنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ويشابه بعضها بعضا، وهي قرائن".**

ويقول **قطرب: "إنما سمي قرآنا لأن القارئ يظهره، ويبينه من فيه والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه فيسميه قرآنا".**

ويقول **ابن عطية: "إن القرآن مصدر من قولك قرأ الرجل يقرأ قرآنا وقراءة"** .

ونفى **الشافعي** أن تكون لفظة القرآن مشتقة، وقال: **"إن القرآن (الكريم) اسم علم، غير مشتق خاص بكلام الله تعالى"** .

ورجح **السيوطي** من هذه الأقوال، قول **الشافعي**، قائلا: **"المختار عندي في هذه المسألة ما نص عليه الشافعي"**[310].

والذي يتبين من خلال هذا البحث أن لفظة " **قرآن** " لفظة عربية أصيلة مادة وصيغة، وأن جذرها الذي اشتقت منه هو " **القراءة** "، وهي أيضا لفظة عربية أصيلة دلت على ذلك كثير من الآيات القرآنية ذكرنا بعضها وأحجمنا عن ذكر البعض المتبقي مخافة التطويل .

فلا معنى إذا لما قاله المستشرق الفرنسي **بلاشير**، مادام كلامه لا يستند إلى دليل سواء من القرآن أو اللغة، وإنما هو افتراض تبناه عن **شوالي** من غير تمحيص، فهوى ذلك الافتراض أمام نصاعة الدليل وجلاء البرهان .

الرأي الثالث:

لقد ذكر **بلاشير** أن القرآن يسمى أيضا بالكتاب ومعناه النص المكتوب، وهذا صحيح، غير أن **بلاشير** تخبط بعد ذلك في ذكر مصدر عبارة " **الكتاب المقدس** "، وزعم أن هذه العبارة أخذت عندما كان الصحابة يكتبون الوحي .

---

310 - أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 1 ص 50 - 51

والصواب أن المصدر الحقيقي لتسمية القرآن بالكتاب هو الله سبحانه، ولا علاقة لهذه التسمية بكتابة الصحابة للقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ﴾(311)، وقوله: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝ ﴾(312)، وقوله: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ﴾(313)، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾(314).
فكما هو واضح من هذه الآيات الكريمات، فالله سبحانه هو الذي سمى وحيه الذي أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، الكتاب، وفي هذه التسمية إشارة إلى الترابط بين مضامينه، ووحدتها في الهدف والاتجاه بالنحو الذي يجعل منها كتابا واحدا، ومن ناحية أخرى يشير هذا الاسم إلى جمع الكلام الكريم في السطور، لأن الكتابة جمع للحروف ورسم للألفاظ، يقول الحق سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ ﴾(315)، كما سماه بأسماء أخرى منها القرآن وهو اسم لم يسبق أن أطلق على غيره من الكتب السماوية التي أنزلها على رسله، وهو أشهر أسمائه وأكثرها ورودا في آياته وأشهرها دورانا على ألسنة الناس .

و من أسمائه أيضا "**الفرقان**" ومادة هذا اللفظ تفيد معنى التفرقة، فكأن التسمية تشير إلى أن القرآن يفرق بين الحق والباطل باعتباره المقياس الإلهي للحقيقة في كل ما يتعرض له من موضوعات، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾(316).

ومن أسمائه كذلك "**الذكر** " وفي تسميته بهذا الاسم تأويلان:

311 - سورة البقرة، الآيتان 1 - 2
312 - سورة غافر، الآيتان 1 - 2
313 - سورة الأنبياء، من الآية 10 .
314 - سورة الواقعة، الآيات 77 - 80
315 - سورة الكهف، الآية 1 .
316 - سورة الفرقان، الآية 1 .

أحدهما: أنه ذكر من الله تعالى ذكر به عباده، وعرفهم فيه فرائضه وحدوده، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (317).

والثاني: أنه ذكر وشرف لمن آمن به، وصدق بما جاء فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (318) يعني إنه شرف له صلى الله عليه وسلم، ولقومه.

وهذه الأسماء: الكتاب والفرقان والذكر مذكورة في سائر الكتب السماوية السابقة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(319)، وفي موضع آخر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(320).

فعلى هذا يختص الاسم بالقرآن ولذلك اشتهر به، ولا يوجد في الكتاب العزيز إطلاقه على سائر الكتب.

إلا أن كلام الله يغلب على تسميته: القرآن والكتاب، يقول **محمد عبد الله دراز: "روعي في تسميته قرآنا لكونه متلوا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه .**

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

---

317 - سورة النحل، من الآية 44 .

318 - سورة الزخرف، من الآية 44 .

319 - سورة البقرة، الآية 53 .

320 - سورة الأنبياء، الآية 48 .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظا في حرز حريز، إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾[321] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند"[322] .

فالكلام الإلهي الكريم إذا له ميزة الكتابة والحفظ معا، ولم يكتف في صيانته وضمانه بالكتابة فقط، ولا الحفظ والقراءة فقط، لهذا كان كتابا وقرآنا

ووحي الله بأي اسم سميته: هو كلام الله تعالى، الذي أنزله بلفظه ومعناه على الرسول صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته، وإن كان **الآمدي** يرى أن أقرب تسمية لكلام الله تعالى هو " **القرآن المنزل** " وعلل ذلك بما يلي: " **فقولنا (القرآن) احتراز عن سائر الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل وغيرهما، فإنها وإن كانت كتب الله تعالى، فليست هي الكتاب المعهود لنا المحتج به في شرعنا على الأحكام الشرعية الذي نحن بصدد تعريفه، وفيه احتراز عن الكلام المنزل على النبي عليه السلام، مما ليس بمتلو .**

وقولنا (المنزل) احتراز عن كلام النفس، فإنه ليس بكتاب، بل الكتاب هو الكلام المعبر عن الكلام النفساني، ولذلك لم نقل هو الكلام القديم، ولم نقل هو المعجز لأن المعجز أعم من الكتاب، ولم نقل هو الكلام المعجز، لأنه يخرج منه الآية وبعض الآية مع أنها من الكتاب، وإن لم تكن معجزة"[323] .

---

321 - سورة الحجر، الآية 9 .

322 - النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز، ص 12 - 13 .

323 - الإحكام في أصول الأحكام، ج 1 ص 159 .

المبحث الثاني: الصورة الأدبية للقرآن الكريم:

في إطار السعي الحثيث والدؤوب نحو صرف القرآن الكريم عن مصدره الإلهي الحكيم، حاول بعض المستشرقين الفرنسيين عند تعرضهم للغة القرآن، أن يصوروها بصورة الأدب العادي، واجتهدوا في التنقيب عن مواطن التشابه والمماثلة بين لغة القرآن ولغة البشر، ورأوا أن لغة القرآن تشبه إلى حد بعيد لغة الشعر العربي القديم في إيقاعه ووزنه وقافيته، يقول المستشرق الفرنسي إدوارد مونتيه **E.Montet**:

«Il y a dans le Coran, quand à la forme littéraire, de la prose poétique rimée, et de la prose proprement dite (Sourates de Médine)».

"إن أسلوب القرآن أسلوب شعري مقفى، غير أن هذا الأسلوب الشعري ينحصر في السور المكية خصوصا القديمة جدا منها، دون السور المدنية"[324].

وتحدث بعد ذلك عن الفواصل القرآنية أو الجمل الأخيرة من الآيات –كما يسميها غالبية المستشرقين –ولاحظ أنها قصيرة ومنتهية بقافية حرة، يقول:

«Les rimes que l'on rencontre le plus souvent dans le Coran sont surtout în et oûn, puis îm, âd, âr etc; on trouve plus rarement â». "

إن القوافي التي نلقاها في أكثر الأحيان بالخصوص in و oûn ثم im ، âd، ar إلى آخره. ونادرا جدا ما نجد â"[325]، وتابع قوله ب:

«La rime consiste aussi en syllabes fermées, c'est-à-dire terminées par une consonne non vocalisée, précédée d'une voyelle brève: koum, houm, ar, it, our, etc. La rime en a bref est plus rare».

"أن القافية ترتكز على المقاطع اللفظية المغلقة، بمعنى أنها منتهية بحرف صامت غير منغم، مسبوق بحركة خفيفة Koum و ar, it, our,

---

324 - Mahomet et le Coran , p. 49-50 .

325 – Ibid , p. 50 .

houm إلى آخره. والقافية فيها خفيفة ونادرة جدا"[326]، ويختتم قوله ب:

«La strophe implique une division régulière. C'est un ensemble de vers en ordre déterminé, produisant par leur liaison et leur retour une impression agréable à l'oreille »

"أن المقطع الشعري يتبعه تقسيم منظم، فهو مجموعة أبيات في نظام محدد، تحدث بروابطها ورجوعها انطباعا لطيفا في الأذن"[327].

وهو نفس كلام المستشرق الفرنسي الكبير ريجي بلاشير R.Blachère الذي يقول :

«La valeur littéraire du message transmis par Mahomet aux Arabes s'est imposée incontinent comme le plus beau monument littéraire qu'on pût imaginer. Ce fait, joint à la vénération inspirée par cette nouvelle loi, ne doit jamais être perdu de vue quand on juge de la qualité esthétique du Coran. Celle-ci au surplus est sensible à l'auditeur, même non arabophone. A la faveur d'une récitation à haute voix, par la musicalité des agencements syllabiques, la riche tonalité des voyelles, l'emploi des chausules rimées ou assonancées, la langue coranique se révèle à nous comme de la poésie pure, au sens le plus fort du terme. Il n'est pas étonnant en conséquence que les Musulmans les plus stricts, les plus détachés du profane, n'aient pas hésité à voir dans leur livre sacré la plus haute expression des possibilités verbales de la langue arabe».

"إن لغة القرآن تظهر لنا بحق شبيهة بالشعر الأصيل، وذلك بفضل التلاوة والأحكام الموسيقية للمقاطع اللفظية، وبغنى النغم في الحركات، واستعمال القوافي المنظومة أو المسجعة. فلا غرو إن لم يتردد أشد

326 - Ibid , p. 51 .
327 - Ibid.

المسلمين تدينا وأكثرهم انفصالا عن الدنيويات، في أن يروا في كتابهم المقدس أسمى عبارة عما في اللغة العربية من الإمكانات الصوتية"[328].

وإذا كان بلاشير يرى هنا أن لغة القرآن تشبه لغة الشعر العربي الأصيل في إيقاعه وحركاته وسجعه وقافيته، فإنه في موضع آخر يرى:

«Le style de ses discours rappelait étrangement les vaticinations de devins, les divagations des poètes, les propos de sorciers ».

"أن أسلوب خطابات القرآن يذكرنا بغرابة تنبؤات المنجمين Les vaticinations de devins، وهذر الشعراء Les divagations des poètes وقول السحرة Les paroles de sorciers"[329].

ويقول هنري ماسيه H.Massé :

« Ce style n'est pas sans analogie avec le sadj, cette sorte de prose où les mots rimant ensemble reviennent à intervalles réguliers: forme de rhétorique qui précéda très probablement la poésie régulière. Analogie seulement apparente, car le véritable sadj une précision rythmique et harmonique qu'on ne rencontre pas dans le Coran. Or ce sadj qui, métamorphosé, reparaîtra plus tard dans la littérature arabe, était primitivement la forme de langage employée par les kâhin païens».

إن هذا النسق الإنشائي، لا يخلو من مشابهة مع السجع ذلك النوع من النثر حيث الكلمات بمجموعها تعود في مسافات منتظمة. وهو شكل من أشكال البيان سبق الشعر المنتظم. إنها مشابهة في الظاهر فقط لأن السجع الحقيقي يتطلب وضوحا وموقعا متناسقا لا نجده في القرآن. وهذا السجع الذي تغير كثيرا، والذي سيعود فيما بعد إلى الظهور في الأدب العربي، كان في الأساس هو شكل اللغة التي يستعملها الكهان الوثنيون"[330]. وخلص في النهاية إلى هذه النتيجة:

---

328 - Le Coran « Que sais – je » , p. 71-72

329 - le problème de Mahomet, p.49.

330 - L'Islam , p. 75 - 76

«Il faut avouer que les adversaires de Mahomet avaient quelques raisons de le considérer comme un kâhin, ou plutôt comme un poète (châ ir) ce qui revient à peu près au même , car le châ ir païen est inspiré , lui aussi , par un démon ».

"يجب الاعتراف أن خصوم محمد كان لهم بعض الحق في اعتباره كاهنا أو شاعرا، الأمر الذي يعود تقريبا إلى الشيء نفسه لأن الشاعر الوثني يلهمه الشيطان هو الآخر"[331].

ونفس الرأي نجده عند هنري لامينز H.Lammen، إذ يقول :

« Chaque verset terminé par des assonances, tenant lieu de rime. Cette rime d'un genre spécial, appelé Sadj, était déjà en usage dans les oracles rendus par les kâhin de la gentilité sarrasine. Elle est beaucoup plus libre que celle tolérée dans les mètres prosodiques ».

"إن كل آية تنتهي بسجع assonance يقوم مقام القافية rime، هذه القافية من جنس خاص تسمى السجع، كانت تستعمل في السابق عند الكهان من الوثنيين العرب، وتستعمل بحرية أكثر وتسامح في البحور العروضية Les mètres prosodiques"[332] ويرى G.H.Bousquet :

«Le Coran est essentiellement un reflet de l'activité prophétique de l'Envoyé de Dieu. On y trouve donc les matières les plus différentes. Les parties les plus anciennes et les plus courtes sont animées d'un souffle poétique puissant dont on ne saurait nier la grandeur; mais il est difficile de les goûter pleinement en traduction ».

"أن الأجزاء القديمة جدا والقصيرة جدا حية بإلهام شعري souffle poétique مؤثر لا يمكن إنكار سموه، لكن من الصعب أن نتذوقه تماما عند الترجمة، لأن القرآن مسجع"[333].

---

331 - Ibid , p. 76 .

332 - L'Islam croyances et institutions, p. 52.

333 – M. Kasimirski, Coran, Tome premier, Introduction et notes de G.H. Bousquet, p.20 .

وفي مقابل هذه الآراء، نجد آراء أخرى لمستشرقين معتدلين في تفكيرهم وموضوعيين في كلامهم، حيث رأوا أن لغة القرآن تسمو عن لغة الشعراء ولغة الكهان والمنجمين، ويظهر ذلك جليا في موسوعة الإسلام، حيث جاء فيها:

«On dit souvent que tout le kur'an est en Sadj, dans ce mode d'expression rythmée et rimé du devin (kâhin q.v) qui, comme le kur'an, ne comprend ni mètre fixe ni rime à proprement parler et se distingue par conséquent à la fois de la prose et de la poésie ».

"يقال دائما إن جميع القرآن مسجع بنفس طريقة التعبير الإيقاعي expression rythmée والمقفى للكهان، وبما أن القرآن لايعرف حدا معينا أو إيقاعا، بحصر المعنى، ومن ثم يتميز عن النثر La prose وعن الشعر La poésie"[334].

وجاء في **الموسوعة العامة لاروس Encyclopédie Larousse générale:**

«Le Coran possède, par ses assonances et ses images, souvent introduites de façon abrupte, une valeur poétique certaine, tout en se distinguant nettement de la prose profane contemporaine ou des prédictions heurtées attribuées aux devins de l'époque. Il apparaît du point de vuè littéraire comme une œuvre sans équivalent».

"يمتلك القرآن بإيقاعه وسجعه وصوره قيمة شعرية تفترق كلية عن النثر الجاهلي المعاصر La prose profane contemporaine والتنبوءات المتناثر المنسوبة لكهان العصر، ويظهر من الوجهة الأدبية عملا ليس له مثيل une œuvre sans équivalent"[335].

الـــرد:

نقرر بدءا أن لغة القرآن الكريم نموذج لا يبارى في الأدب العربي، عجزت فصاحة العرب وبلاغتهم عن محاكاتها، لما فطنوا لخروج لغة القرآن

---

334 - Encyclopédie de l'Islam, p 422.

335 – Encyclopédie générale larousse, 3eme Tome, p.550.

عن أوزان كلامهم وأساليب نظمهم، يقول **محمد عبد الله دراز**: " **نستطيع أن نقول: إنه يعتبر المثل الأعلى لما يمكن أن يسمى أدبا بوجه عام. إذ أن لغة القرآن تمتاز بالسمو والجلالة، لا بالغواية والتأثير، إنها تأخذ بالقلوب أكثر مما تغري الأسماع، إنها تثير الإعجاب لا المتعة إنها تفحم بالحجة أكثر مما تستثير العواطف وتجلب السرور الهادئ لا الصاخب**"[336].

ثم إن هناك حقيقة جوهرية يجب في اعتقادنا أن ننطلق منها في ردنا على آراء هؤلاء المستشرقين، وهي: وجود قسمين للكلام هما: النثر والشعر، وبالضرورة لابد لأي نص مكتوب أو مقروء في اللغة أن ينتمي إلى أحدهما، إلا أننا عند سماع القرآن الكريم أو قراءته نجد أنفسنا أمام جنس أدبي متفرد في أشكاله البلاغية وأدواته الفنية التصويرية، ولعل هذا ما جعل **الماوردي** يصنف الكلام – عموما- إلى ثلاثة أنوع -، حين قال: " **إن الكلام يترتب ثلاثة مراتب، منثور يدخل في قدرة الخلق، وشعر هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق، وقرآن هو أعلى من جميعها، وأفضل من سائرها، تجاوز رتبة النوعين لخروجه عن قدرة الفريقين**"[337].

وسنحاول التركيز قدر الإمكان على موضوع الشعر لنبين الفرق بينه وبين لغة القرآن الكريم، ونقول: إن الشعر في معناه العام هو ذلك: " **الكلام المنظوم، البائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق**"[338].

وعند **السجلماسي** أن " **الشعر هو الكلام المخيل المؤلف لأقوال موزونة متساوية وعند العرب مقفاة**"[339].

وحاصل الأمر، أن الشعر قول، وهو الجنس الذي يشترك فيه مع باقي الفنون القولية من خطبة، وهو مخيل، وهذا فصل له عما ليس بمخيل. يتكون

---

336 – مدخل إلى القرآن الكريم، ص 115.

337 – أعلام النبوة، ص 69.

338 – أنظر: عيار الشعر لابن طباطبا، ص 3، تحقيق وتعليق: د. طه الجابري ود. محمد زغلول سلام.

339 – المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص 218، تحقيق: علال الغازي.

من أقوال موزونة ومتساوية، وهذا فصل له عما ليس بموزون وغير متساو، ومقفى، وهذا فصل له عن الكلام غير المقفى، وهذه خاصية تفرد بها الشعر العربي.

يقول ابن طباطبا: **" إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول فيه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه، بل يغلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله..."**[340]

نستنتج من هذا القول أن القافية والوزن قيمتان مهيمنتان في الشعر العربي.

أما اللغة في الشعر فهي تصويرية تعتمد على الانحراف الأسلوبي.

فقوام الشعر: اللغة، ولكن هذه اللغة في غير استعمالها العادي والمألوف، وهو الذي يضفي صفة الشاعرية على اللغة، وهنا نطرح السؤال الآتي: **هل يمكن أن نحصل شعرا دون وزن؟** هذا ما لم يقل به أحد.

وهنا ندخل على قضية من أوسع المباحث النقدية التي هي دائرة الصدق والكذب في الشعر، وهي دائرة قديمة في الشعر العربي، أثيرت في زمن مبكر مع الدعوة الإسلامية عند نزول سورة الشعراء، وقد قيل فيها الكثير ولم يتوان أي ناقد في الإدلاء برأيه فيها، وقد ترتب عليها نتائج أخلاقية خطيرة في مهمة الشعر. وقد حاولوا أن يضفوا صفة إيجابية على الكذب، والذي قد ارتبط في عقل المجتمع الإسلامي بقيمة أخلاقية سلبية، فالإنسان المسلم أخوف ما يخاف أن يتهم في شخصيته أو في دينه، فكيف يصير المشين مستحبا إذن؟

فالثنائية – الصدق والكذب – تذوب وتتجاوز من قبل **التخييل**، والنظرة الأخلاقية للشعر أو الشاعر لم تعد صالحة، ذلك أن الالتفات إلى التخييل

340 – نفس المرجع، ص 5 .

والاعتراف بخصوصية اللغة الشعرية على أساس أن خصوصية الأثر الذي تحدثه من جهة أخرى قد جعل مقولة الصدق والكذب في الشعر غير مأبوه بها، بل وجدنا من النقاد من يرى أن التخييل ليس بابا من أبواب الكذب، بل هو مطلب فني يتعلق بنشاط خيالي، والأدب لا يجد سبيله إلى الظهور إلا بتلك المفارقة البارعة التي تقوم على التخييل والتمثيل اللغوي في آن واحد.

ورغم ذلك، فقضية الصدق والكذب في النقد العربي تحمل معها حساسيات كثيرة، والمجتمع العربي بحكم تدينه، يحمل الصدق والكذب حكما أخلاقيا، وتجاوز هذا المطلب يتعارض مع سلوك هذه الأمة المحافظة على أخلاقها وعقيدتها.

وقد نلج من قضية الصدق والكذب أو التخييل إلى قضية أخرى خاض فيها القدماء، هي قضية دواعي الشعر. فإذا رجعنا إلى كتاب **"الشعر والشعراء"** وجدنا **ابن قتيبة** يعرض لنا هذه الدواعي مستتبعا كلامه بأمثلة على لسان شعراء كبار مثل **الحطيئة**، يقول **ابن قتيبة**: **"وللشعراء دواع تحث البطيء، وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب.**

وقيل للحطيئة، أي الناس أشعر؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا طمع.

وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة لذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة.

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سهية: "هل تقول الآن شعرا؟ فقال: كيف أقول وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه""[341].

---

341 – الشعر والشعراء، ج1 ص 24–25، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر.

فهذه بعض من دواعي الشعر، ومن قبل تحدثنا عن حده وخصائصه ومقوماته، ولنا بعد هذا أن نبحث عن خصائص لغة القرآن ومقوماتها.

لقد وضع علماء الإسلام أيدينا على كثير من الخصائص التي تميز لغة القرآن عن سائر كلام البشر – شعرا أو نثرا -، ومن هذه الخصائص:

أولا: فصاحته وبيانه وذلك معتبر بثلاثة شروط: **أحدها**: بلاغة ألفاظه.

والثاني: استيفاء معانيه.

والثالث: حسن نظمه.

ثانيا: إيجازه عن الإكثار واستيفاء معانيه في قليل الكلام، كقوله تعالى: **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين﴾** [342].

ثالثا: إن ألفاظ القرآن قد تشتمل على الجزل المستغرب، والسهل المستقرب فلا يوعر جزله ولا يسترذل سهله، ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين ولا نجد ذلك في غيره من كلام البشر.

رابعا: إن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره:

أحدها: هشاشة مخرجه.

والثاني: بهجة رونقه.

والثالث: سلاسة نظمه.

والرابع: حسن قبوله.

والخامس: أن قارئه لا يكل وسامعه لا يمل.

خامسا: اقتران معانيه المتغايرة واقتران نظائرها في الصور المختلفة، فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد، ومن ترغيب إلى ترهيب،، ومن ماض إلى مستقبل، ومن قصص إلى مثل، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر.

---

342 – سورة هود، الآية 44.

سادسا: تيسره على جميع الألسنة حتى حفظه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يحفظ غيره من الكتب كحفظه ولا تجري به ألسنة البكم كجريها بها، وما ذاك إلا بخصائص إلهية فضله بها على سائر كتبه.

فهذه بعض الخصائص التي انفرد بها القرآن عن سائر كلام البشر سواء كان منثورا أو منظوما، وقد عجز العرب في عصر الفصاحة والبلاغة وهم " **أصح الناس أفهاما وأحدهم أذهانا، قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ومن المعاني أغربها، ومن الآداب أحسنها**"[343]، عن محاكاة لغة القرآن الكريم.

وعندما نتساءل عن عجز العرب وهم أرباب الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بشيء من مثل القرآن؟ يجيب محمود محمد شاكر بما يلي: إن العرب " **وجدوا في أنفسهم مفارقته لبيان البشر، وجدانا ألجأهم إلى ترك المعارضة إنصافا للبيان أن يجار على حقه، وتنويها له أن يزري به جورهم عن هذا الحق**"[344].

وبين أيدينا قصة تؤكد المفارقة بين لغة القرآن ولغة البشر، فقد ائتمر نفر من قريش حين حضور وفود العرب الموسم، أن يقولوا في الرسول قولا واحدا لا يختلفون فيه، وتشاوروا أن يقولوا: " **كاهن أو مجنون أو شاعر أو ساحر، ورأوا أن يعرضوا الأمر قبل نشره بين الناس على ذوي الرأي فيهم، وكان الوليد بن المغيرة يومها ذا سن فيهم ورأي، فقالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل: وأقم لنا رأيا نقل به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع، قالوا: نقول: كاهن، قال: لا، والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد**

---

343 - أنظر: أعلام النبوة، ص 57.

344 – راجع: تقديم محمود محمد شاكر لكتاب " **الظاهرة القرآنية**" لمالك بن نبي، ص 38.

رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجنات، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وأن أقرب القول فيه، لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك"[345].

الذي يهمنا من كلام **الوليد بن المغيرة**، هو قوله ما هو بشاعر، وهو قول يفيدنا جدا في الرد على المستشرقين في زعمهم أن لغة القرآن تشبه إلى حد بعيد لغة الشعر ولاسيما الشعر الجاهلي.

وللقاضي **الباقلاني** كلام طيب ينفي فيه الشعر عن القرآن الكريم، حيث يقول: **"إن الله تعالى نفى الشعر عن القرآن وعن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:** ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[346]، **وقال في ذم الشعراء:** ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾[347] **إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات، وقال:** ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾[348].

إن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعرا، ولم يروه خارجا عن أساليب كلامهم، لبذلوا إلى معارضته، لأن الشعر مسخر لهم مسهل عليهم"[349].

على العموم، القرآن جنسية لغوية فريدة ونوعية أدبية خاصة، أحدثت طفرة هامة في اللغة العربية، إذ نقلتها من المرحلة اللهجية الجاهلية إلى لغة منظمة فنيا[350].

---

345 – السيرة النبوية لابن هشام، ج 1 ص 283.

346– سورة يس، الآية 69.

347– سورة الشعراء، الآيتان 224-225.

348- سورة الحاقة، من الآية 41.

349– إعجاز القرآن، ص 51. تحقيق: السيد أحمد صقر.

350– أنظر: مقدمة كتاب " **الظاهرة القرآنية**" لمالك بن نبي، ص 184.

أما قول المستشرقين إن لغة القرآن الكريم مشابهة للغة الكهان والمنجمين وأسلوبهم، فهذا ما لم يقبله حتى صناديد قريش، مع أنهم كانوا أحرص الناس على الطعن في القرآن الكريم، ولعل قول **الوليد ابن المغيرة** – الآنف الذكر- خير شاهد على ذلك، إذ رفض – بكل حزم- أن تكون لغة القرآن على شاكلة أسلوب الكهان وسجعهم، وقال :" **لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه**"[351] .

وهذا نموذج من أسلوب الكهان وسجعهم، فقد روي أن **سطيح الغساني**[352]، "**كان نائما في ليلة صهاكية مظلمة مع إخوته في لحاف، والحي خلوف، إذ زعق من بينهم، ورن وتأوه، وقال: والضياء والشفق، والظلام والغسق، ليطرقنكم ما طرق. قالوا: ما طرق يا سطيح؟**

قالوا: ما طرق إلا الأجلح، حين سرى الليل البهيم الأفلح، وولاهم بسردح. قالوا: وما علاقة ذلك يا سطيح؟

قال: أمر يسد النقرة، ذو حبسة في الوجرة، وحرة بعد حرة في ليلة قرة"[353].

إن أي باحث منصف يتدبر آيات القرآن يستطيع التمييز بين أسلوب هذا الكاهن ولغة القرآن الكريم. لذلك كان حرص العرب على وصف لغة القرآن بأنها شعر أكثر من حرصهم على وصفها بأنها لغة الكهان والمنجمين، ويؤكد هذا – أيضا- أن الآيات التي نفت الشعر عن القرآن أكثر من الآيات التي نفت عنه أسلوب الكهان وسجعهم، يقول تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾

351– السيرة النبوية، ج 1 ص 283.

352– **"قالوا: إن سطيحا لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وإن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق، ولعله كان أحدب "**، أنظر: كتاب " **الفن ومذاهبه في النثر العربي** " للدكتور شوقي ضيف، ص 39 .

353– أنظر: مروج الذهب للمسعودي، م ص 495-496.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾(354).

وقد توصل إلى هذه الحقيقة الناصعة بعض المستشرقين المنصفين وعبروا عنها بكل صراحة ووضوح، من ضمنهم المستشرقة الإيطالية **لورافيشيا فاغليري** عندما قالت: **" ليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي الذي تحدر إلينا من العصور التي سبقته، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي، إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة عندما تعالج موضوعات لابد أن تؤثر في نفسها وجرسها،كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها"**(355)

وهكذا تتهاوى شبه المستشرقين الباطلة، وآراؤهم المزعومة، أمام شرعة الحق وقوة البيان ونصاعة البرهان، وسيظل القرآن إلى الأبد كلام الله الحق الذي لا مرية فيه، وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه: ﴿ الٓر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾(356) وسيظل التحدي قائما إلى أن يقوم الناس لرب العالمين، مصداقا لقوله سبحانه: **﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾** (357).

354– سورة الطور، الآيات 29-34.

355– دفاع عن الإسلام، ص 56 .

356– سورة هــود، الآية 1.

357– سورة الإسراء، الآية 88.

المبحث الثالث: فواتح السور

من بين الموضوعات القرآنية التي أثارت فضول المستشرقين الفرنسيين، وأخذت بلب فكرهم، ودفعتهم إلى البحث والاجتهاد في كشف أسراره، موضوع **الحروف المقطعة في أوائل السور**، **"ولكنهم لم يأتوا برأي يكون له قيمة في نظر العلم والتاريخ"**[358].

ومن بين الذين افتتنوا بهذا الموضوع **هنري ماسيه**، الذي قال: **"هناك تسع وعشرون سورة تنتهي كلها تقريبا إلى العصر الذي سبق الهجرة مباشرة، وتبدأ بحروف مفردة لا تزال تحير مفسري القرآن من المسلمين وغيرهم. فالعلماء المسلمون بعد أن بحثوا لها عن إيجازات وجدوا فيها لغزا لا يعرفه إلا الله وحده. وعاد بعض المستشرقين إلى فكرة الإيجازات هذه. وأراد آخرون أن يجدوا فيها الحروف الأولى لأسماء المالكين الأول للنسخ التي كتبها زيد"**[359].

وذهب **G.H.Bousquet** إلى أن:

«Un certain nombre de sourates commencent par des lettres, des signes mystérieux.

Les autres musulmans, et après eux les européens, se sont donné beaucoup de mal pour expliquer ce fait, mais en vain et la question n'a jamais été résolue. Elle ne le sera sana doute jamais.

"بعض السور القرآنية تبدأ بأحرف وعلامات غريبة، لقد أجهد المؤلفون المسلمون والأوربيون من بعدهم، أنفسهم لتفسير هذه الواقعة، لكن من غير جدوى، وظل السؤال بدون حل، وسيظل كذلك"[360].

358 - أنظر: تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني، ص 74 .

359 - L'Islam , p. 80 .

360 - M. Kasimirski , Coran , Tome premier , Introduction Notes de G.H.Bousquet , p. 21 .

الـــــرد:

فعلا، في القرآن الكريم، تسع وعشرون سورة تستهل بحروف يطلق عليها عادة اسم " **حروف التهجي** "، وهي غاية في الإبهام، وجميع هذه الحروف الواردة في فواتح السور من غير تكرار أربعة عشر حرفا، وهي نصف الحروف الهجائية. وفيما يلي جدول إحصائي للسور التي وردت فيها هذه الحروف :

ألم: البقرة – آل عمران – العنكبوت – الروم – لقمان – السجدة .

ألر: يونس – هود – يوسف – إبراهيم – الحجر .

ألمر: الرعد .

ألمص: الأعراف .

كهيعص: مريم .

طه: طه .

طسم: الشعراء – القصص .

طس: النمل .

يس: يس .

ص: ص .

حم: غافر – فصلت – الزخرف – الدخان – الجاثية – الأحقاف.

حم عسق: الشورى .

ق: ق .

ن: القلم.

ولقد حاول بعض المفسرين أن يصلوا إلى سر هذه الحروف المبهمة المختلفة، يقول السيوطي: **" وقد تحصل لي فيها عشرون قولا وأزيد، ولا أعرف أحدا يحكم عليها بعلم، ولا يصل منها إلى فهم، والذي أقوله: إنه لولا أن العرب كانوا يعرفون أن لها مدلولا متداولا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك**

على النبي صلى الله عليه وسلم، بل تلا عليهم (حم) فصلت (ص) وغيرهما. فلم ينكر ذلك، بل صرحوا بالتسليم له في البلاغة والفصاحة، مع تشوقهم إلى عثرة وغيرها وحرصهم على زلة، فدل على أنه كان معروفا بينهم، لا إنكار فيه"[361] .

لكن مهما حاول بعض المفسرين أن يصلوا إلى سر هذه الحروف، وإلى الحكمة من وجودها في فواتح السور، فسيظل سرها غامضا، لأنها علم مستور استأثر الله به، وهذا ما جعل **السيوطي** يصنف هذه الحروف في إطار المتشابه من القرآن الذي لا يعلمه إلا الله في قول، والراسخون في العلم كذلك في قول آخر لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ ﴾[362] .

يقول أبوبكر بن العربي: " ومن الباطل علم الحروف المقطعة في أوائل السور"[363] .

والمختار عند **السيوطي** أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى، أخرج ابن المنذر وغيره، عن الشعبي، أنه سئل عن فواتح السور، فقال: **"إن لكل كتاب سرا وإن سر هذا القرآن فواتح السور"**[364] .

---

[361] - المصدر السابق، ج 3 ص 27

[362] - سورة آل عمران، الآية 7 .

[363] - أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 3 ص 27 .

[364] - نفس المصدر، ج 3 ص 21 .

المبحث الرابع: التكرار في القرآن الكريم

يقول J.D.Pearson:

« De nombreuses histoires sont répétées en différentes versions dans deux sourates ou davantage , et ces narrations multiples de la même histoire différent non seulement par la longueur et les détails , mais aussi par but et leur relation avec d'autres ».

" هناك العديد من القصص قد كررت بروايات مختلفة في سورتين أو أكثر، وأن الروايات المتعددة للقصة نفسها قد تختلف ليس فقط في الطول والتفاصيل، ولكن أيضا في أهدافها وعلاقاتها بالروايات الأخرى"(365) .

الـــرد:

لا يمكن أن ننكر على القرآن الكريم التكرار وليس هذا قدحا فيه أو طعنا عليه، ذلك أن التكرار الوارد في القرآن يعتبر من تصريف البيان وهو أبلغ من التأكيد وهو من محاسن الفصاحة، وله فوائد :

منها **التقرير**، وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر، وقد نبه القرآن الكريم إلى السبب الذي من أجله كررت الأقاصيص والإنذارات بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾(366) .

ومنها **التأكيد** .

ومنها زيادة **التنبيه على ما ينفي التهمة**، ليكمل تلقي الكلام بالقبول، والدليل قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾(367) .

---

365 - Al-Kur'an , Encyclopédie de L'Islam , Tome V , p. 423 .

366 - سورة طه، الآية 113 .

367 - سورة غافر، الآيتان 38 - 39

ومنها **إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيا تطرية له وتجديدا لعهده**، مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (368).

ومنها **التعظيم والتهويل**، نحو قوله عز وجل: ﴿ ٱلۡحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ﴾ (369)، ﴿ ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ﴾ (370) ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴾ (371).

ومنها **ما وقع فيه الفصل بين المكررين**، فإن التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده، نحو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (372).

ومنها **ما كان لتعدد المتعلق**، بأن يكون المكرر ثانيا متعلقا بغير ما تعلق به الأول، وهذا القسم يسمى بالترديد، يقول تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ ﴾ (373).

ومنها **تكرير حرف الإضراب** في قوله عز وجل: ﴿ بَلۡ قَالُوٓا أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ ﴾ (374).

ومنها **تكرير الأمثال** مثل قوله سبحانه: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ۝ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ ﴾ (375).

ومن ذلك **تكرير القصص** كقصة آدم وموسى ونوح وغيرهم من الأنبياء، وأما فوائد تكرارها في القرآن فكثيرة منها:

368 - سورة النحل، الآية 119 .

369 - سورة الحاقة، الآيتان 1 - 2

370 - سورة القارعة، الآيتان 1 - 2

371 - سورة الواقعة، الآية 27 .

372 - سورة الحشر، الآية 18 .

373 - سورة النور، من الآية 35 .

374 - سورة الأنبياء، من الآية 5 .

375 - سورة فاطر، من الآيات 19 - 22

أولا: أن في كل وضع زيادة شيء لم يذكر في الذي قبله، أو إبدال كلمة بأخرى لنكتة، وهذه عادة البلغاء .

ثانيا: إن الرجل كان يسمع القصة من القرآن، ثم يعود إلى أهله، ثم يهاجر بعده آخرون يحكون ما نزل بعد صدور من تقدمهم، فلولا تكرار القصص لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم آخرين، وكذا سائر القصص، فأراد الله اشتراك الجميع فيها، فيكون فيه إفادة لقوم وزيادة تأكيد لآخرين .

ثالثا: إن في إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة ما لا يخفى من الفصاحة.

رابعا: إن الدواعي لا تتوفر على نقلها كتوفرها على نقل الأحكام، فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

خامسا: إنه تعالى أنزل هذا القرآن وعجز القوم عن الإتيان بمثله، بأي نظم جاءوا ثم أوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله .

سادسا: إنه لما تحداهم قال: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾[376] فلو ذكرت القصة في موضع واحد واكتفى بها لقال العربي: إيتونا أنتم بسورة من مثله، فأنزل لها سبحانه وتعالى في تعداد السور دفعا لحجتهم من كل وجه .

سابعا: إن القصة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى، فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في سور متباينة في النظم وجذب النفوس إلى سماعها لما جبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها بها، وإظهار خاصة

---

[376] - سورة البقرة، من الآية 23 .

القرآن حيث لم يحصل مع التكرير ذلك فيه هجنة في اللفظ ولا ملل عند سماعه، فباين ذلك كلام المخلوقين[377] .

ثامنا: اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معاني أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال[378] .

تاسعا: إن التكرار لا يتناول جسم القصة بكاملها أو لا يعيد سياقها برمتها، وإنما يأتي فقط على ذكر بعض حلقاتها وفقا للمناسبة والظرف، وبطريقة تبدو معها تلك الحلقات وكأنها الأعمدة الأساسية للسياق، فهي تنطبق عليه تماما، وتلتحم بتعابيره ومعانيه، حتى تدل على الغرض منه وتوحي بما يريد الإيحاء، يقع ذلك بغير إخلال بالأداء أو نقص في المغزى[379] .

عاشرا: إن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقررا في عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة يتضح حين تقرأ بحسب ترتيب نزولها، فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا، ثم تعرض حلقات كبيرة تكون في مجموعها جسم القصة، وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها كانت هذه الإشارات هي كل ما يعرض منها[380]، والأمثلة على ذلك كثيرة، نأخذ منها، قصة **موسى** عليه السلام، التي وردت في حوالي ثلاثين موضعا في القرآن الكريم، أهمها ما ذكر في عشرين سورة نذكرها هنا بحسب ترتيب نزولها: سورة **الأعلى** و**الفجر** و**الأعراف** و **الفرقان** و**مريم** و**طه** و**الشعراء** و**النمل** و**القصص**

---

377 – أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 3 ص 204 – 205

378 – أنظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان، ص 308 .

379 – أنظر: قصص الأنبياء في القرآن الكريم لسميح عاطف الزين، ص 473 .

380 – أنظر: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية لمحمود السيد حسن مصطفى، ص 122 .

والإسراء ويونس وهود وغافر وفصلت والداريات والكهف وإبراهيم والأنبياء والنساء والمائدة .

وإذا ما قرأنا الآيات التي تناولت قصة **موسى** عليه السلام، التي وردت في هذه السور وجدنا أن الحلقات الأساسية لم تكرر تقريبا، وإذا كررت أي حلقة منها أتت بشيء جديد.

وفي ضوء هذه المعطيات ندرك أن ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق، وحاصل القول أن تكرار القصة جاء في إطار ملامح عامة:

الأول: لم تكرر قصة في موضعين أو أكثر على نمط واحد فقط.

الثاني: يتراوح تكرار القصة القرآنية بين الطول والقصر.

الثالث: كل سورة ترد عليها القصة المكررة تحمل جديدا في الصياغة والمعنى لم يرد في غيرها.

الرابع: كل نمط من أنماط التكرار مناسب للمقام الذي ورد فيه.

الخامس: إن التكرار الذي يحدث في بعض مشاهد القصة القرآنية، يؤدي وظيفة حيوية في إبراز جوانب لا يمكن إبرازها بأدائها على وجه واحد من وجوه التعبير .

السادس: إن الحقيقة التي يمكن أن نستقر عليها في النهاية، هي أن القرآن كامل متكامل في جميع نواحيه، لا اضطراب في مبانيه ومعانيه، وصدق الله الذي يقول: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾[381] .

[381] . - سورة البقرة، الآية 2

الفصل الثالث: آراء المستشرقين الفرنسيين في توثيق النص القرآني

يراد بعبارة " **توثيق النص القرآني** " هنا معنيان:

المعنى الأول: حفظ القرآن.

المعنى الثاني: كتابة القرآن.

ولهذين المعنيين في عملية توثيق النص القرآني، ارتباط شديد.

وقبل أن نتكلم عن حفظ القرآن وكتابته، نرى من المفيد جدا أن نقف أولا عند مسألة هامة ودقيقة أثار المستشرقون حولها كثيرا من اللغط، تلك هي مسألة ترتيب سور القرآن الكريم.

المبحث الأول: آراء المستشرقين الفرنسيين في ترتيب سور القرآن الكريم:

لقد جرى بين ألسنة المستشرقين، منذ القرن الماضي، تعبير " **الترتيب الزمني للقرآن** " وقامت الدراسات الاستشراقية على مدارسة هذا الموضوع حتى اعتبر مجالا خاصا للمستشرقين، يقول:

J.D.Pearson: «A l'époque moderne, l'étude de la chronologie du kur'an est un domaine presque exclusivement reservé aux orientalistes qui ne sont cependant point parvenus à se mettre d'accord sur un système de datation ou même sur la possibilité d'en élaborer un».

تعد دراسة الترتيب الزمني للقرآن، في العصر الحاضر، حقلا محفوظا إلى حد بعيد للمستشرقين، ومع ذلك لم يتوصلوا إلى اتفاق حول نظام تاريخي للقرآن"(382) .

382 - Ibid , Tome V , p. 416 .

هذا، ويعود تاريخ اهتمام المستشرقين بهذا الموضوع بالتحديد إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، حيث عكف بعض المستشرقين على تطبيق مناهج نقدية في دراساتهم للقرآن الكريم، واقترحوا نظريات تاريخية عديدة، جاء في كتاب " Islamologie":

«Dès le milieu du XIXe / XIIIe les orientalistes européens commencèrent à chercher une solution à ces difficultés en se servant de méthodes nouvelles».

"منذ أواسط القرن التاسع عشر بدأ المستشرقون الأوربيون يبحثون عن حل لهذه الصعوبات، مستعينين بطرق جديدة"[383].

وقد استطاعت هذه الدراسات أن تحرز نجاحا واسعا وتقدما كبيرا بواسطة ما يمكن تسميته ب " **مدرسة المراحل الأربعة** L'école des quatres périodes " التي وضع أساسها G.Weil في كتابه " **مدخل تأريخي نقدي إلى القرآن** " والذي خمن فيه – كما يقول J.D.Pearson – :

«la datation et présenté son propre ordre chronologique en mettant en œuvre trois critères ».

"تاريخ القرآن وقدم ترتيبه الزمني الخاص، مستخدما ثلاثة معايير"[384].

« les uns sont à prédominance stylistique et tiennent compte avant tout de l'allure brève ou étirée des versets; Les autres concernent les circonstances qui ont provoqué ou fixé des attitudes de Mahomet devant ses opposants; d'autres enfin font surtout état de textes organiques destinés à structurer une communauté réclament une définition des rites des interdictions alimentaires, du droit privé, des rapports avec les païens, les chrétiens ou les juifs» [385].

الأول: ذو طابع أسلوبي ويهتم قبل كل شيء بمظهر الآيات من حيث الإيجاز والإسهاب .

383 - Islamologie , p. 600 .
384 - Ibid , p. 418 .
385 - R. Blachère , Le Coran , « que sais – je » , p. 18 .

الثاني: يتعلق بالأوضاع الخاصة التي حددت مواقف محمد من معارضيه، أو أدت به إلى اتخاذها .

الثالث: يهتم خاصة بالنصوص العضوية، التي تكون مجموعة يلتمس منها تحديد الشعائر، والمحرمات الغذائية والحقل الخاص، والعلاقات مع الوثنيين والمسيحيين واليهود[386].

هذا، وقد تبنى المستشرق الألماني **نولدكه**، نفس النظام التاريخي لترتيب **Weil**، وأضاف عليه بعض التعديلات الطفيفة خصوصا في ترتيب السور .

يرى **أبو عبد الله الزنجاني: " أن نولدكه اعتمد في ذلك على كتاب (نظم الدرر وتناسق الآيات والسور) لمؤلفه إبراهيم بن عمر البقاعي، وعلى كتاب (الفهرست) لابن النديم، وكتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي "**[387].

وقد ظهر ذلك جليا في كتابه " **تاريخ القرآن** " الذي عالج فيه، بصفة خاصة مشكلة ترتيب سور القرآن بالرجوع إلى مضمون وأسلوب القرآن الكريم، كما وضح بدراسات مدققة لائحة تاريخية للسور، نذكر منها على سبيل المثال تنظيمه التاريخي لحقبة مكة، حيث رتب سور الزمن الأول لهذه الحقبة على النحو التالي:

105 102 107 104 108 106 111 74 96

68 80 91 86 97 94 94 90 92

81 82 99 101 73 85 103 95 87

89 88 78 77 79 100 84 53

55 70 56 52 51 69 83 75

1 114 113 109 112

---

386 – القرآن نزله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لريجي بلاشير، ص 26 – 27، نقله إلى العربية رضا سعادة .

387 – المرجع السابق، ص 27 .

في المجموع 48 سورة ب 1219 آية، تمثل 19 % من مجموع سور القرآن .

ثم تحدث نولدكه عن كل مرحلة من مراحل القرآن الأربعة حسب تقسيمه المفتعل لسور القرآن، وقال:

«- La première époque de la Mecque correspond aux quatre premières années de la vie publique de Mahomet. Les Süra de cette époque, filles de l'enthousiasme, sont courtes et fougueuses, leur langage est solennel, leurs images hardies, leurs versets brefs leurs enseignements pleins de force, et parfois introduits par des adjurations emphatiques.

- La deuxième époque comprend les cinquième et sixième années de l'activité de Mahomet à la Mecque. Ce sont les Süra de transition, la fougue initiale commence à ces refroidir au contact des désillusions de la réalité et des nécessités pratiques de la communauté naissante.

On y trouve déjà les longues tirades sur la vie des prophètes antérieures à Mahomet, racontées en vue de prouver l'intervention divine contre les méchants, de menacer les adversaires et de consoler les Musulmans.

- La troisième époque , de la septième année , est pleine de récits sur les prophètes, lesquelles, dans leur ensemble , occupent un quart de tout le Coran. Le seul et grand objet des Süra de la Mecque est la conversion des hommes à la foi en Allah ...

- Dans les Süra de Médine on voit se refléter le grand revirement opéré depuis l'Hégire. Les Süra s'adressent soit aux croyants, soit aux juifs ou aux chrétiens ...».

"تطابق الحقبة الأولى المكية السنوات الأربع لحياة محمد، سور هذا الزمن: سور قصيرة وحماسية، لغتها احتفالية، صورها جريئة، آياتها مختصرة، تعاليمها مليئة بالقوة، وأحيانا فيها تعويذات مبالغة.

الحقبة الثانية تشمل السنة الخامسة والسادسة لعمل محمد في مكة، في سور هذه الحقبة نجد جردا لحياة الأنبياء الأولين، والاستدلال مع التدخل الإلهي ضد العصاة وتحذير الأعداء ومواساة المؤمنين .

الحقبة الثالثة، من السنة السابعة إلى السنة العاشرة، سورها مملوءة بالحكايات على الأنبياء الذين في مجملهم حازوا ربع القرآن، ثم أن الموضوع الوحيد والكبير للسور المكية هو تحويل الناس إلى الإيمان بالله .

وفي السور المدنية، نرى سطوع انقلاب منذ الهجرة، وأن الخطاب موجه إلى المؤمنين واليهود والنصارى..."[388] .

وشاركه في هذه الطريقة في ترتيب سور القرآن الكريم المستشرق **Schwally** سنة 1909 م .

وقد أشاد بلاشير **Blachère** بطريقة المدرسة الألمانية في معالجة هذا الموضوع، وقال:

«En revanche, à la faveur d'une reprise de tout le problème Noldeke et une élite d'Islamologues allemands ont réussi, dans la Geschichte des Qurans, parue de 1919 à 1938, à définir une autre méthode de recherche, abandonnant l'ambition de retrouver une chronologie sans ambiguité des textes coraniques, ces savants réussirent à regrouper ceux-ci selon des phases successives, déterminées partie en fonction de style, et une partie en fonction de thème politiques et religieux développés dans le Coran»[389].

" إن نولدكه ونخبة من علماء الإسلاميات الألمان قد نجحوا في تحديد طريقة أخرى للبحث بفضل معالجتهم الجديدة للمسألة بكاملها في (تاريخ القرآن) الذي ظهر من سنة 1919 إلى سنة 1938. لقد تنازل هؤلاء العلماء عن مطمحهم للاهتداء إلى تسلسل النصوص القرآنية لا لبس فيه، فنجحوا في إعادة جمع هذه النصوص وفقا لمراحل متعاقبة، حددوها بحسب الأسلوب

---

388 - Islamologie , p. 600 - 602

389- Le Coran « que sais-je » , p. 17 - 18

من جهة وبحسب الموضوعات السياسية الموسعة في القرآن من جهة أخرى"[390] . وقال أيضا:

«Grâce à Nogdeke et à son école , il a été possible d'exposer à un lecteur non averti ce qu'il doit savoir du Coran pour le comprendre en spécificité et pour surmonter le désarroi provoqué par l'approche d'un texte souvent obscur et énigmatique »[391].

إنه " **بفضل نولدكه ومدرسته أصبح ممكنا من الآن فصاعدا أن نوضح للقارئ غير المطلع ما يجب أن يعرفه عن القرآن، ليفهمه بنوعيته وليتخطى القلق الذي ينتابه عند اطلاعه على نص يغلب عليه الغموض"[392]** .

ولم يتردد **Simon Jargy** في اعتبار الترتيب الزمني للقرآن مشروعا أصيلا لنولدكه عندما قال :

«Un travail de reclassement des sourates fut entrepris, dont Th. Noldeke a été le principal initiateur»[393].

كما أشاد **أبو عبد الله الزنجاني** بنولدكه وبكتابه، وقال: "**أهم ما ألفه الإفرنج في تاريخ القرآن هو الكتاب الذي ألفه الأستاذ نولدكه باللغة الألمانية"[394]** .

ثم استمرت هذه المحاولات بعد **نولدكه** و**شوالي**، خصوصا من قبل المستشرق الفرنسي **ريجي بلاشير** في دراسته لها بين التنظير والتطبيق، ويتجلى لنا ذلك في جل كتبه وبخاصة في كتابه ترجمة القرآن (1949، 1950، 1966) ويعد **بلاشير** أعمق المستشرقين الفرنسيين تأثرا بطريقة **نولدكه**، حتى رأى فيها الطريقة المثلى التي يجب أن يلتزم السير بها جميع المستشرقين، لأنها تجعل قراءة المصحف سهلة وممتعة، يقول:

---

390 - بلاشير، المصدر السابق، ص 26 .

391- Ibid , p. 13.

392 - المصدر السابق، ص 21 .

393 - Islam et Chrétienté , p. 67 .

394 - المرجع السابق، ص 70 .

«L'expérience semble démontrer qu'adopter le classement par périodes proposé par Noldeke et repris par certains traducteurs rend aisée, voire agréable, la lecture de la vulgate coranique »[395].

وإذا ما انتقلنا إلى آراء المستشرقين الفرنسيين في ترتيب سور القرآن الكريم، فنرى أن نستهل هذه الآراء بتساءل هام لكازيمرسكي، يدور حول السبب من عدم تتبع ترتيب زمني للقرآن، يقول:

«Il me semble que chercher bien loin une explication. L'absence d'esprit d'ordre et de systématisation, si frappante chez les Arabes, explique beaucoup mieux la chose».

"يبدو لي أننا نبحث عن تفسير لهذا في زمن بعيد جدا، والواقع هو أن غياب روح الترتيب والتنظيم جد واضح عند العرب، هو التفسير الحقيقي".

ثم يقول :

«On ne pouvait certes demander aux fidèles du Prophète, il y a plus de 1300 ans, d'adopter un principe scientifique de classification, mais il est temps d'abandonner leur système».

"بالتأكيد لا يمكن أن نطلب من أصحاب محمد، منذ أكثر من 1300 سنة، تبني نظرية علمية للترتيب، ولكن آن الأوان لترك نظامهم"[396] .

ورأى هنري ماسيه :

«Cet ordre, tout artificiel, adopté par Zaïd et ses compagnons».

"أن هذا الترتيب الاصطناعي، الذي تبناه زيد ورفاقه لا يستطيع أن يرضي النفوس المفكرة"[397].

ورأى **إدوارد مونتيه** أن السور تفتقد إلى وحدة وترتيب وشبهها بكتلة مراحل متنوعة، حين قال:

---

395 - Le Coran « que sais-je » , p. 31 .
396 - Coran , Tome premier , p. 19 .
397 - L'Islam , p. 81 .

«Ces sourates, qui manquent d'unité de composition, et qui sont comme des agglomérates de fragments divers»[(398)].

ولاحظ Simon Jargy أن ترتيب السور ليس على نمط واحد وأنه ترتيب نزولي كما أن تقطيع السور ليس منظما، وهذا ما حمله على وصف القرآن بأنه كتاب فوضوي chaotique، متناقض، لا يقرأ :

«Ce classement lui-même n'est d'ailleurs pas uniformément suivi. Le découpage n'a pas systématisé l'ordre de décroissance, et il arrive que des versets appartenant aux deux grandes périodes de la prédiction se chevauchent indistinctement.

-Le Coran était un livre chaotique, contradictoire et en somme illisible».

وعلى هذا أساس، يقول :

« Il faut lire le Coran à l'envers, c'est-à-dire en commençant par la fin».

" لابد من قراءة القرآن معكوسا بمعنى نبدأ من الأخير "[(399)]

وشايعه في هذا الرأي عدد من المستشرقين منهم R.Arnaldez الذي قال:

«Il faut noter que les versets sont de longueurs, très différentes. Ils sont, surtout dans les premières révélations, extrêmement courts, souvent assonancés, avec un rythme cadencé. Mais ils peuvent être très longs, comme dans les textes législatifs; le plus typique, en ce sens est le verset 282 de la sourate 2, qui concerne les dettes, leur reconnaissance écrite, l'appel au témoignage. De ce point de vue encore. Le Coran ne présente pas une parfaite unité».

"يجب الإشارة إلى أن الآيات تختلف في الطول. إنها قصيرة خصوصا في الكشوف الأولى مقفاة أحيانا، بإيقاع منسجم، ولكنها تكون أطول بكثير

---

398 - Mahomet le Coran , p. 47 .
399 - L'Islam et Chrétienté , p. 47 .

كما هو الحال في الموضوعات التشريعية، وأكبر نموذج لهذا هو الآية 282 من السورة الثانية التي تخص الديون والاعتراف بها كتابة، ووجوب الشهادة، من هذا المنطلق فالقرآن لا يقدم أو يعطي وحدة كاملة"[400].

ويقول René Kalisky:

«Dans le Qoran d'Othmân, les sourates de la Mekke, au nombre de quatre –vingt-dix, et celles de Médine, au nombre de vingt-quatre, se succèdent donc dans un ordre purement mécanique.

On a tenté également mais sans succès de s'appuyer sur la tradition pour rétablir, au moins dans une certaine mesure, la chronologie des sourates, mais cette méthode, qui repose sur des données elles-même sujettes à caution, a été remplacée avantageusement par celle des érudits qui, tel N-oldeke, ont recours à la langue et au style du Qoran».

"في قرآن عثمان عدد السور المكية تسعون وعدد السور المدنية أربع وعشرون، تتابع في ترتيب آلي صرف وقد جربنا من غير نجاح أن نعتمد على الرواية بإعادة على الأقل الترتيب الزمني للسور، لكن هذه الطريقة التي تعتمد على المعطيات المريبة، فبدلت بطرق أخرى لباحثين، مثل نولدكه بالرجوع إلى لغة وأسلوب القرآن"[401].

وذهب هنري لامينز H.Lammens إلى القول :

«L'éditeur a adopté l'ordre en usage dans les divans ou oeuvres poétiques, où l'on débute toujour par les plus longues pièces. Il a également classé ou maintenu dans les sourates mecquoises et vice-versa dans les médinoises des groupes de versets appartenant à des périodes différentes».

إن " الناشر تبنى النظام المستعمل في الدواوين والأعمال الشعرية، مستهلا دائما بالقطع الأكثر طولا، وأيضا حافظ على ذلك في السور المكية

---

400 - Le Coran guide de lecteur , p. 38 - 39

401 - L'Islam origine et essor du monde arabe , p. 76 .

والعكس بالعكس في السور المدنية، فمجموعة من الآيات تنتمي إلى فترات مختلفة"[402].

وعند بلاشير أن المشكل الحقيقي في المصحف العثماني هو مشكل التسلسل الزمني للسور، يقول :

«Tout d'abord surgit le problème du reclassement chronologique des textes. Dans la recension othmanienne, les sourates se présentent en effet, dans l'ensemble, selon l'ordre inverse des dates où ces révélations furent reçues. Comme on l'a dit, nous lisons aujourd'hui le Coran à l'envers. D'autre part, à quelques exceptions près, les sourates, loin de constituer des ensembles homogènes».

" إن السور على النظام المعاكس للتاريخ الذي نزل فيه الوحي إننا نقرأ القرآن معكوسا، ومن جهة أخرى فالسور بعيدة عن تكوين مجموعات متجانسة"[403].

ويظهر من مجموع هذه الآراء أن هناك اتفاقا تاما بين جميع المستشرقين سواء الفرنسيين أو غيرهم على ضرورة البحث عن ترتيب زمني للسور، طالما أن الترتيب الذي عليه القرآن حاليا ترتيب مفتعل ومصطنع وآلي، و يعبر عن الروح الفوضوية التي كان عليها العرب في ذلك الوقت، لقد حان الوقت لهجر هذا الترتيب والبحث عن ترتيب آخر، وقد عبر **بلاشير** عن هذه الرغبة بوضوح تام، حين قال :

«Pour comprendre historiquement le livre sacré des Musulmans, on peut être tenté de vouloir le livre en revenant à la séquence chronologique des révélations qui le composent. Afin d'aider le lecteur».

" من أجل فهم الكتاب المقدس للمسلمين تاريخيا يمكن الرجوع إلى التسلسل الزمني للإيحاءات التي يتألف منها، من أجل مساعدة القارئ"[404].

---

402 - L'Islam croyances et institutions , p. 53 - 54
403 - Le problème de Mahomet , p. 1 .
404 - Le Coran , tra. , p. 11 .

وهكذا تقدم غير واحد من المستشرقين الفرنسيين بترتيب زمني للسور مقسما القرآن الكريم إلى عدة مراحل زمنية مختلفة .

فهذا **إدوارد مونتيه** يقسم السور القرآنية إلى مرحلتين رئيستين :

« Les sourates de la Mecque: Dans ces fragments, Mahomet s'exprime dans un langage exalté, et son imagination se manifeste dans les plus riches développements, en particulier lorsqu'il décrit le bonheur du paradis et les peines de l'enfer. -Les sourates de Médine: Mahomet, dans ces sourates, parle comme chef religieux et politique c'est là qu'il faut chercher les origines du Califat. Il y tranche les questions civiles et rituelles».

"**السور المكية:** وضح فيها محمد فكرته بلغة متحمسة وخياله يتجلى في تطور غني، خصوصا حين يصف سعادة الجنة وأحزان الجحيم .

السور المدنية: يتكلم فيها محمد كرئيس ديني وسياسي، وبث فيها مسائل مدنية وشعائرية أو تشريعية، نجد فيها أسس الخلافة"(405) .

في حين نجد **المعجم الكبير** **Grand Dictionnaire** يقسم سور القرآن الكريم حسب الموضوع إلى أربعة مجموعات أساسية :

«- Le thème du premier groupe est la purification, la charité, l'unicité divine, le rejet du paganisme, la création et la résurrection.

-Le thème du deuxième groupe est la réaffirmation de l'unicité divine, la lutte contre le polythéisme, le prophétisme de Mahomet, la récompense et châtiments dans l'au-delà.

-Les troisième et quatrième groupes comprennent les révélations faites à Médine, à une époque où le Prophète élargit et organise solidement la communauté, Mahomet reprend et accentue les thèmes essentiels de tout sa prédication».

"موضوع المجموعة الأولى: هي الطهارة، والإحسان، وحدانية الله، ورفض الوثنية، والخلق والبعث.

---

405 - Mahomet Le Coran , p. 45 - 46

موضوع المجموعة الثانية: هو التأكيد على وحدانية الله، والصراع ضد الشرك، ونبوة محمد، والثواب والعقاب في الآخرة.

أما المجموعة الثالثة والرابعة، فتشتمل على الإيحاءات الملقاة في المدينة في عصر كان الرسول يوسع وينظم متانة الوحدة ... "[406].

أما الموسوعة العامة لا روس فتقسم سور القرآن حسب الأسلوب إلى أربعة مراحل، وهي:

«- Sourates de la première période mekkoise, d'un style elliptique et haché, courtes, pourvues de titres frappants parfois mystérieux - Sourates de la deuxième période mekkoise, aux phrases plus étirées, prenant ...

- Sourates de la 3me période mekkoise , reprenant dans les versets moins rythmés ...

- Sourates de la période médinoise, beaucoup plus longues, où les effets oratoires cèdent la place au style juridique » .

"- المرحلة المكية الأولى: أسلوب سورها موجز، وسورها قصيرة ومبتورة، تمنح عنوانا مدهشا، وأحيانا غامضا .

- المرحلة المكية الثانية: جملها جد جذابة وأخاذة ...

- المرحلة المكية الثالثة: سورها أيضا أخاذة، وآياتها أقل إيقاعا ...

- المرحلة المدنية الأخيرة: سورها أكثر طولا، فيها تركت التأثيرات الخطابية مكانها للأسلوب الشرعي"[407] .

أما بلاشير، فقد قسم هو أيضا سور القرآن إلى أربعة مراحل، فاصلا بين كل مرحلة من هذه المراحل الأربعة، بما تميزت به كل مرحلة عن الأخرى من سمات سواء من حيث الموضوع أو من حيث الأسلوب، والذي يبدو أن بلاشير اتكأ في معالجة هذا الموضوع اتكاء واضحا على آراء

---

[406] - Grand dictionnaire , Tome 3 , p. 2615 .
[407] - Encyclopédie Générale Larousse , p. 550 .

المستشرق الألماني **نولدكه**، وليس هذا بغريب مادام **بلاشير** يعتبر طريقة **نولدكه** هي الطريقة المثلى التي يجب التقيد بها، يقول :

«L'expérience semble démontrer qu'adopter le classement par périodes proposé par Noldke et repris par certains traducteurs rend aisée, voire agréable, la lecture de la Vulgate coranique »[408].

" إن التجربة أثبتت أن التقيد بالمراحل الزمنية للترتيب الذي اقترحه نولدكه، وأخذ به بعض المترجمين يجعل قراءة المصحف سهلة، بل ممتعة"[409].

ونستطيع أن نجمل هذا التقسيم فيما يلي:

المرحلة المكية الأولى:

«Si nous portons de la sourate LIII du canon Othmanien, nous trouvons une suite de chapitres de plus en plus courts (v.p.26), qui nous éclairent sur les premières moments de l'Apostolat. Mahomet est inquiet hésitant sur ses forces, prêt au désespoir devant l'ampleur de sa mission (ainsi Coran, LXXIV, 1-7; XCIII, 1- 111 et XCIV, 1-8). Un groupe plus suggestif, puisqu'il compte vingt-trois sourates, vient ensuite et illustre pour nous l'expérience initiale du nouveau Prophète. Celui-ci est encore sous le coup de l'appel divin; la représentation du cataclysme qui va emporter le monde et du Jugement Dernier hante son imagination. L'Heure est proche sans qu'on puisse dire à quel moment elle va s'abattre sur les hommes; une immense panique saisira les pécheurs et les Riches (Coran, LXX) , la terre elle aussi frémira et les morts seront arrachés à leur sommeil ; ce sera l'heure du Jugement (Coran , XCIX). La récompense selon les œuvres se concrétise dans ces textes par une hallucinante opposition entre le sort des Elus et des Damnés. (Coran, LXIX)... Nous moins important, dans les sourates de cette période,

408 - Le Coran « que sais-je » , p. 31 .

409 - بلاشير، المصدر السابق، ص 44 .

apparaît un autre thème, corollaire de l'annonciation de l'heure. C'est l'affirmation de la transcendance de la mission qu'assume Mahomet. Dans la sourate LXXXI se trouve formulé en termes d'une particulière vigueur ce postulat essentiel en Islam.

Les révélations reçues durant cette première période à la Mekke se caractérisent par l'unité du style. Les versets sont en général de six à dix syllabes; les clausules se succèdent souvent sur une rime unique d'une grande richesse; à deux ou trois reprises des sourates offrent des groupes strophiques avec refrain (Coran, LXXVII), très souvent des formules sacramentelles par les astres ou des monts sacrés commencent les sourates, qui forment alors des incantations, tous ces textes se signalent par leur lyrisme, leur tour hallucinant»[410].

"إذا انطلقنا من السورة الثالثة والخمسين " النجم " من مصحف عثمان وجدنا تتابعا في سور من قصير إلى قصير، تهدينا إلى اللحظات الأولى للدعوة، كان محمد مضطربا مترددا في قواه، قريبا إلى اليأس أمام ضخامة رسالته (سورة المدثر، والضحى، والانشراح) ثم تلى ذلك مجموعة أشد إيحاءا إذ إنها تعد ثلاثا وعشرين سورة، فتوضح لنا التجربة الأولى للنبي الجديد، إنه ما يزال تحت وطأة النداء الإلهي، يلازم خياله، تصوره للكارثة الأرضية التي ستقضي على العالم وتصوره للحساب الأخير. إن الساعة لقريبة ولا تحديد للوقت التي ستقع فيه على البشر، وإن هلعا عظيما سيصيب الآثمين والموسرين. (يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما، يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيه، وفصيلته التي تؤويه، ومن في الارض جميعا ثم ينجيه) (سورة المعارج 8 — 14) والأرض سترتعد هي أيضا ستقلع الأموات من سباتهم وتكون ساعة الحساب (سورة الزلزلة 1 — 8) والجزاء على الأعمال يتعين في النصوص الآتية بتقابل مذهل بين مصير المعذبين والناجين (الحاقة 15 — 29) .

---

410 - Le Coran « que sais-je » , p. 32 – 38.

إننا نجد واحدا من المظاهر الثابتة للفن القصصي والشعر في العالم الثاني عامة وعند العرب خاصة، والطباق ظهر بإلحاح وهو قليل التغيير في مبناه غالبا. لكنه شديد التأثير على عقول يغلب التعبير مرامه عندها بكلمة أو بصفة " مثلما في السور " (عبس 23 – 42، والانشقاق 7 – 14، والغاشية 1 – 16، والنبأ 17 – 36) .

إننا نحس هذه الخاصية في كل مقطع على أن التذكير بالملذات الفردوسية في جنات عدن يمثل أفضل من كل ما سواه ما في الأسلوب من بساطة إيحائية (الطور 17 – 27).

ولا يقل أهمية في سور هذه الفترة ظهور موضوع آخر كان ملحقا للتذكير بالساعة إنه التصريح بسمو المهمة التي كلف بها محمد، ففي سورة التكوير 15 – 28 تصاغ هذه القضية الأساسية في الإسلام بألفاظ في منتهى القوة...

إن المنزلات المتلقات طيلة هذه الفترة المكية تتميز بوحدة الأسلوب وتتألف الآيات على العموم من ستة إلى عشرة مقاطع صوتية، والسجعات تتابع غالبا على قافية واحدة شديدة الوقع. وبعض السور تبنى آياتها على شكل أدوار مع لازمة " تردد مرتين أو ثلاث مرات (المرسلات) " وغالبا ما تفتتح السور بعبارات قسم بالنجوم أو بالجبال المقدسة، فتؤلف عندئذ من الكلام السحري. وكل هذه النصوص تتميز بطابعها الغنائي وسياقها المذهل"[411] .

المرحلة المكية الثانية:

«La deuxième de la prédication à la Mekke est représentée par vingt-deux chapitres a partir de la sourate XVIII en continuant jusqu'à la sourate LIII. Ces textes sont études et composites. Un exemple typique de cette allure accumulative se trouve dans la fréquent de l'appellatif ar-Rahman "Le Bienfaiteur" à côte d'autres nome désignant usuellement la

[411] - بلاشير، المصدر السابق، ص 45 - 54

Divinité ce fait de vocabulaire pourrait bien correspondre a une conception propre à cette période (Coran XLIII 8/ 9 - 12 / 13 et surtout XXXVL, 33 - 44). Partout éclate le divorce définitif entre la jeune Communauté et ses adversaires un passage de la sourate XXLLL (83 / 81 - 92 / 90) donc le ton de La polémique le dogme de l'unicité divine est confirme. Pour atteindre à son but, la prédication fait référence, à des récits ou à des légendes connus en Arabie. Le Cadre adopté est assez uniforme: âpres une exorde en général assez court sur la repentance ou les devoirs de la foi , vient un concernant une tribu, ou qui égaré par sa prospérité , se détourne du culte de la Divinité suprême , les noms de ces peuples sont peu nombreux et reviennent inlassablement, ce sont les Ad d'Arabie méridionale , les thamoud du Wâdi-l- Qurâ au nord de Médine , les Amale cites et "le peuple de Loth " , les Egyptiens et Pharaon , enfin , plus haut dans le temps les contemporains de Noe.

Plus remarquable encore est la forme arabe prise par le personnage d'Abraham celui-ci reste dans la prospective du moment comme les autires prophètes.

Par le style, les révélations de cette période, différent profondément de celles de la période précédente. Non seulement les versets se sont sontétirés (ils ont en moyenne de douze à vingt syllabes), mais l'allure générale ne traduit plus la même tension intérieure et n'implique plus le même force hallucinant. L'inspiré est domine par son combat contre des adversaires qu'il sent irréductibles le défi répond à l'insolence et le rappel d'une même vérité sous des formes à peine distinctes apparaît comme l'argument le plus valable. L"état poétique"cèdent, la place à la diatribe, les effets purement stylistiques n'apparaissent plus avec d'insistance, un fait le montre d'une façon constante: Les clausules s'achèvent le plus souvent sur des assonances et la variété de celles-ci est limitée»[(412)]

---

[412] - Ibid , p. 38 - 41

"تتمثل باثنتين وعشرين سورة تبتدأ بسورة (الكهف) وتنتهي بسورة (النجم) وهي نصوص موسعة ومختلفة العناصر، ويوجد مثل نموذجي على هذا المظهر التجميعي في سورة الكهف، إنا نتبين في هذه النصوص كثرة استعمال اسم (الرحمن)، إلى جانب أسماء أخرى تطلق عادة على الآية وربما وافق اللجوء إلى هذه المفردات تصورا خاصا بهذه الفترة (الزخرف 9 – 13) وخاصة (يس 33 – 44). ويظهر التناقض القطعي دائما بين الأمة الفتية وخصومها، فنرى لهجة الجدل في فقرة من سورة (المؤمنون 81 – 90) وتتأكد في السورة ذاتها عقيدة التوحيد الإلهي ... ولكي تبلغ الدعوة غايتها كانت ترجع إلى قصص وأساطير معروفة في الجزيرة العربية إن الإطار الذي اعتمد في ذلك متسقا تماما، فبعد استهلال قصير على العموم يتناول التوبة أو فرائض الإيمان، تأتي قصة تتعلق بقبيلة أو بشعب أضله ترفه فرده على عبادة الإله الأعلى. أما أسماء هذه الشعوب فهي قليلة وتتكرر بلا ملل، إنهم قوم عاد من جنوب الجزيرة العربية، وثمود من وادي القرى شمالي المدينة، والعمالقة، وشعب لوط، والمصريون وفرعون، وأخيرا معاصرو نوح في قديم الزمان ...

أما القالب العربي الذي اتخذته شخصية إبراهيم فهو أجدر أيضا بالملاحظة لقد بقي إبراهيم في احتمال ذلك الوقت مثل الأنبياء.

أما من حيث الأسلوب، فإن منزلات الفترة الثانية تختلف اختلافا جذريا عن منزلات الفترة السابقة، فلم تطل الآيات فقط، لكن سياقها العام يكشف نفس الزخم الباطل، أو ينطوي على نفس القوة المذهلة. إن النبي الملهم تهيمن عليه إرادة النضال في وجه خصومه يشعر بأنهم لن ينثنوا إن التحدي يرد على الوقاحة، وإن استعمال صيغ تكاد تتميز عن بعضها للتذكير بحقيقة واحدة يبدو وكأنها الحجة الأعلى قدرا، وإذ يخلى النسق الشعري مكانه للنقد اللاذع، فإن آثار الأسلوب بحد ذاته لم تظهر بنفس المقدار من الإصرار. إن

الواقع الذي يبرز ذلك باستمرار هو أن القوافي تنتهي في أكثر الأحيان على سجعات. وأن التنوع في هذه السجعات محدود"(413).

المرحلة المكية الثالثة:

«Les vingt-deux sourates qui, dans le reclassement de Nôldeke, correspondent à la troisième et dernière phase de la prédication à la Mekke, prolongent celles de la période précédente ; rien entre les deux séries de textes n'indique un renouvellement fondamental dans les thèmes, non plus que dans leur traitement. Ce sentiment de continuité ne doit cependant pas nous empêcher de distingues des nuances dans le détail; très souvent ces sourates offrent des exemples de révélation postérieures à 622, insérées, dans des dispositions postérieure reçues aux cours des ou trois dernières années de l'apostolat à la Mekke, un exemple parmi bien d'autres nous est fourni par la sourate XLLL intitulée le Voyage nocturne ...

Le Coran utilise fréquemment dans les sourates de cette troisième période la formule ayyahâ n-nas!

"Ô Gens" "Ô Hommes" , ainsi la révélation ne s'adresse plus uniquement aux Mekkois , mais des Nomades ... C'est vers ce temps sans doute que s'ébauche une évolution curieuse dans la vénération islamique rendue à Abraham ...

Il est à peine de souligner combien le style des sourates s'est modifié an cours de la période qu'on vient de survoler. Sans doute retrouve-t-on la coupe en versets s'achèvent par une clausule rimée et ça et là, des passages empreints d'un lyrisme qui rappelle celui de la deuxième phase apostolique. On sent toutes, même à travers une traduction, combien s'est accentuée la différences entre le style haletant, coupé d'éclairs, de serments, d'évocations eschatologiques, propre au début de la prédiction et la forme oratoire, ample, chargée d'incidentes, qui caracterise les

413 - بلاشير، المصدر السابق، ص 54 - 57

révélations reçues à la Mekke au moment où Mahomet va quitter cette cite sourde à son appel»[414].

"إن الاثنتين والعشرين سورة التي تقابل في ترتيب نولدكه المرحلة الثالثة والأخيرة من التبشير في مكة، هي امتداد لسور الفترة السابقة في هاتين المجموعتين من النصوص يشير إلى تحديد أساسي لا في الموضوعات ولا حتى في طريقة معالجتها، لكن هذا الشعور بالاستمرار لا يجب أن يمنعنا من أن نميز فروقا دقيقة في التفاصيل، فغالبا ما تقدم هذه السور نماذج عن النزلات المتلقاة بعد سنة 622 م، أدرجت في ترتيبات منزلة خلال السنتين أو السنوات الثلاث الأخيرة من التبشير في مكة .

إن مثلا من أمثلة أخرى متعددة على ذلك تقدمه لنا سورة الإسراء... إن القرآن يستعمل كثيرا في سور هذه الفترة الثالثة عبارة (أيها الناس)، فالوحي إذ لم يعد موجها إلى المكيين فقط، بل أيضا إلى الذين لم يرد بعد التكفير بهداياتهم، إلى المدنيين أولا، ومن ثم إلى عالم البدو ... وربما ابتدأت ترتسم في هذه الفترة معالم تطور غريب في التقدير الإسلامي لشخصية إبراهيم... من حيث الأسلوب يقول:

"إنا نكاد لا نكون في حاجة إلى التنبيه إلى قدر التغير الحاصل في أسلوب السور، خلال الفترة التي أطلعنا عليها.

لاشك أن نلاقي التقطيع إلى آيات تنتهي بقافية مسجعة، وفي أماكن كثيرة مقاطع ذات طابع غنائي يذكرنا بطابع المرحلة التبشيرية الثانية .

إلا أننا نشعر حتى من خلال الترجمة إلى لغة أجنبية، كم يزداد الاختلاف بين الأسلوب المتقطع الذي يتخلله الوميض والقسم واستحضار الأخراويات، وهو خاص ببداية التبشير، وبين الصيغة الخطابية المسهبة، المفعمة بالاعتراضات والتي تتميز بها المنزلات المتلقاة في مكة يوم كان محمد يهم بترك هذه المدينة التي لم تسمع نداءه"[415] .

---

414 - Ibid , p. 41 - 46

415 - المصدر السابق، ص 57 - 65

المرحلة المدنية :

«Les révélations reçues durant les dix années de l'Apostolat à Médine sont à chercher dans vingt-quatre sourates d'étendue très diverse et, de ce fait, fort dispersées dans la Vulgate ... Dans de nombreuses sourates on retrouve sans difficulté l'association d'idées qui a conduit à rapprocher, voire à disposer en une séquence satisfaisante pour l'esprit du temps, des révélations reçues à Médine à des moments sans doute assez éloignées ; l'exemple le plus remarquable est fourni par la sourate XXIV intitulée la lumière.

Dans le "climat" qui semble avoir été celui de Médine à ce moment et par le fait que désormais la personne de Mahomet s'impose par le double prestige du Prophète et du chef théocratique, la révélation acquiert une valeur contraignante sans cesse croissante. Les sourates en portent témoignage par l'emploi fréquent de la formule: (Obéissez à Allah et à son Prophète ! ... La diversité du style est d'ailleurs saisissante dans les sourates médinoises; à côté de nombreux passages encore pleins de feu et de passion).

(La position abrahamiste du Coran vait annoncé un possible rapprochement du jeune Islam et du judaïsme ... On peut donc parler d'un thème sur la coexistence judéo-islamique ; ainsi dans la sourate II, nous lisons (40 - 41) ... A partir de ce moment la rupture entre la communauté des Croyants et les Juifs médinois fut consommée, elle s'acheva par l'extermination d'un troisième clan des Quraiza, qui avaient pactisé avec les Polythéistes mekkois lors de la Guerre du Fossé; là encore le Coran porte l'écho de cette tragédie (Coran , XXXIII , 26) ...

L'attitude du jeune Islam vis-à-vis des communautés chrétiennes d'Arabie méridionale, les seules avec lesquelles Mahomet paraît avoir eu des contacts suivis, a constitué aussi un problème dont la solution reste plus nuancée dans la Prédication...

Durant une première phase ce thème est développé d'une façon claire , nulle hostilité n'existe alors contre les adeptes de

Jésus; sans doute le dogme de la trinité est-il condamné à plusieurs reprises notamment dans la sourate IV , 171 , toutefois une incontestable attirance s'exprime dans un autre passage , la sourate V, 82 - 83 ... Un thème revient presque en obsession dans les révélations de cette période: celui qui concerne le parti au demeurant peu nombreux mais influent , dit des Hypocrites...

Dans les sourates médinoises se trouvent naturellement aussi réglés des problèmes posés par la substitution d'un ordre nouveau à l'organisation tribale , par la hiérarchie sociale et l'inégalité des sexes (Coran , II , 229 ; III , 31 / 35 ; IV , 34 / 38 ; XVI , 71 / 73 ; VI , 165) , par une détermination relative du culte , des interdits sexuels ou alimentaires , par l'éthique et aussi par certains devoirs collectifs comme la Guerre Sainte (ou Jihad) »[416].

"إن المنزلات المتلقاة خلال سنوات التبشير في المدينة يجب أن يبحث عنها في أربع وعشرين سورة تختلف في قولها، ولهذا السبب فهي جد مبعثرة في المصحف ... ففي سور متعددة ندرك بسهولة تداعي الأفكار الذي أفضى إلى التوفيق بين المنزلات المتلقاة في المدينة على فترات متباعدة بلاشك، والذي أدى حتى إلى تنظيم هذه المنزلات في تعاقب موات لروح العصر، إن أشد الشواهد وضوحا على ذلك نجده في سورة (النور) ...

لقد أخذ الوحي يكتسب قيمة إلزامية متزايدة على الدوام، وذلك في الجو الذي يظهر عليه طابع المدينة آنذاك، كان بسبب شخصية محمد التي بدأت مذ ذاك تهيمن بنفوذ مزدوج: نفوذ النبي، ونفوذ الزعيم الثيوقراطي، تشهد السور على ذلك بكثرة عبارة (أطيعوا الله ورسوله) ... نجد تنوعا غريبا في أسلوب السور المدنية، فإن توسيعات من هذا النوع الذي قد أشرنا إليه توجد إلى جانب المقاطع العديدة المليئة بالشعلة والانفعال ...

يمكننا أن نتكلم عن موضوع التعايش الإسلامي اليهودي. فإن نقرأ في سورة البقرة الآيات التالية 40 — 41 ... وكان قد تم انشقاق اليهود المدنيين على الأمة المؤمنة ابتداء من ذلك الوقت، وانتهى ذلك الانشقاق بإبادة

---

416 - Ibid , p. 49 - 62

عشيرة ثالثة منهم هم بنو قريظة الذين كانوا قد تواطئوا مع المشركين المكيين في حرب الخندق ... إن موقف الإسلام الفتي من الطوائف المسيحية في جنوب الجزيرة العربية قد كون أيضا معضلة ظل حلها شديد التنوع في التبشير. وهذه الطوائف هي الوحيدة التي بقي محمد على علاقات متواصلة معها ... لا شك أن عقيدة التثليث قد شجبت مرارا، خاصة في سورة النساء (171). إلا أن استمالة أكيدة تصاغ في فقرة أخرى في سورة المائدة (82 — 83) ...

إن أحد الموضوعات يعود للظهور وكأنه وسواس فيه منزلات هذه الفترة، يتعلق بحزب قليل العدد ولكنه مع ذلك صاحب نفوذ: إنه حزب المنافقين ...

ومن الطبيعي أن نجد في السور المدنية، المشكلات التي طرحها استبدال النظام القبلي بنظام جديد، والمراتب الاجتماعية والتفاوت بين الجنسين (البقرة 229، آل عمران 35، النساء 34، الأنعام 165 والنحل 71) كما قد طرحتها أيضا تحديدات متعلقة بالعبادة والمحرمات الجنسية أو الغذائية والأخلاقية وبعض فرائض الكفاية كالجهاد"[417].

لكن رغم الجهود المضنية التي بذلها المستشرقون الفرنسيون فإنهم لم ينجحوا في تقديم ترتيب يحظى بالإجماع والقبول، يقول J.Grosjean:

«Aucun de ces classements n'a été favorablement accueilli par les docteurs de l'Islam ».

"لم يحظ أي من هذه الترتيبات بقبول العلماء المسلمين "[418].

وجاء في الموسوعة العامة لاروس ما يلي:

«En fait, la chronologie des sourates est difficile à déterminer avec précision ».

"في الواقع، من الصعب تحديد الترتيب الزمني للسور بدقة"[419].

---

417 - المصدر السابق، ص 68 - 89

418 - L e Coran , préface J.Grosjean , p. XLII .

419 - Encyclopédie Générale Larousse , p. 550 .

وبموازاة مع ذلك، تثار بين أوساط المستشرقين الفرنسيين مسألتان على جانب كبير من الأهمية هما: مشكلة عدد السور بالإضافة إلى مشكلة وضع سورة الفاتحة، فلا زال هناك غموض في ما يخص هاتين المشكلتين عند المستشرقين الفرنسيين، جاء في كتاب " Islamologie ":

«Dans le Coran d'Ubayy il y avait deux süra de plus que dans le Coran actuel; elles avaient leurs titres propres, et portaient le nombre total des Süra à 116, dans le Coran d'Ibn Mas'üd, au contraire , le nombre total des Süra ne dépassait pas 111, il manquait trois des Süra, soit la première et les deux dernières (1-113-114) du Coran actuel. Comme les titres des Süra de ces collections sont presque toujours les mêmes que ceux de la collection actuelle.

Il reste toujours des points obscurs. L'un d'eux celui de l'authenticité de la première Süra, la Fatiha, et les deux dernières, 113 et 114, qui manquaient à la collection d'Ibn Mas'üd. Comme cet indice se trouve confirmé par l'évidence interne de la teneur et du style de ces trois Süra, le problème a été posé, mais jusqu' à présent il demeure sans solution.

La terminologie de la Fatiha pourrait sans difficulté être juive ou chrétienne: les deux dernières Süra ne sont que des formules d'incantation. Dans aucune de ces trois Süra on ne trouve de trait spécifiquement musulman».

"في قرآن أبي توجد سورتان زائدتان عن القرآن الحالي كان لهما عنوانهما الخاص. مما يجعل عدد السور يصل إلى مائة وستة عشر، أما قرآن ابن مسعود فبالعكس عدد سوره لا يتعدى مائة وإحدى عشرة سورة حيث كانت تنقصه ثلاث سور، السورة الأولى والسورتين الأخيرتين (1 – 113 – 114)، ثم جاء عنه أيضا وتبقى هناك دائما نقط غامضة، الواحدة منها هي صحة السورة الأولى الفاتحة والسورتين الأخيرتين 113 و114 اللآتي كانت ناقصة في مصحف ابن مسعود.

إن المشكل بقي حتى الآن بدون حل ثم إن مصطلحات الفاتحة يمكن وبدون شك أن تكون يهودية أو مسيحية، أما السورتان الأخيرتان فليستا إلا صيغ التعزيم، وأي من هذه السور الثلاث لا علاقة لها ألبتة بموضوع إسلامي "(420).

يقول إدوارد مونتيه:

«D'après le Fihrst, il y aurait 85 sourates de la Mecque, et 28 de Médine, ce qui donne un total de 113 sourates. Il est probable, d'après ce nombre, que la sourate 1, qui une prière de la dernière (sourate 114) ».

"حسب الفهرست عدد السور المكية خمسة وثمانون والمدنية ثمانية وعشرون، المجموع مائة وثلاثة عشرة سورة، ومن المحتمل حسب هذا العدد أن تكون السورة الأولى دعاء، ولا تعد سورة، وكذلك الحال بالنسبة للسورة الأخيرة"(421).

الــــــرد :

مما لاشك فيه أن المستشرقين عموما والفرنسيين خصوصا، في كل موضوع من موضوعات القرآن التي يناقشونها ويدرسونها هدفا وغاية يدور فلكها حول الهدف الأكبر الذي هو إثبات بشرية هذا الكتاب بكل الوسائل مستغلين أي هفوة تبدو هنا أو هناك ناسين أو متناسين الموضوعية والنزاهة العلمية التي يتشدقون بها .

وإزاء موضوع ترتيب سور القرآن، نرى أن هدفهم من إثارته، يرمي إلى إظهار التناقض في القرآن الكريم، سواء من حيث الموضوع أو من حيث الأسلوب، وبيان أن هذا الكتاب مفكك الأجزاء، غير متصل الحلقات، وأنه خضع في عملية تأليفه لظروف مختلفة وتأثر مؤلفه بعوامل متباينة، أثرت في نمط تفكيره وفي طريقة كلامه، ومادام الأمر كذلك فيقينا هذا الكتاب كلام بشر وليس كلام إله. فهذا هدف معروف ومألوف لدينا. بل هو الأساس الذي تقوم

---

420 - Islamologie , p. 605 - 607

421 - Mahomet , p. 43 .

عليه الدراسات الاستشراقية للقرآن، وما علينا نحن في هذا المقام إلا أن نبحث على ما يفند هذه الادعاءات ويبطل هذه الأكاذيب بالدليل والبرهان .

وقبل أن نبدأ في الرد، يجدر بنا أن نشير إلى جهود من سبقونا في هذا المجال، حيث ناقشوا هذا الموضوع، وهذه خلاصات ما انتهت إليه مناقشتهم:

"يرجع الباحثون سبب شبهات المستشرقين في هذا الخصوص، إلى اختلاف لغتهم ومباينة فطرهم للفطرة العربية وللذوق العربي وللأساليب الكتابية والبيانية وعدم إلمامهم إلماما كافيا بأحوال العرب في الجاهلية وظروف تنزيل القرآن على النبي في مكة والمدينة وتشعب الحوادث والواقعات العامة والخاصة وعدم معرفتهم بأصول المسائل وملابسات الأحوال التي تناولها القرآن منذ أربعمائة وألف سنة، وعدم الوقوف على أسباب النزول كثيرا ما يوقع في اللبس والإبهام"[422] .

لما جاء المستشرقون إلى البحث في هذا الموضوع أداروا ظهورهم عن الروايات الإسلامية ورفضوا الالتزام بمناهج علمائنا في نقد الرواة والروايات وطبقوا مناهجهم النقدية والتاريخية معتقدين في قرارة أنفسهم أنهم سيصلون بها إلى نتائج مهمة ستساعد القارئ على قراءة القرآن بيسر، بل ويتخطى القلق – كما قال بلاشير – الذي ينتابه عند اطلاعه على نص يغلب عليه الغموض.

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين: **" وآفة المستشرقين أنهم يسوقون مجرد الاحتمالات العقلية مساق الحقائق المسلمة، ويقيسون الماضي الذي لم يكن جزءا من تاريخهم وبالتالي لم يكن من مكونات ضمائرهم بمقاييس حاضرهم مع تباين المكان والزمان، والعقلية والروح، وآية ذلك أنهم يغضون أبصارهم عن الطابع الميتافيزيقي الذي نشأت في ظله أحداث التاريخ القرآني على عهد النبوة ويرفضون مناهج المسلمين في نقد الأخبار ورواتها"[423] .**

---

422 – أنظر: القرآن والمستشرقون لرابح لطفي جمعه، ص 71 – 77

423 – تاريخ القرآن، ص 7 .

ومن الخطأ أن يظن المستشرقون أن بإمكانهم ترتيب القرآن زمنيا طالما أنهم ينكرون ويجحدون الروايات الصحيحة في هذا الترتيب.

ولعل في هذا رد كاف على ما ادعاه J.Pearson من أن المستشرقين كانوا في ترتيب القرآن يعتمدون على الرواية الإسلامية، حين قال:

«On remarque dans ces datations une combinaison de dépendance excessive à l'égard du système musulman traditionnel» .

"نلاحظ في تواريخهم تنسيق متعلق إلى حد بعيد بنظام الرواية الإسلامية"[424].

فهذه الحقيقة لا يمكن أن ننكرها على بعض المستشرقين مثل إدوارد **مونتيه**، لكنهم لم يجهدوا أنفسهم في تنخيل هذه الروايات لتمييز صحيحها من سقيمها، فأخذوا الرواية الإسلامية كمسلمة لا تقبل الجدل، وهذه قناعة خاطئة.

ويجب أن نلفت النظر هنا إلى الجهد المضني والدقيق في الوقت نفسه الذي بذله العلماء المسلمون في ضبط الرواية الصحيحة، ووضعوا لذلك قواعد خاصة في إطار ما اصطلحوا على تسميته **"علم الجرح والتعديل"**، وكان ذلك قائما بالأساس على قاعدة: **" إن كنت ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل ".**

ولقد تحدث الدكتور **فضل حسن عباس** عن تقسيم سور القرآن الكريم إلى مراحل، وقال: **" إن ذلك أمر يصطدم مع واقع الأحداث، ومسلمات العقل وصحيح الرواية، ذلك أن المدة التي جهر بها النبي عليه وآله الصلاة والسلام، بالدعوة إلى الله من أن نزل عليه قوله سبحانه (قم فأنذر)[425] كانت متشابهة دون أن يكون بينها خلافات جوهرية رئيسية، ولو أن هؤلاء المستشرقين أفادوا مما قرره العلماء المسلمون من الاعتماد على صحيح الروايات ودرسوا القضايا القرآنية دراسة موضوعية لوصلوا إلى نتائج غاية في الدقة والإبداع والروعة"[426].**

---

424 - Encyclopedie de l'Islam , p. 418 .

425 - سورة المدثر، الآية 2 .

426 - قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ص 191 .

أما ما يقال عن الروايات التي جاءت بأنه كان لأبي رضي الله عنه، مصحف بترتيب النزول، وأن عدد سوره مائة وستة عشرة سورة، يقول محمد أبو زهرة: " **لنا في الإجابة عن ذلك طريقان:**

أولهما: أن نعتبر ما عليه الكثرة التي تكاد تكون إجماعا يؤخذ به، ويكون ذلك الإجماع دليلا على ضعف ما عداه وأنه لا يؤخذ به لعدم صحة السند.

ثانيهما: إننا نقول إن ذلك كان قبل العرضة الأخيرة، وفي العرضة الأخيرة وضعت السور في مواضعها"[427].

أما بالنسبة لعدد سور مصحف أبي رضي الله عنه، فإننا نجد الدكتور الشحات السيد زغلول قد أول الموضوع اهتماما خاصا، عندما قام باستعراض ترتيب السور في مصحف أبي كما جاء في فهرست ابن النديم، والإتقان للسيوطي. ورأى أن عدد السور كما ورد في قائمة ابن النديم يبلغ مائة وأربعة سورة، لكن مصحف أبي يتضمن مائة وستة عشر سورة بزيادة ما يقال إنهما سورتان وهما الخلع والحفد عن المصحف، وعلى ذلك فإنها قد أغفلت سور: العنكبوت ولقمان والدخان والذاريات والطور والقمر والتحريم والمعارج والمزمل والمدثر والبلد والعصر .

وعدد السور كما ورد في مصحف أبي في قائمة السيوطي مائة وتسع سور لكن مصحف أبي فيه مائة وستة عشر سورة كما ذكرنا آنفا بزيادة ما يقال إنهما سورتان – الخلع والحفد -، إلا أن ترتيب السيوطي أغفل سور: إبراهيم والفرقان وفاطر والزخرف والقلم والإنسان والبروج .

وبعدها استنتج الدكتور الشحات زغلول أنه " **من الصعب أن نضع ثقتنا في إحدى القائمتين فبديهي أنهما لا يقومان على المصحف الأصلي والسبب في ذلك لا يقف عند مجرد اختلاف ترتيب السور وتضاربه فيهما، وإنما لما في كل منهما من التزيد والتنقص، فسورتا الخلع والحفد ليستا من القرآن في**

---

427 – المعجزة الكبرى القرآن، ص 47 .

شيء، ثم إن تلك السور التي أغفلتها قائمة الفهرست، والتي أغفلتها قائمة السيوطي قد أسقطت من مجموع سور القرآن عند كل منهما"(428) .

وبعد الذي رأيناه من اجتهادات هؤلاء الباحثين في تفنيد مزاعم المستشرقين، يظهر لنا أن الموضوع ما يزال في حاجة إلى إضاءات أخرى على ما قالوه، ذلك لما تيسر لنا من مصادر ومراجع في هذا الموضوع، وسنحاول أن نتوسع في هذا الموضوع حتى يمكننا الإحاطة بجميع الملابسات والقضايا التي بإمكانها أن تسعفنا في أن يكون ردنا مفحما .

1 – ترتيب سور القرآن:

إن المتتبع لتاريخ القرآن، يستبين أن هناك خلافا حقيقيا وفعليا بين ترتيب القرآن وترتيب النزول، ولقد شغل هذا الاختلاف بال العلماء المسلمين قديما وبال المستشرقين حديثا حين ثار بينهم السؤال التالي: هل ترتيب القرآن توقيف من الله أم اجتهاد من الصحابة ؟

في الحق يمثل هذا السؤال جوهر الخلاف بين العلماء المسلمين وكذا بين المستشرقين، وإن كان المستشرقون قد تحرروا فعلا من هذا الخلاف نهائيا بأن أعلنوا أن ترتيب القرآن ترتيب مفتعل ومصطنع أحدثه زيد وأصحابه، وراحوا على إثر ذلك يبحثون عن ترتيب آخر يتماشى مع ترتيب النزول مقسمين القرآن حسب الموضوع وحسب الأسلوب إلى مراحل، في حين استمر الخلاف بين العلماء المسلمين، وإن كان الجمهور قد ذهب إلى أن ترتيب القرآن توقيفي من الله تولاه النبي صلى الله عليه وسلم، بنفسه .

يقول أبو بكر بن الأنباري: **" أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرقه في بضع وعشرين، فكانت السور تنزل بأمر يحدث، والآية جوابا لمستخبر، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، على موضع الآية**

---

428 - أبي بن كعب الرجل والمصحف، ص 186

والسورة، فاتساق الآيات والحروف كلهم عن النبي، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن"[429].

وقال ابن الحصار: **" ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي"[430].**

وقال بدر الدين الزركشي: **" هذا الترتيب كان منه صلى الله عليه وسلم، بتوقيف لهم على ذلك، وإن هذه الآية عقب تلك فثبت أن سعي الصحابة في جمعه في موضع واحد، لا في ترتيب فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب الذي هو في مصاحفنا الآن"[431].**

وقال أبو إسحاق الشاطبي: **" هو ترتيب بالوحي لا مدخل فيه لآراء الرجال"[432].**

واستدل **السيوطي** على أن ترتيب سور القرآن توقيفي إلهي، بأن جميع السور متصلة بعضها ببعض اتصالا محكما ومتماسك الحلقات والأطراف، حتى صارت كل سورة لا غنى لها عما قبلها، ولا يستغني عنها ما بعدها، يقول: **"قد ظهر لي بحمد الله وجوه من هذه المناسبات:**

أحدها: إن القاعدة التي استقر بها القرآن: إن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها وشرح له، وإطناب لإيجازه. وقد استقر معي في غالب سور القرآن طويلها وقصيرها، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجالات الفاتحة.

الوجه الثاني: إن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان، فعقب بسورة البقرة ...

---

429 – أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 1 ص 176 .

430 – نفس المصدر، ج 1 ص 177 .

431 – البرهان في علوم القرآن، ج 1 ص 236 .

432 – الموافقات في أصول الشريعة، ج 3 ص 414 .

الوجه الثالث: إن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ولهذا سميت في أثر فسطاط القرآن الذي هو: المدينة الجامعة، فناسب تقديمها على جميع سوره .

الوجه الرابع: إنها أطول سورة في القرآن، وقد افتتح بالسبع الطوال (هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، ويونس) فنسب البداءة بأطولها.

الوجه الخامس: إنها أول سورة نزلت بالمدينة، فناسب البداءة بها، فإن الأولية نوعا من الأولوية.

الوجه السادس: إن سورة الفاتحة كما اختتمت بالدعاء للمؤمنين، بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالا، ختمت سورة البقرة بالدعاء ألا يسلك بهم طريقهم في المؤاخذة بالخطأ والنسيان ... "[433].

هذا بالإضافة إلى أن هذا الترتيب كان على العرضة الأخيرة التي قرأ بها النبي صلى الله عليه وسلم، القرآن على جبريل عليه السلام، مرتين في السنة التي توفي فيها.

أما ما جاء في الروايات من أن مصحف أبي رضي الله عنه[434] وابن مسعود[435] كانا بغير هذا الترتيب، والظاهر أنه لم يبلغ ابن مسعود وأبيا

---

433 – أسرار ترتيب القرآن، ص 78 - 83

434 – قال الفضل بن شاذان: أخبرنا الثقة من أصحابنا قال: كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب في البصرة في قرية يقال لها قرية الأمصار، على رأس فرسخين عند محمد بن عبد الملك الأنصاري، أخرج إلينا مصحفا، وقال هو مصحف أبي رويناه عن آبائنا، فنظرت فيه فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل، وعدد الآي فأوله فاتحة الكتاب: البقرة. النساء. آل عمران. الأنعام. الأعراف. المائدة. الذي التبسته وهي يونس. الأنفال. التوبة. هود. مريم. الشعراء. الحج. الكهف. النحل. الأحزاب. بني إسرائيل. الزمر. حم تنزيل. طه. الأنبياء. النور. المؤمنين. حم المؤمن. الرعد. طسم القصص. طس سليمان. الصافات. داود. ص. يس. أصحاب الحجر. حم عسق. الروم. الزخرف. حم السجدة. سورة إبراهيم. الملائكة. الفتح. محمد صلى الله عليه وسلم. الحديد. الظهار. تبارك. الفرقان. ألم تنزيل. نوح. الأحقاف. ق. الرحمن. الواقعة. الجن. النجم. ن. الحاقة. الحشر. الممتحنة. المرسلات. عم يتساءلون. الإنسان. لا أقسم. كورت. النازعات. عبس. المطففين. إذا السماء انشقت. التين. اقرأ باسم ربك. الحجرات. المنافقون. الجمعة. النبي عليه السلام. الفجر. الملك. الليل إذا يغشى. إذا السماء انفطرت. الشمس وضحاها. السماء ذات البروج. الطارق. سبح اسم ربك الأعلى. الغاشية. عبس مكرر. وهي أهل الكتاب. لم يكن أول مكان. الذين كفروا. الصف. الضحى. ألم نشرح لك. القارعة. التكاثر. الخلع، ثلاث آيات. الجيد ست

رضي الله عنهما، ما استقر في العرضة الأخيرة كما لم يبلغهما نسخ ما أثبتاه في مصحفيهما من القراءات الشاذة التي تخالف المصحف العثماني، ولذلك كتب أبي في مصحفه سورة الحفد، وسورة الخلع، وهما منسوختان(436) .

قال القرطبي :**"قال قوم من أهل العلم: إن تأليف سور القرآن على ما هو عليه في مصحفنا كان على توقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، أما ما روي من اختلاف مصحف أبي وعلي وعبد الله فإنما كان قبل العرض الأخير. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رتب لهما تأليف السور بعد أن لم يكن فعل ذلك"**(437).

ثم قال :**" ومما يدل على أنه لا يجب إثباته في المصاحف على تاريخ نزوله ما صح وثبت أن الآيات كانت تنزل في المدينة فتوضع في السور المكية، ألا ترى قول عائشة رضي الله عنها: وما نزلت سورة البقرة والنساء**

آيات. اللهم إياك نعبد، وآخرها، بالكفار ملحق. اللمز. إذا زلزلت. العاديات. أصحاب الفيل. التين مكرر. الكوثر. القدر. الكافرون. النصر. أبي لهب. قريش. الصمد. الفلق. الناس. فكذلك مائة وستة وعشر سورة. أنظر: الفهرست لابن النديم، ص 29 - 30

435 - قال الفضل بن شاذان: وجدت في مصحف عبد الله بن مسعود تأليف سور القرآن على هذا الترتيب: البقرة. النساء. آل عمران. المص. الأنعام. المائدة. يونس. براءة. النحل. هود. يونس. بني إسرائيل. الأنبياء. المؤمنون. الشعراء. الصافات. الأحزاب. القصص. النور. الأنفال. مريم. العنكبوت. الروم. يس. الفرقان. الحج. سبأ. الملائكة. إبراهيم. ص. الذين كفروا. القمر. الزمر. الحواميم. المسبحات. حم المؤمن. الزخرف. السجدة. الأحقاف. الجاثية. الدخان. إنا فتحنا. الحديد. سبح. الحشر. التنزيل. السجدة. ق. الطلاق. الحجرات. تبارك الذي بيده الملك. التغابن. المنافقون. الجمعة. الحواريون. قل أحي. إنا أرسلنا نوحا. المجادلة. الممتحنة. يا أيها النبي لم تحرم. الرحمن. النجم. الذاريات. الطور. اقتربت الساعة. الحاقة. إذا وقعت. ن والقلم. النازعات. سئل سائل. المدثر. المزمل. المطففين. عبس. هل أتى على الإنسان. القيامة. المرسلات. عم يتسألون. إذا الشمس كورت. إذا السماء انفطرت. هل أتاك حديث الغاشية. سبح اسم ربك الأعلى. والليل إذا يغشى. الفجر. البروج. انشقت. اقرأ باسم ربك. لا أقسم بهذا البلد. والضحى. ألم نشرح لك. والسماء والطارق. والعاديات. أرأيت. القارعة. لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب. والشمس وضحاها. والتين. ويل لكل همزة. لإيلاف قريش. التكاثر. إنا أنزلناه. والعصر لقد خلقنا الإنسان لخسر وإنه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا وتواصوا بالتقوى وتواصوا بالصبر. إذا جاء نصر الله. إنا أعطيناك. قل للذين كفروا لا أعبد ما تعبدون. تبث يدا أبي لهب وقد تب ما أغنى عنه ماله وما كسب وامرأته حمالة الحطب. الله الواحد الصمد. فذلك مائة سورة وعشر سور. أنظر: ابن النديم، المصدر السابق، ص 29.

436 - أنظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي، ص 73 .

437 - الجامع لأحكام القرآن، ج 1 ص 60 - 61

إلا وأنا عنده – تعني بالمدينة – وقد قدمنا في المصحف على ما نزل قبلهما من القرآن بمكة، ولو ألفوه على تاريخ النزول لوجب أن ينقضي آيات السور[438].

يقول ابن الجوزي: **"وجملة سوره على ذكر أبي بن كعب مائة وست عشرة سورة، وكان ابن مسعود يسقط المعوذتين فنقصت جملته سورتين عن جملة زيد وكان أبي بن كعب يلحقهما ويزيد إليهما سورتين: الحفد والخلع، إحداهما (اللهم إنا نستعينك ونستغفرك) وهي سورة الخلع**[439]. **والأخرى (اللهم إياك نعبد)**[440] **فزادت جملته على جملة زيد سورة وعلى جملة ابن مسعود أربع سور، وكل أدى ما سمع، ومصحفنا أولى بنا أن نتبع"**[441].

ولعل سبب إسقاط ابن مسعود رضي الله عنه، المعوذتين من مصحفه يرجع إلى أنهما لا تنسيان و" **إنما يكتب القرآن ليستذكر بالنظر فيه بحيث لا يخشى النسيان ولا يحتاج فيه إلى الاستذكار فلا حاجة إلى كتابته"** [442].

أما عن سبب" **إضافة أبي بن كعب سورتي الحفد والخلع في مصحفه، فقد كتبهما لا على أنها من القرآن بل ليحفظها ولا ينساها احتياطا، لأنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقنت بهما في صلاة الوتر"** [443].

---

438 – نفس المصدر، ونفس المكان .

439 – سورة الخلع هي: (**اللهم إنا نستعينك ونستهديك، ونستغفرك، ونتوب إليك، ونؤمن بك، ونتوكل عليك، ونثني عليك الخير كله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك**). وإنما سميت بسورة الخلع لقوله: (**نخلع ونترك من يفجرك**).

440 – سورة الحفد: (**اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك، إن عذابك الجد بالكفار ملحق**). وإنما سميت سورة الحفد لقوله: (**وإليك نسعى ونحفد**)، والحفد هو السرعة.

441 – عجائب علوم القرآن، ص 123 – 124

442 – أنظر: مقدمتان في علوم القرآن لابن عطية ومؤلف مجهول، ص 35 .

443 – نفس المصدر، ص 75 .

ويذكر ابن قتيبة سببا آخر، حين قال: "**جحده – أي ابن مسعود – سورتين من القرآن العظيم، يعني " المعوذتين "، فإن لابن مسعود في ذلك سببا، والناس قد يظنون ويزلون، وإذا كان هذا جائزا على النبيين والمرسلين فهو على غيرهم أجوز. وسببه في تركه، إثباتهما في مصحفه أنه كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم، يعوذ بهما الحسن والحسين، ويعوذ غيرهما كما كان يعوذهما ب" أعوذ بكلمات الله التامة" فظن أنهما ليستا من القرآن فلم يثبتهما في مصحفه**"[444].

ثم يقول :" **وبنحو هذا السبب أثبت أبي بن كعب في مصحفه، افتتاح دعاء القنوت، وجعله سورتين لأنه كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يدعو بهما في الصلاة، دعاء دائما، فظن أنه من القرآن**"[445].

في حين ينفي القاضي أبو بكر أن يكون ابن مسعود أسقط من مصحفه شيئا من كلام الله، كما ينفي على أبي إضافته شيئا مما ليس من القرآن، وقال: " **فلم يصح عنه – ابن مسعود – أنهما ليسا بقرآن، ولا حفظ عنه أنه حكهما وأسقطهما من مصحفه لعلل وتأويلات**"[446].

ثم قال: " **ولا يجوز أن يضاف إلى عبد الله أو إلى أبي بن كعب أو زيد أو عثمان أو علي، أو واحد من ولده أو عترته جحد آية أو حرفا من كلام الله وتغييره أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الآحاد، وأن ذلك لا يحل ولا يسمع، بل لا تصح إضافته إلى أدنى المؤمنين في عصرنا، فضلا عن إضافته إلى رجل من الصحابة**"[447].

---

444 – تأويل مختلف الحديث، ص 30 – 31

445 – نفس المصدر، ص 31 .

446 – أنظر: الزركشي، المصدر السابق، ج 2 ص 127 .

447 – نفس المصدر، ج 2 ص 128 .

ويقول ابن حزم: " **وكل ما روي عن ابن مسعود من أن المعوذتين وأم القرآن لم تكن في مصحفه فكذب موضوع لا يصح وإنما صحت عنه قراءة عاصم عن زر بن حبيش عن ابن مسعود، وفيها أم القرآن والمعوذتان**"[448].

2 - مضمون القرآن وأسلوبه:

عندما قسم المستشرقون الفرنسيون القرآن إلى مراحل، حاولوا أن يكون تقسيمهم هذا مبنيا على التطور والتغيير الذي حدث بين كل مرحلة ومرحلة سواء من حيث المضمون أو من حيث الأسلوب، وبدى ذلك واضحا عند **ريجي بلاشير** الذي ألقى بكل ما عنده من علم بالقرآن على هذا الموضوع ليبين للقارئ الفرق الشاسع بين موضوعات القرآن، والتباين الواضح بين أساليبه، بحيث لا يربط أحدها صلة بالآخر، وقد استأثر به الحماس حتى أفقده صوابه العلمي واتزانه الموضوعي، عندما ادعى أن هناك بعض السور القرآنية ليس فيها ترابط تام بين موضوعاتها، ومثل لذلك بسورة النور .

وحقيقة الأمر فيما يتعلق بهذه النقطة، أن جميع سور القرآن تشكل سلسلة مترابطة الحلقات لا انفصام بينها، وقد اجتهد السيوطي في إيضاح هذا الترابط في كتابه "**أسرار ترتيب القرآن**" متتبعا سور القرآن سورة سورة، ورأى" **أن كل سورة كالمتممة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعده**"[449].

المكي والمدني:

لقد فسر العلماء هذين المصطلحين على ثلاثة وجوه:

أولها: اعتبار الزمان، أي زمن النزول، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، وإن كان بغير مكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة. وهذا أرجح الآراء وأشهرها .

الثاني: اعتبار المكان، أي مكان النزول، فالمكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة، ويدخل في مكة ضواحيها، فيعتبر مكيا ما

---

448 – المحلى، ج 1 ص 16 .

449 – أسرار ترتيب القرآن، ص 162 .

أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، بمنى وعرفات والحديبية، كما يدخل في المدينة ضواحيها، فيعتبر مدنيا ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم، ببدر واحد وسلع. لكن هذا الرأي لا يفيد الحصر في جميع الحالات، فهناك آيات أنزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في غير مكة والمدينة، فقد نزل عليه الوحي في تبوك و بيت المقدس .

الثالث: اعتبار المخاطب، فالمكي ما وقع خطابا لأهل مكة، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة، وحاول أصحاب هذا الرأي أن يضعوا له بعض الضوابط قائلين: إن ما صدر في القرآن بصيغة:(**يا أيها الناس** (أو بصيغة:) **يا بني آدم** (فهو مكي، لأن الكفر كان غالبا على أهل مكة، أما ما صدر من القرآن بصيغة:) **يا أيها الذين آمنوا** (فهو مدني، لأن الإيمان كان غالبا على أهل المدينة. لكن هذا الرأي لا ينسحب على جميع آي وسور القرآن الكريم، فهناك آيات كثيرة ليس فيها خطاب لأي من هذين الفريقين، كما أن هناك سور مدنية جاء في ثناياها صيغة:) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، مثل سورة البقرة جاء فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ (450)، وافتتحت سورة النساء وهي مدنية بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾(451)، ومن ناحية أخرى جاء في بعض السور المكية صيغة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، مثل سورة الحج، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾(452).

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: إن تقسيم القرآن الكريم إلى مكي ومدني يرجع في أصوب الآراء وأرجحها وأشهرها إلى زمن النزول(453) .

ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم، في بيان المكي والمدني شيء، ولم يفعل ذلك، ولم يأمر به، لكن مرجع معرفة المكي والمدني، هو الصحابة

---

450 – سورة البقرة، من الآية 21 .

451 – سورة النساء، من الآية 1 .

452 – سورة الحج، الآية 77 .

453 – أنظر: الاتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج 1 ص 24 .

رضوان الله عليهم، الذين شهدوا الوحي، وحضروا وقت تنزيله ومكانه، حتى إذا ما سئل أحدهم عن آية من القرآن الكريم، ذكر أنها نزلت في وقت كذا أو مكان كذا، فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: **" والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت. وأين نزلت. ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"**[454].

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني: **"إنما يرجع في معرفة المكي والمدني إلى حفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم، في ذلك قول لأنه لم يؤمر به، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول"**[455]

وفوائد هذا العلم مهمة جدا، منها:

أولا: معرفة الناسخ والمنسوخ فيما إذا وردت آيتان أو آيات من القرآن الكريم في موضوع واحد، وكان الحكم في إحدى هاتين الآيتين أو الآيات مخالفا للحكم في غيرها، ثم عرف أن بعضها مكي وبعضها مدني، فإنا نحكم بأن المدني منها ناسخ للمكي نظرا إلى تأخر المدني عن المكي .

ثانيا: معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام، وهذا يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد.

ثالثا: الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالما من التغيير والتحريف. ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام، حتى إنهم يعرفون ما نزل منه قبل الهجرة وما نزل بعدها، وما نزل بالحضر، وما نزل بالسفر، وما نزل بالنهار، وما نزل بالليل، وما نزل بالشتاء، وما نزل بالصيف إلى غير ذلك ...

---

454 – أنظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ج 1 ص 4 .

455 – نكت الانتصار، ص 190 .

رابعا: الاستفادة من أسلوب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله فهو أسلوب يشتد ويلين ويفصل ويجمل، ويعد ويتوعد، ويرغب ويرهب، ويوجز ويطنب، حسب أحوال المخاطبين، وهذا من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم .

خامسا: استخراج سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك بمتابعة أحواله في مكة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها واقتداء الدعاة بهذا المنهج النبوي الحكيم في الدعوة .

سادسا: الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، فإن معرفة مكان النزول يعين على فهم المراد بالآية ومعرفة مدلولاتها وما يرد فيها من إشارات أحيانا[456].

هذا وقد ذكر الأئمة من علماء المسلمين مميزات كل من المكي والمدني، وبينوا ذلك بيانا شافيا كافيا معتمدين في ذلك على صحة الرواية والقياس .

أ ـ ضوابط المكي ومميزاته :

1- الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده، وإثبات الرسالة، وإثبات البعث والجزاء، وذكر الجنة ونعيمها، والنار وعذابها.

2- حملة شعواء على الشرك والوثنية وعلى الشبهات التي تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنية.

3- مجادلة المشركين بالبراهين العقلية، والآيات الكونية .

4- إنه فتح عيونهم على ما في أنفسهم من شواهد الكون من أعلام الرشد .

5- إنه تحدث عن عاداتهم القبيحة، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء، والقتل ووأد البنات، واستباحة الأعراض، وأكل أموال اليتامى ظلما .

---

456 - أنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني، ج 1 ص 195 .

6- وسع الأسس العامة للتشريع والفضائل الخلقية، وشرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع، شرحا عجيبا كره إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

7- ذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة، زجرا لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى يصبر على آذاهم ويطمئن على الانتصار عليهم .

8- إنه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه، حتى جاءت السور المكية قصيرة. وقصر الفواصل مع قوة الألفاظ وإيجاز العبارة، بما يصح الآذان، ويشتد فزعه على المسامع، ويصعق القلوب، ويؤكد المعنى بكثرة القسم، كقصار المفصل إلا نادرا. ذلك لأن القوم في مكة كانوا معاندين مستكبرين لا يريدون سماع القرآن، بل كانوا إذا شرع الرسول صلى الله عليه وسلم، في قراءة القرآن يتنادوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[457] .

9- كل سورة فيها سجدة فهي مكية، وهي أربع عشرة سورة هي: الأعراف، والرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، وفي الحج سجدتان، والفرقان، والنمل، والسجدة، وفصلت، والنجم، والانشقاق، والعلق، أما سورة ص فيستحب فيها السجود، حيث قال الله عز وجل حكاية عن نبي الله داوود عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ ﴾[458]، وليست من عزائم السجود، وزاد بعضهم آخر سورة الحجر، وفي سورة الرعد خلاف[459] .

10- كل سورة فيها لفظ كلا فهي مكية، ولا ترد إلا في النصف الأخير من القرآن، وذكرت ثلاثا وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة،

---

457 - سورة فصلت، من الآية 26 .

458 - سورة ص، من الآية 24 .

459 - أنظر: الإتقان للسيوطي، ج 1 ص 310 .

وحكمة ذلك أن كلا للردع والزجر وهذا إنما يكون للمعاند المستكبر فهو مناسب لمخاطبة المشركين في مكة[460] .

11- كل سورة مبدوءة بقسم وهي خمس عشرة سورة، وهي: الصافات، والذاريات، والطور، والنجم، والمرسلات، والنازعات، والبروج، والطارق، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والتين، والعاديات، والعصر .

12- كل سورة فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرۡكَعُوا وَٱسۡجُدُوا وَٱعۡبُدُوا رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُوا ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ ﴾[461] .

13- كل سورة في أولها حروف التهجي مثل ألم وحم وغيرها سوى البقرة وآل عمران، فإنهما مدنيتان بالإجماع، وفي الرعد خلاف .

14- كل سورة من المفصل[462]، فهي مكية .

15- كل سورة فيها قصة إبليس فهي مكية سوى البقرة[463] .

ب - ضوابط المدني ومميزاته :

1 - كل سورة تتحدث عن دقائق التشريع، وتفاصيل الأحكام، فهي مدنية، لأن القرآن يخاطب في المدينة - غالبا - مجتمعا إسلاميا لذلك غلب على القرآن المدني تقرير الأحكام التشريعية للعبادات والمعاملات والحدود والفرائض والعقوبات وكل ما تتطلبه ظروف الحياة الجديدة من تنظيم شؤون السياسة والحكم عبر ترسيخ قاعدتي:

---

460 - نفس المصدر، ج 2 ص 221 .

461 - سورة الحج، الآية 77 .

462- وهي ما ولي المثاني من قصار السور سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة، وقيل لقلة المنسوخ منه، ولهذا يسمى بالمحكم أيضا، كما روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: "إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم، وآخره سورة الناس بلا نزاع". أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 3 ص 27 .

463 - السيوطي، المصدر السابق، ج 1 ص 180 .

الشورى والعدل، وتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم في داخل المدينة وخارجها، وقت السلم والحرب .

2 – كل سورة فيها إذن بالجهاد، وبيان لأحكامه فهي مدنية .

3 – كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت وهي مكية، لكن الآيات التي تذكر المنافقين في هذه السورة آيات مدنية، وكان طبيعيا أن يذكر المنافقون في الآيات المدنية لأنهم كانوا يمثلون مشكلة للمجتمع الإسلامي، فتحدث القرآن المدني عن طبائعهم وهتك أستارهم، وبين خطرهم على الإسلام والمسلمين، وكشف عن وسائلهم ومكائدهم وخباياهم ومخططاتهم للقضاء على الأمة .

4 – كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية، حيث عاش بين المسلمين طائفة من أهل الكتاب وخاصة اليهود الذين كانوا يمكرون ويكيدون للإسلام وللمسلمين فكشف القرآن في المدينة سرائرهم وأبطل عقائدهم وكشف تحريفهم لديانتهم، وبين بطلان عقائدهم، ودعاهم إلى اعتناق الدين الإسلامي بالحجة والدليل .

5 – الغالب على الآيات والسور المدنية طول المقاطع والسور لبسط الأحكام التشريعية والمعاملات، لأن أهل المدينة الغالب عليهم الإسلام فكانوا يقبلون على سماع القرآن، وينصتون كأن على رؤوسهم الطير، وقال بعض العلماء: **"إن أهل المدينة لم يكن يضاهئون أهل مكة في الذكاء والألمعية، وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان، فيناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يستتبع كثيرا من البسط والإسهاب"**[464].

[464] – أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 1 ص 47 – 48

فالمقام ليس مقام مقارعة ولجاج بل المقام مقام إقبال وإنصات وإذعان يناسبه الاسترسال والإطناب(465).

6 – كل سورة فيها ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فهي مدنية.

على العموم، كان العهد المكي عهد بناء العقيدة، والتصور الشامل الكامل للدنيا والآخرة، والخضوع التام لله، وغرس مفهوم لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، في نفوس الناس، كما وضع الأسس التشريعية لكثير من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وترك التفصيل والبيان للآيات المدنية، فالصلاة مثلا فرضت في مكة، الآيات الأولى في تحريم الخمر نزلت في مكة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾(466).

كذلك لم يخل القرآن المكي من الأدلة والبراهين بل تناولها في أكثر من سورة، مثلا موارد الاستدلال على التوحيد قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

---

465 – أنظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، المصدر السابق، ج 1 ص 196 – 204

466 – سورة النحل، الآية 67.

وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[467].

وقوله تعالى: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[468].

وقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[469].

ومن موارد الاستدلال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، قوله تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[470].

وقد اكتمل هذا البناء الديني وذلك النظام التشريعي والاجتماعي والسياسي في العهد المدني، بعدما كان مشروعا في العهد المكي، واتصلت حلقات هذا الدين. وما

---

[467] – سورة الأنعام، الآيات 74 – 84

[468] – سورة المؤمنون، الآية 91 .

[469] – سورة الأنبياء، الآيات 22 – 30

[470] – سورة العنكبوت، الآيات 48 – 52

لاحظه المستشرقون الفرنسيون من تغير نوعي بين سور العهد المكي والعهد المدني، ما هو إلا تغير ظاهري أحدث بالعكس تكاملا ونضجا وتناسقا بين جميع سور القرآن الكريم، فانظر في القرآن الكريم من أول آية من سورة الفاتحة إلى آخر آية من سورة الناس، لا تجد في موضوعاته خللا، ولا تحس في أسلوبه اضطرابا، وما قد يرى من تنوع في أسلوب القرآن، فهو تابع لتنوع الموضوعات القرآنية وطبيعي والحالة هذه أن يتنوع الأسلوب بين الشدة واللين، والفصل والإجمال تبعا لحال المخاطبين، وهذا هو السر الحقيقي في إعجاز القرآن الكريم، يقول **عبد الفتاح القاضي**: **" جميع الآيات والسور متماسكة الأطراف جيدة السبك، متصل بعضها ببعض اتصالا محكم العرى، لا انفصام لها حتى صارت الآيات والسور آخذا بعضها بحجزة بعض أخذا يفوت المعنى القرآني البليغ بانفكاكه، وكانت كل آية أو سورة بمنزلة الجزء الذي لا قوام لكله إلا به، وكان القرآن العظيم، جميعه بعد التوقيف جملة واحدة، وصارت كل سورة لا غنى لها عما قبلها، ولا يستغني عنها ما بعدها، وكل آية لا يقع موقعها سواها، ولا ريب أن هذه الدرجة العليا للبلاغة التي أخرست البلغاء، وأدهشت الفصحاء والخطباء من العرب أرباب اللسن، وملوك الكلام"**[471].

471 - المصحف الشريف: أبحاث في تاريخه وأحكامه، ص 155 .

المبحث الثاني: آراء المستشرقين الفرنسيين في جمع القرآن وتدوينه

يراد بعبارة " **جمع القرآن** " معنيين:

المعنى الأول: الحفظ في الصدور .

المعنى الثاني: الكتابة في السطور .

بالنسبة لحفظ القرآن في الصدور، فقد أوتيه الرسول صلى الله عليه وسلم، قبل الجميع، فكان عليه السلام سيد الحفاظ وأول الجماع، بحيث كانت تأخذه العجلة في حفظ كلام الله تعالى في حينه، مخافة أن ينفلت منه شيء، فطمئنه الحق سبحانه بقوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾[472] .

ولقد كان لأمية الرسول صلى الله عليه وسلم، دور هام في حفظ القرآن الكريم وضبطه ضبطا محكما.

فمن المعقول جدا، أن يعول الأمي على حافظته فيما يهمه أمره، ويعينه استحضاره وجمعه، خصوصا إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار، ما ييسر له هذا الجمع والاستحضار، و الرسول صلى الله عليه وسلم، في هذا الشأن لم يخرج عن عادة قومه الذين عرفوا بقوة حوافظهم في تسجيل الوقائع والحوادث والأنساب والأشعار. وطبيعي والحالة هذه أن يتجه القوم بحوافظهم القوية تلك إلى حفظ القرآن الذي سلب عقولهم بعذوبة أسلوبه وبراعة تصويره، وقوة بيانه.

يقول محمد عبد العظيم الزرقاني: " **كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة الكاملة، التي منها سرعة الحفظ وسيلان الأذهان حتى كانت قلوبهم أناجيلهم وعقولهم سجلات أنسابهم وأيامهم، وحوافظهم دواوين أشعارهم ومفاخيرهم. ثم جاء القرآن فبهرهم**

[472] - سورة القيامة، الآيتان 16 - 17

بقوة بيانه وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه. واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة"[473].

ومن ثم، كان عدد الذين حفظوا القرآن كثيرا، والدليل على ذلك " **أنه في معركة اليمامة قتل من الكفار جماعة كثيرة قيل سبعمائة، وقيل أكثر وقيل سبعون على قول ثالث"**[474].

ومع ذلك، فقد وجدنا من المستشرقين الفرنسيين من يجادل في عدد الحفاظ معتمدا في ذلك على ما رواه الإمام البخاري من أحاديث في هذا الشأن، يقول بلاشير:

«La tradition n'en connaît que sept I. Mās'ud, Sâlim, Mü âdi. jabal, Wbayy, Zayi. Tabit, Abû-Zayd, Abû-d-Darda ». "

"إن الحديث النبوي لا يعرف للقرآن إلا سبعة من الحفاظ: ابن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء"[475] .

الــــــرد :

لقد خلص الباحثون إلى أن القرآن قد وعته صدور المسلمين وحفظته قلوبهم، وقد تعلق قوم بحديث أنس الذي حصر فيه عدد الحفاظ في أربعة في رواية، وفي خمسة في أخرى مع اختلاف في كل من الروايتين، وتصدى الباحثون لهذا الاعتراض وخرجوا من مباحثهم ومناقشاتهم إلى أن القرآن حفظ

---

473 - المصدر السابق، ج 1 ص 240 .

474- يقول ابن حجر العسقلاني: "كان من شأنها - أي معركة اليمامة - أن مسيلمة ادعى النبوة، وقوى أمده بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، بارتداد كثير من العرب، فجهز إليه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جمع كثير من الصحابة فحاربوه أشد محاربة، إلى أن خذله الله وقتله، وقتل في غضون ذلك من الصحابة جماعة كثيرة". أنظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ج 1 ص 12.

475 - Introduction au Coran , p. 26 .

كله في عهد النبي، وقد تفاوت المسلمون في حفظه، فمنهم من أتم حفظه ومنهم من حفظ بعضه على ما يسرته له سبل العيش والاتصال بالرسول[476].

فبالإضافة إلى ما قاله الباحثون في هذا الصدد، نود أن نضيف أشياء أخرى، انطلاقا مما يسرته لنا بعض المصادر التي تطرقت إلى هذا الموضوع بالذات، فنقول في معرض ردنا على المستشرق الفرنسي **ريجي بلاشير**: إنه قد فاته، أن الأحاديث الواردة في الباب لا تفيد الحصر، فلو أنه رجع إلى تأويلات شراح هذه الأحاديث وتعليقاتهم على ما جاء فيها، لما كان له أن يحصر عدد حفاظ القرآن في ذلك العدد، وإلا فكيف نستسيغ الرواية القائلة إن عدد الحفاظ الذين استشهدوا في معركة اليمامة قد بلغ سبعين شهيدا.

فصحيح أن الإمام البخاري ذكر في باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، نفس العدد في أحاديث ثلاثة متفرقة، الرواية الأولى عن مسروق، ذكر عبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود، فقال: **" لا أزال أحبه سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب"**[477].

والرواية الثانية عن قتادة، قال: **" سألت أنس بن مالك رضي الله عنه، من جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، قال: أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد"**[478].

والرواية الثالثة عن أبي، قال: **" مات النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد"**[479].

476- أنظر: تاريخ القرآن لعبد الصبور شاهين، ص 56 - 57، والاتجاهات الفكرية في التفسير للشحات السيد زغلول، ص 20، والقرآن والمستشرقون لرابح لطغي جمعة، ص79 - 80، وقضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، ص 24

477 - صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج 19 ص 16 .

478 - نفس المصدر، ج 19 ص 18 .

479 - نفس المصدر، ونفس المكان .

وبتجميع هذه الروايات، نصل إلى أن عدد الحفاظ سبعة هم: عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، وأبو الدرداء. لكن منطوق هذه الروايات لا يتفق والوقائع التي حدثت في ذلك الزمان، بل تناقضها وتخالفها تمام المخالفة، وهذا لا يعني أنها ضعيفة، بل هي صحيحة سندا ومتنا .

يقول الكرماني في تعليقه على هذه الروايات: " **فإن قلت كيف نفى عن الغير ومعلوم أن الخلفاء الراشدين وغيرهم لم يكونوا يهملون حفظه، ويقال أن يوم اليمامة قتل سبعون ممن جمع القرآن وكانت اليمامة قريبة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت هذا قاله بناء على ظنه ولا يلزم من عدم علمه بعلمهم عدم علمهم بذلك، أو المراد بالجامعين الذين هم من الأنصار أو بالجمع في العسب واللخاف ونحوهما أو جمع وجوهه واللغات وأنواع القراءات**"[480].

ويقول في موضع آخر معلقا على حديث أنس :" **مفهوم العدد لا ينفي الزائد أو جمعوه حفظا عن ظهر قلب، فإن قلت كيف جمعوه، قلت وقد نزل بعضه بقرب وفاته قلت حفظوا ذلك البعض أيضا قبل الوفاة**"[481].

ويعلق القسطلاني على هذه الروايات قائلا: " **بالجملة يتعذر ضبطهم على ما لا يخفى ولا يتمسك بما في هذه الأحاديث لما ذكرناه، وكيف يكون ذلك مع ما ورد من قتل القراء ببئر معونة ويوم اليمامة لا سيما مع ما في هذه الأحاديث من الاضطراب في العدد والنفي والإطلاق، وليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم**"[482].

---

480 - نفس المصدر، ج 19 ص 18 - 19

481 - نفس المصدر، ج 15 ص 50 - 51

482 - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ج 16 ص 459 .

ويقول الماوردي بخصوص هذا الموضوع: " **وكيف يمكن الإحاطة بأنه لم يكمله سوى أربعة، والصحابة متفرقون في البلاد ! وإن لم يكمله سوى أربعة، فقد حفظ جميع أجزائه منون لا يحصون**"[483] .

وهناك احتمال آخر لورود هذه الأحاديث، " **وهو أن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط، فلا ينفي ذلك عن غير القبيلتين من المهاجرين، لأنه قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج، كما أخرجه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن أنس، قال: افتخر الحيان: الأوس والخزرج، فقال الأوس: منا أربعة: من اهتز له العرش سعد بن معاذ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين خزيمة بن ثابت، ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر، ومن حمته الدبر عاصم بن أبي ثابت، فقال الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم**"[484].

يمكننا أن نستخلص من هذه التعليقات أن عدد حفاظ القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كان كبيرا، إلا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة من الحفظ، بل كانوا على طبقات مختلفة ودرجات متباينة، منهم من يحفظه كله عن ظهر قلب ويجمعه على صفحات صدره، طبعا هؤلاء سيكون عددهم قليلا، قد لا يتعدى سبعة – كما جاء في صحيح البخاري – خصوصا وأن بعض الآيات القرآنية كانت تنزل على الرسول قبل التحاقه بالرفيق الأعلى بأيام قلائل، فكيف يمكن إذن للجمع الغفير من الصحابة أن يلم بحفظه كله ؟ ومنهم من هو مشغول بحوائج الدنيا وتدبير المعاش. ومنهم من يغلب عليه النسيان لضعف حافظته. وعلى هذا يكون ما قاله **بلاشير** لا أساس له من الصحة، وإن حاول أن يجد لفريته سندا مما أورده البخاري في صحيحه من روايات في هذا الباب .

أما المعنى الثاني الذي هو كتابة القرآن في السطور، فقد كان على ثلاثة مراحل رئيسة، المرحلة الأولى كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه

---

483 – أنظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج 1 ص 242 .

484 – أنظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ج 1 ص 201 .

وسلم، والمرحلة الثانية كانت على عهد أبي بكر رضي الله عنه، والمرحلة الثالثة على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولكل مرحلة من هذه المراحل أسباب دعت إلى جمع القرآن وتدوينه :

أ – آراء المستشرقين الفرنسيين في كتابة القرآن على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم :

يبدو أن هناك اتفاقا بين جميع المستشرقين الفرنسيين على أن القرآن لم يكتب كله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أن الذاكرة كانت هي العنصر الأساس لنقل القرآن الكريم، يقول **مونتيه**:

«Les collections antiques du Coran, ou les premiers recueils coraniques. On a dû, très après la mort de Mahomet, réunir les fragments épars du Coran. Il me paraît très probable qu'il a dû y avoir, dans un temps très proche de la mort du Prophète ».

" إن المجموعات القرآنية القديمة جمعت بعد وفاة محمد بوقت قليل، في مقاطع متفرقة، ويظهر لي أنه من المحتمل جدا أن هذا الجمع كان في وقت قريب من وفاة النبي"[485].

ويقول هنري ماسيه:

«À la mort de Mahomet, aucun recueil de textes coraniques n'avait été définitivement établi. Sans doute, un certain nombre des premières révélations ne furent pas conservées; mais d'importants fragments se trouvaient déjà mis par écrit sur des os plats, des feuilles de palmier ou des pierres».

"عند وفاة محمد لم يكن هناك أية مجموعة للنصوص القرآنية قررت بشكل نهائي. وما من شك أن عددا من مجموعة الوحي الأولى لم تكن قد حفظت ولكن شذرات هامة كانت قد سجلت كتابة على عظام مسطحة وأوراق نخيل أو حجارة"[486].

ثم انفرد **بلاشير** بآراء أخرى فيما يخص هذا الموضوع، حيث رأى أن :

---

485 - Mahomet le Coran , p. 40 .
486 - L'Islam , p. 76 .

«C'est semble-t-il, après l'installation de Mahomet à Médine que surgit enfin l'idée de noter sur des matériaux frustes (omoplates de chameaux ou morceaux de cuir) les plus importantes révélations reçues au cours des années précédentes. Ce besoin parait d'ailleurs ne manifester qu'épisodiquement ; il résulte peut-être de ferveur personnelle à l'égard de certains textes contenant des oraisons ou des dispositions juridiques senties comme importantes ; le Prophète favorise ce zèle sans en faire un devoir. En tout état de cause, cette notation des textes est fragmentaire et marquées de divergences ; surtout elle est rudimentaire du fait de la précarité des matériaux et des moyens mis en œuvre »[487].

" الحاجة إلى كتابة القرآن لم تنشأ إلا بعد إقامة محمد في المدينة، وعلى أن الحاجة إلى التدوين لم تظهر فيما يبدو إلا بين الفينة والأخرى، وربما كانت تنشأ عن تحمس شخصي لبعض النصوص التي تشتمل على أدعية أو أحكام تشريعية كانوا يرونها هامة، ولقد شجع النبي حماسة التدوين هذه ولكنه لم يجعلها واجبة، وعلى أي حال فإن هذا التدوين كان جزئيا ومثيرا للاختلاف، كما كان مختلفا على الأخص بسبب عدم ثبات المواد المستعملة لذلك التدوين"[488].

هذا، باختصار شديد هو رأي بعض المستشرقين الفرنسيين، ونحن إذا أمعنا النظر فيه نجده يحتوي على أربعة أفكار رئيسة: الفكرة الأولى: أن القرآن لم يكتب كله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، الفكرة الثانية: أن تدوين القرآن بدأ عند إقامة النبي في المدينة. الفكرة الثالثة: أن كتابة القرآن نشأت عن تحمس شخصي لبعض نصوص القرآن. والفكرة الرابعة: أن التدوين كان مثيرا للاختلاف، كما كان مختلفا على الأخص، بسبب عدم ثبات المواد المستعملة للتدوين.

---

487 - Le Coran , « que sais-je » , p. 19 - 20

488 - القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير، ترجمة: رضا سعادة، ص 29 .

الــرد:

قبل أن نمضي في مناقشة هذه الأفكار نرى من اللازم أن نشير بشكل مقتضب إلى النتائج التي انتهت إليها مناقشة الباحثين في هذا الموضوع، فقد خلص الكثير منهم إلى أن عناية النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضوان الله عليهم، بالنص القرآني لم تقف إبان نزوله عند حد الاهتمام بقراءته وحفظه، بل اعتنوا بكتابته أيضا، وبذلوا في ذلك أقصى جهد بشري ممكن في ضوء إمكانات عصرهم. ولم يمت الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا والقرآن محفوظ في الصدور ومكتوب في السطور، يقول الدكتور **عبدالصبور شاهين**: **"إن النبي صلى الله عليه وسلم، كان شديد الاهتمام بكتابة الوحي، وإثباته عموما، مسجلا أو محفوظا كلما نزل، وقد كانت عملية إثبات النص تتم بالوسيلتين معا أو بأحدهما مع غيبة الأخرى، وقد كان يلقن حفاظ القرآن بنفسه، يدع الكتابة لمن يقومون بمهمتها ممن يتقنون فنها، فلو أنه كان يحسن ذلك لما تردد مرة أو مرات عند غيبة الكاتب، وبخاصة في جوف الليل أن يكتب بنفسه، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يعتمد في هذه الحالة بخاصة وفي سائر الأحوال العامة على الحفظ والتحفيظ"**[489] .

ويقول الدكتور **فضل حسن عباس**: **"إن النبي عليه الصلاة والسلام، حينما كان ينتهي الوحي من رسالته كان يقوم بأمرين اثنين :**

الأمر الأول: أنه يتلو ما أنزل عليه على الصحابة رضي الله عنهم .

الأمر الثاني: أنه كان يملي على كتبة الوحي، وهكذا كانت الكتابة مصاحبة للتلاوة في كل نجم ينزل على الرسول الكريم"[490].

وبعد الذي رأيناه من مناقشة هؤلاء الباحثين، يتبين لنا أنه بالإمكان إضافة أشياء أخرى إتماما للرد وإنصافا للحق .

---

489 - المرجع السابق، ص 52 .

490 - المرجع السابق، ص 170 - 171

نقول: إن همة الرسول صلى الله عليه وسلم، اتجهت منذ مبدأ نزول الوحي عليه إلى حفظه وصيانته من الضياع والإتلاف، فاعتمد في بادئ الأمر على حافظته، لأنها الوسيلة الوحيدة التي يملك زمامها، وعذره في ذلك أنه أمي، كما اعتمد على الكتابة والتدوين، زيادة في الضبط والحفاظ على كلام الله كما أنزل، مع أنه صلى الله عليه وسلم، لم يكلف بكتابته. ومع ذلك حرص على كتابته حرصا شديدا، بحيث كان كلما نزل عليه شيء من القرآن أمر كتاب الوحي بكتابة ما ينزل وقت نزوله .

وكان أن تجمع لديه عدد لا يستهان به من الكتبة، يقول **أبو عبدالله الزنجاني: "كان للنبي كتاب يكتبون الوحي بالخط المقرر وهو النسخي، وهم ثلاثة وأربعون"**[491] .

وقد عكف هؤلاء الكتبة على تدوين ما يملى عليهم من القرآن أولا بأول حتى أتموا كتابته كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول **مصطفى صادق الرافعي: " قبض رسول الله والقرآن في الصدور وفيما كتبوه عليه"**[492] .

ولا يفوتني في هذا المجال، أن أشير إلى ظاهرة ساهمت بشكل فعال في تسهيل عملية تدوين القرآن، ألا **" وهي نزوله منجما في أوقات مختلفة من سائر الأوقات"**[493]، حتى قوي الرسول صلى الله عليه وسلم، على وعيه وفهمه، وتيسرت له كتابته بشكل مضبوط وسليم، يقول **الزركشي: " إنه عليه السلام، كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، ففرق عليه ليبسر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء فإنه كان كاتبا قارئا، فيمكنه حفظ الجميع إذا نزل جملة"**[494] .

---

491 – المرجع السابق، ص 20 .

492 – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 35 .

493 – أنظر: الزركشي، المصدر السابق، ج 1 ص 228 .

494 – نفس المصدر، ج 1 ص 231 .

ويقول ابن فورك: " قيل أنزلت التوراة جملة، لأنها نزلت على نبي يقرأ ويكتب – وهو موسى عليه السلام – وأنزل القرآن مفرقا لأنه أنزل غير مكتوب على نبي أمي"[495].

وبفضل تلك الفسحة الزمنية التي كان يدعها الله سبحانه وتعالى بين تنزيل وتنزيل أمكن للرسول صلى الله عليه وسلم، أن يحفظ القرآن الكريم كله على مكث، وأمكن لأصحابه أن يكتبوه كله أيضا على مكث .

أما بخصوص النقطة التي أثارها **بلاشير** والتي ادعى فيها أن كتابة القرآن لم تبدأ إلا عند إقامة النبي صلى الله عليه وسلم، في المدينة، فنقول: من الأدلة القطعية التي تؤكد كتابة القرآن قبل هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة، ما حوته بعض السور المكية ذاتها من إشارات إلى كتابته في مكة، من هذه السور سورة عبس التي هي مكية باتفاق جمهور علماء المسلمين، حيث يقول الرب عز وعلا: ﴿ **كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾** ﴾[496]، وسورة الواقعة: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾** ﴾[497]، وسورة الفرقان: ﴿ **وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾** ﴾[498].

والأدلة الأخرى، على أن بداية كتابة القرآن كانت في مكة، هو أن الكتابة نفسها كانت شائعة في مكة أكثر منها في المدينة، لأن أهل مكة كانوا مشغولين بالتجارة، أما أهل المدينة فكانوا مشغولين بالزراعة، وطبيعي أن يعتمد أهل مكة على الكتابة لتدوين حساباتهم التجارية وطلبات السوق القريشية

---

495 – نفس المصدر، ونفس المكان .

496 – سورة عبس، الآيات 11 - 16

497 – سورة الواقعة، الآيات 77 - 80

498 – سورة الفرقان، الآية 5 .

وغيرها، يقول بطرس البستاني: **" كانوا يعتمدون عليها – أي الكتابة – في حاجاتهم الاقتصادية لا لتدوين شعرهم أو نثرهم"**[499].

لذلك لما انتصر المسلمون على كفار قريش في غزوة بدر وأسر من القريشيين جماعة كان من بينهم من يتقن الكتابة، قبل النبي صلى الله عليه وسلم، أن يفدي كل واحد منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة، ومن ثم انتشرت الكتابة بين المسلمين .

إلى جانب ذلك، هناك قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث دخل على أخته فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها، وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو رضي الله عنه، يوما فوجد عندهما صحيفة من القرآن كان **الخباب بن الأرت** رضي الله عنه، يقرئهما منها سورة طه. علما أن إسلام عمر كان في السنة السادسة من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، أي قبل الهجرة بأربع سنوات أو خمس...[500]**"ورغم ذلك فإن عدد كتبة الوحي بمكة لم يكن من الكثرة بمكان، كما أن مهمة الكتابة ذاتها، لم تأخذ الطابع الرسمي إلا في العهد المدني، ومع ذلك لم يتوان الصحابة المكيون منذ البداية، في تسجيل الآيات القرآنية التي وصلتهم في مخطوطات شخصية لاستعمالهم الخاص"**[501] .

أما ما ادعاه **بلاشير** أن الكتابة نشأت عن تحمس شخصي لبعض نصوص القرآن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يلزم بها أحدا من الصحابة، فهذا خطأ .

فكتابة القرآن لم تكن لتصدر عن رغبة شخصية من الرسول صلى الله عليه وسلم، يكتبه متى شاء وينصرف عن كتابته متى شاء، أو تحمسه بكتابة بعض النصوص القرآنية التي توافق ميوله الشخصية كالأدعية والآيات التشريعية، وإنما كان عملا مهما في الرسالة يتحتم القيام به. فقد أصبحت كتابة

---

499 – أبناء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ج 1 ص 253 .

500 – أنظر: سيرة الرسول لابن هشام، ج 1 ص 366 – 367

501 – أنظر: مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عبد الله دراز، ص 34 – 35

القرآن في المصاحف مسألة ضرورية للنبي حتى يطمئن على نفسه فيما يبلغه عن ربه.

ومما ينفي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، هذه الفرية ما رواه **أبو داود السجستاني** عن خارجة بن زيد أنه قال: " **دخل نفر على زيد ابن ثابت فقالوا: حدثنا بعض حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: ماذا أحدثكم؟ كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي**"[502] .

فمنطوق هذه الرواية، يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن يتخير النصوص ليكتب ما شاء منها، ويدع ما شاء، فلو كان الأمر كذلك، لكان القرآن الذي بين أيدينا اليوم كله أدعية وآيات تشريعية، وإنما جاء القرآن شاملا لكل الموضوعات، فعلى مستوى السورة الواحدة، في بعض الأحيان، تجد نصوص العقيدة إلى جانب الآيات التي تهتم بالخلق والتكوين وقصص الأنبياء والأمم السابقة والأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلية.

أما قوله: إن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يلزم كتابة القرآن أحدا من الصحابة، ولم يجعلها واجبة، فهذا خطأ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان كلما نزل عليه شيء من القرآن أمر صحابته بكتابته في حينه، وحديث زيد السابق الذكر خير دليل على قولنا هذا.

وهذا الحرص الشديد منه صلى الله عليه وسلم، جعل الصحابة رضي الله عنهم، يحملونه محمل الأمر الواجب القيام به حفاظا على القرآن من الضياع وحفاظا له أيضا من التبديل والتحريف.

أما بالنسبة إلى ما ادعاه من أن التدوين كان مثيرا للاختلاف، بسبب عدم ثبات المواد المستعملة لذلك التدوين، فنرد عليه بما يلي:

---

502 - كتاب المصاحف، ص 31 .

من المسلم به، أن الصحابة رضوان الله عليهم، كتبوا القرآن الكريم كله في **عسب النخل**[503] **والكرانيف**[504] **واللخاف**[505] **والرقاع**[506] **والأقتاب**[507] **والأكتاف**[508]، وكل ما أصابوا من مثلها مما يصلح لغرضهم، يقول **الرافعي**: **"يكتب كل منهم ما تيسر له أو يسرته أحوالهم"**[509].

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: **" كنا عند رسول الله نؤلف القرآن من الرقاع"**[510].

وسبب جمع الصحابة القرآن في هذه المواد بدل جمعه في مصحف واحد، يعود إلى ثلاثة أمور رئيسة :

الأول: إن هذه المواد هي التي كانت متيسرة لهم في ذلك الوقت، ولو وجدوا غيرها لكفتهم مؤونة التعب والمشقة التي كانوا يلاقونها في كتابة القرآن على هذه المواد .

الثاني: إن اهتمام الصحابة إنما كان بحفظه واستظهاره عن ظهر قلب، يقول الدكتور الشحات السيد زغلول: **" لم يكن المسلمون في حاجة إلى مصحف ينظرون فيه فقد عرف عنهم جدهم في حفظ القرآن، وشدة تعهدهم له، ومن كان يستطيع الكتابة منهم، كتب ما شهد نزوله على ما تيسر له، فإذا اختصموا في شيء من القرآن احتكما إلى الرسول فهو بينهم، وعنده علم كل كتاب"**[511].

---

503 - عسب النخل: جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا يكشطون الخوص ويكتبون في الطرف العريض.

504 - الكرانيف: جمع كرنافة وهي أصول السعف الغلاظ .

505 - اللخاف: جمع لخفة وهي الحجارة الرقيقة .

506 - الرقاع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد .

507 - الأقتاب: جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه .

508 - الأكتاف: جمع كتف وهو العظم الذي للبعير أو الشاة كانوا إذا جف كتبوا فيه .

509 - المرجع السابق، ص 34 - 35

510 - أنظر: المستدرك على الصحيحين في الحديث للحاكم النيسابوري، ج 2 ص 611.

511 - الاتجاهات الفكرية في التفسير، ص 24 .

الثالث: ما كان يترقبه الرسول صلى الله عليه وسلم، من ورود زيادة أو نسخ لبعض آيات الذكر الحكيم، يقول القسطلاني: **" إنما ترك النبي صلى الله عليه وسلم، جمعه في مصحف واحد لأن النسخ كان يرد على بعضه، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعضه لأدى إلى الاختلاف والاختلاط فحفظه الله تعالى في القلوب إلى انقضاء زمن النسخ. فكان التأليف في الزمن النبوي والجمع في المصحف في زمن الصديق، والنسخ في المصاحف زمن عثمان، وقد كان القرآن كله مكتوبا في عهده صلى الله عليه وسلم، لكنه غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور"**[512].

ب ـ آراء المستشرقين الفرنسيين في جمع القرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

في ما يتعلق بهذا الموضوع، نقف على رأيين أساسيين للاستشراق الفرنسي:

الرأي الأول: يقول إن جمع الخليفة أبي بكر يمثل المرحلة الثانية من تدوين القرآن[513]، وأن سبب هذا الجمع يعود إلى الخوف من ضياع القرآن بعد أن استحر القتل بطائفة كبيرة من القراء في معركة اليمامة، يقول بلاشير:

«Le premier Calife, Abû-Bakr, se trouve devant un monde en effervescence, en Arabie orientale est matée une dangereuse résurgence du paganisme; sur les confins syro-palestiniens s'amorce une conquête où tombent des Croyants de la première

---

512 – المرجع السابق، ج 7 ص 446 .

513 – إن ما قام به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لا يمكن عده مرحلة ثانية من تدوين القرآن، ولكن يمكن عده مرحلة أولى لجمع القرآن فهو لم يدون القرآن، وإنما جمعه من المواد التي كتب عليها على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن صدور الصحابة رضي الله عنهم، ولقد كان المستشرق الفرنسي **هنري ماسيه** على حق حين اعتبر عمل أبي بكر الصديق جمعا أولا للقرآن الكريم، يقول **ماسيه:**
«Cette première recension du Coran n'eut pas d'autorité officielle et fut seulement une entreprise particulière d'Abou-Bakr et Omar ». L'Islam , p. 77.

heure. L'inquiétude s'empare de certains esprits concernant la conservation des révélations coraniques »[514].

الرأي الثاني: فيه تشكيك في قدرات زيد بن ثابت رضي الله عنه، أولا، ثم في نية أبي بكر من اختيار زيد دون غيره من النساخ أكبر منه سنا وأكثر منه خبرة، ثم لماذا لم يشكل لجنة تتكون من مجموعة من الكتاب؟ يتساءل بلاشير:

«Pourquoi Abou-Bakr fit-il choix de Zaîd, encore jeune, et non d'autres "scribes" plus âgés et d'une autorité rité plus décidée? pourquoi n'a-t-il choisi que Zaîd et n'a-t-il pas constitué une commission de plusieurs membres »[515].

الـــــــرد :

لقد تطرق بعض الباحثين لمناقشة هذا الموضوع في معرض تصديهم لبعض الشبهات ورأوا أن جمع أبي بكر قد تم بسبب سقوط كثير من القراء قتلى في معركة اليمامة، فخشية أن يتقلص عددهم تدريجيا في كل معركة، تقدم عمر بن الخطاب باقتراح يطلب فيه من أبي بكر جمع القرآن في مصحف حفظا للقرآن من التلف بموت قراءه، وكذا إقرار الشكل النهائي لهذا الكتاب المقدس، وبعد تردد أذعن أبو بكر لاقتراح عمر ووافقه على ذلك وعهد بهذه المهمة إلى زيد بن ثابت لما اجتمع في غيره بالإضافة إلى ذلك وضعت قاعدة عمل تقضي بألا يقبل من أي قارئ شيء حتى يشهد شخصان على أن ذلك كتب في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبإملائه. وبعد أن تم الجمع سلمه زيد إلى أبي بكر الذي احتفظ به طول حياته وعهد به قبل موته إلى عمر الذي قام بدوره بتسليمه إلى ابنته حفصة في آخر لحظة من حياته[516] .

أما ردنا نحن على هذين الرأيين، فسيكون على النحو التالي:

---

514 - Le Coran « que sais-je » , p. 20 .

515 - Introduction au Coran , p. 32 - 33

516 - أنظر: محمد عبد الله دراز، المرجع السابق، ص 36 - 37، ورابح لطفي جمعة، المرجع لسابق، ص 100 - 104، وعبد الصبور شاهين، المرجع السابق، ص 106 - 110

بالنسبة للرأي الأول: فالقول فيه صحيح سواء من جهة اعتبار جمع أبي بكر يشكل المرحلة الثانية في كتابة القرآن، أو من جهة اعتبار سبب هذا الجمع هو الخوف من ذهاب شيء من القرآن بموت حفاظه .

ففيما يخص الجهة الأولى من الرأي الأول، فنحب أن نقرر في البدء حقيقة وهي أن القرآن كان مكتوبا بأكمله على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، غير أن هذه الكتابة كانت عبارة عن تسجيل كتابي للقرآن على مواد متفرقة. والأمر في ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب:

الأول: أن القرآن لم ينزل دفعة واحدة، بل نزل منجما في مدى يتعدى عشرين سنة .

الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان بصدد أن ينزل عليه الوحي بنسخ ما شاء الله من آية أو آيات يتعلق بحكم شرعي .

الثالث: " أنه لم يوجد من دواعي كتابته في مصحف مثل ما وجد على عهد أبي بكر"[517].

نفهم من هذا، أن جمع أبي بكر الصديق للقرآن ليس بالشيء الجديد، لأن ما قام به هو نقل القرآن من المواد المتفرقة التي كتب عليها القرآن على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وجمعه في مصحف واحد مرتب الآيات والسور. وقد أشار **الزركشي** إلى ذلك بقوله: **" كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه صلى الله عليه وسلم، كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مفرقا في الرقاع والأكتاف والعسب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعا، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها القرآن منتشرا، فجمعها في جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء"**[518].

---

517 - محمد عبد العظيم الزرقاني، المرجع السابق، ج 1 ص 248 .

518 - المصدر السابق، ج 1 ص 238 .

أما في ما يخص الجهة الثانية من الرأي الأول، أي اعتبار سبب الجمع هو الخوف من ضياع القرآن بموت حفاظه في موقعة اليمامة، فهذا موافق لما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: "**أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه، إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتتبع القرآن، فاجمعه، فا والله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها**"[519].

إذا تتبعنا جزئيات هذه الرواية، نجدها تشير إلى حقائق هامة وبراهين ساطعة تكفي للرد على الرأيين الاستشراقيين السالفين:

الحقيقة الأولى: إن هذه الرواية تبين السبب الذي دفع أبا بكر الصديق رضي الله عنه، إلى جمع القرآن في مصحف واحد، وهو الخوف من ذهاب شيء من القرآن بموت حفاظه، بعد أن اشتد القتل بعدد كبير منهم في معركة اليمامة.

---

519 - صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج 19 ص 6 - 7

الحقيقة الثانية: توضح هذه الرواية أن القرآن لم يجمع من قبل بهذه الصورة، والذي يفسر ذلك تردد الصديق في جمع القرآن في مصحف واحد، مع أنه شيء حسن، ويرجع تردد أبي بكر إلى خوفه من أن يتساهل الناس في استظهاره وحفظه غيبا، ويعتمدوا على وجوده مكتوبا في المصاحف، فتضعف نفوسهم عن حفظه .

الحقيقة الثالثة: تشير الرواية إلى الصفات والقدرات العظيمة التي كان يتحلى بها زيد رضي الله عنه، والتي أهلته إلى جمع القرآن، والتي جعلت الصديق رضي الله عنه، يخصه دون غيره بهذا العمل العظيم، فقد ذكرت له الرواية أربعة خصال نادرا ما تجتمع في شخص واحد، يقول **ابن حجر العسقلاني**: " **ذكر له أربع خصال مقتضية خصوصيته بذلك كونه شابا فيكون أنشط لما يطلب منه، وكونه عاقلا فيكون أوعى له، وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه، وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة له. وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن متفرقة**"[520] .

ويقول أبو عمرو الداني: "**إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ومناقب اجتمعت له لم تجتمع لغيره، منها: أنه كتب الوحي للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنه جمع القرآن كله على عهد الرسول، وإن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبي على جبريل عليهما السلام، وهذه الأشياء توجب تقدمه لذلك وتخصيصه به لامتناع اجتماعها في غيره، وإن كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته، فلذلك قدمه أبو بكر رضي الله عنه لكتابة المصاحف وخصه به دون غيره من سائر المهاجرين والأنصار**"[521].

ورغم ذلك، "**لم يكن عمل زيد رضي الله عنه، في حد ذاته عملا أحاديا بل كان عملا جماعيا من مشيخة صحابة رسول الله، ذلك أن زيدا بطبيعة**

---

520 – ابن حجر، المصدر السابق، ج 7 ص 13 .

521 – المقنع في رسم مصاحف الأمصار، ص 124 .

عمله أعلن بين الناس ما يريده ليأتيه كل ما عنده من القرآن ما هو مكتوب بما عنده، وقد عملوا مقدار ما ينبغي لكتاب الله من عناية، فذهبوا إليه وذهب إليهم، وتضافر معه من كانوا يعاونونه غير مدخرين جهدا إلا بذلوه في عناية المؤمن بكتاب الله تعالى الذي يؤمن به"[522] .

ولعل هذا ينفي ما جاء في رأي الاستشراق الفرنسي من تشكيك في قدرات زيد رضي الله عنه، وإمكانياته الخلقية والعلمية التي جعلته أجدر من غيره في جمع القرآن. وينفي أيضا تشككهم في نية **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه، من اختيار زيد وحده للقيام بهذا العمل الجليل .

الحقيقة الرابعة: تستجلي لنا هذه الرواية المنهج الذي سار عليه زيد رضي الله عنه، في جمعه للقرآن، ويقوم هذا المنهج على:

أولا: البحث عن ما كتب من القرآن في الألواح والعسب والرقاع والعظام على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثانيا: التأكد من سلامة ما هو مكتوب في تلك المواد المتفرقة، وذلك بأمرين هما :

1 – شهادة اثنين على أن هذه الآية أو الآيات المكتوبة في هذه الألواح أو الرقاع أو غيرها، هي عين ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم. والمراد بالشاهدين هنا الحفظ والكتابة، أو المراد أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أنهما يشهدان أن ذلك من الوجوه التي نزل بها القرآن، يقول **القسطلاني**: **"إن عمر رضي الله عنه قام فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم، شيئا من القرآن فليأت به وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، قال: وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شاهدان، وهذا يدل على أن زيدا كان لا يكتفي بمجرد وجدانه**

---

522 – أنظر: معجزة القرآن لمحمد أبو زهرة، ص 33 – 34

مكتوبا حتى يشهد به من تلقاه سماعا مع كون زيد كان يحفظه فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط"(523) .

2 – مقابلة هذه الآيات المكتوبة على هذه المواد بما هو محفوظ في صدور الصحابة رضوان الله عليهم .

ووفق هذه الخطة الرشيدة سار زيد بن ثابت رضي الله عنه، في جمعه للقرآن على عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهي خطة في غاية الدقة والإحكام، إذ من مصادرها :

أولا: ما كان محفوظا في صدور الرجال .

ثانيا: ما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن مزايا هذه الخطة :

أولا: التحري الدقيق التام، والتثبت الكامل .

ثانيا: لم يسجل في المصحف إلا ما ثبت عدم نسخ تلاوته.

ثالثا: إجماع الأمة عليه، وتواتر ما سجل فيه من الآيات القرآنية.

رابعا: شمول المصحف للقراءات السبع التي نقلت بالنقل الثابت الصحيح .

الحقيقة الخامسة: تشير الرواية إلى أن هذا الجمع قد تم قبل وفاة الصديق، والدليل قول زيد رضي الله عنه: **" فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر "** .

وذكر **السيوطي** قولا لابن حجر يرد فيه على من زعم **" أن زيدا أتم الجمع في خلافة عمر قائلا: وإنما كان – القرآن – الأديم والعسب أولا، قبل أن يجمع في عهد أبي بكر، ثم جمع في الصحف في عهد أبي بكر"**(524) .

وقد ذكرنا هذه الحقيقة للرد على قول بلاشير الذي يدعي فيه

---

523 – المصدر السابق، ج 7 ص 447 .

524 – المصدر السابق، ج 1 ص 169 .

«Au moment en effet où Zaid se met au travail, le Calife Abou-Bakr n'est qu'à 15 mois de sa mort , il est donc très admissible que la mise au net des feuilles n'ait été terminée que sous Omar».

"أن الفترة التي بدأ فيها زيد عمله، كانت تسبق وفاة أبي بكر بخمسة عشر شهرا، و من المحتمل أن يكون استكمال الكتابة قد تمت خلال خلافة عمر"[525].

على العموم، **" لقد تلقى الصحابة جمع أبي بكر بقبول حسن، ووافقوه على عمله هذا. ولم يحدثنا التاريخ أن أحدا من الصحابة كان غير موافق لهذا الصنيع، هذا جانب، أما الجانب الثاني إن كل صحابي كان عنده شيء من القرآن يلبي الفكرة ويأتي بما كان مكتوبا عنده، ويقدمه إلى زيد بن ثابت بنفس طيبة مطمئنة. والجانب الثالث: لقد كان عمر بن الخطاب صاحب الفكرة وزيد هو المنفذ لها وهما صحابيان جليلان لهما وزنهما ووضعهما الاجتماعي والقيادي بين الصحابة رضوان الله عليهم"[526].**

وقد أثنى ابن كثير على صنيع أبي بكر هذا، حين قال: **"فكان الذي فعله الشيخان أبو بكر وعمر، من أكبر المصالح الدينية وأعظمها من حفظهما كتاب الله في الصحف لئلا يذهب منه شيء بموت من تلقاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كانت تلك الصحف عند الصديق أيام حياته ثم أخذها عمر بعده" [527]**

ج- آراء المستشرقين الفرنسيين في جمع القرآن على عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه :

في عهد عثمان رضي الله عنه، دخل جمع القرآن مرحلته الثالثة والأخيرة في سلسلة تاريخ جمع القرآن وتدوينه، ولم تكن هذه المرحلة منفصلة عن أخواتها ولا مستقلة بنفسها، بل كانت مرتبطة الصلة بسابقاتها إذ شكل

---

525 – Introduction au Coran , p. 33 .

526 – أنظر: في رحاب القرآن الكريم لمحمد سالم محيسن، ج 1 ص 146 .

527 – فضائل القرآن، ص 29 – 30

مصحف أبي بكر المصدر الأساس لهذا الجمع وعنه تواترت جميع المصاحف المنتشرة اليوم في جميع أنحاء العالم .

والسبب فيما فعله عثمان رضي الله عنه، إنما يرجع إلى اختلاف بعض المسلمين في قراءة القرآن نتيجة اتساع الفتوحات الإسلامية، وتفرق القراء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمن وفد إليهم قراءته، ووجوه القراءة التي يؤدون بها القرآن مختلفة باختلاف الأحرف التي نزل عليها، فكانوا إذا ضمهم مجمع أو موطن من مواطن الجهاد عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف[528].

ومع بيان السبب، لم يسلم جمع عثمان من تشكيك بعض المستشرقين الفرنسيين، فهذا ماسيه، يقول :

«Il est permis de supposer que, Othmân avait un but politique au moins autant que religieux: arrivé péniblement au Califat il consolidait son autorité en fixant un texte ne varietur du livre saint».

"يمكن أن نفترض أنه كان لعثمان هدف سياسي بعمله هذا يعادل الهدف الديني. فقد وصل إلى الخلافة بجهد، وكان أن عزز مركزه بإقراره نصا لا يتغير للكتاب المقدس"[529].

أما **بلاشير** فيرى :

أولا: أن الخليفة عثمان سعى إلى تحقيق هذا العمل بدافع من نزعته الأرستقراطية. حيث يعتبر الممثل الحقيقي للأرستقراطية المكية .

ثانيا: إن القريشيين الثلاثة الذين اختارهم أعضاء في اللجنة التي كلفها بكتابة القرآن كانوا هم أيضا أرستقراطيين، تجمعهم بعثمان صلات المصاهرة والمصالح المشتركة .

ثالثا: إن قرار عثمان بإحراق الصحف يعد تدنيسا للمقدسات .

---

[528] - أنظر: مناع القطان، المرجع السابق، ص 128 .

[529] - L'Islam , p. 78 .

رابعا: إن مصحف عثمان لم يكتمل في جوانب كثيرة منه، فنمط الخط الذي استعمله الناسخون لم يزل بدائيا، ثم إن استنساخ المصاحف الخمسة الأساسية الموجودة في العواصم الإسلامية يثير مسألة خطيرة[530] .

هذه أهم الآراء التي ركز عليها الاستشراق الفرنسي في هذا الموضوع .

الـــــرد :

إن **بلاشير** ليعيننا على نفسه ويقدم لنا الدليل على نقد قوله، لأنه إذا صح أن يطلق وصف التقوى والورع على عثمان فمعناه " **أنه وصل إلى المنزلة التي لا يصل إليها إلا من راض نفسه بترك الشهوات والشبهات، وجاهدها في ذات الله حتى تذوق حلاوة الإيمان وطعم اليقين، ثم إنه لا يتصف بالتقوى إلا من امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأعدهم الله للقيام بمواريث النبوة، وأعباء الرسالة وهيأهم للعبودية الحقة، والجندية التي لا تخاف في الله لومة لائم. والتقوى لا تتم لأحد إلا بأمرين:**

أولا: فقه في دين الله ومعرفة ما فيه من سمو وحكمة .

ثانيا: قوة الإرادة ومضاء العزيمة، لحمل النفس على الاضطلاع بالتبعات والتكاليف .

فالمعرفة من جانب، والإرادة القوية من جانب آخر، يستطيع المرء أن يبصر الطريق ويسير على الجادة، بدون تعثر أو انحراف" [531] .

أما الورع " **فهو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات، وقيل هو ملازمة الأعمال الجميلة"** [532] .

فالتقوى والورع هما جماع كل خير ومصدر كل بر وأصل كل صلاح. وأنا أظن ظنا جازما أن **بلاشير** لم يدرك معنى الاتصاف بالتقوى والورع، فلوْ

---

[530] - Introduction au Coran , p. 57 - 60

[531] - أنظر: إسلامنا للسيد سابق، ص 81 - 85

[532] - أنظر: كتاب التعريفات للجرجاني، باب الواو، مادة ورع، ص 252 .

أدرك معناهما ما كان له أن يقول بعد ذلك: إن عثمان كان شديد الاستسلام لتأثيرات من حوله من غير أن يوضح نوعية هذه التأثيرات هل هي تأثيرات اجتماعية أم سياسية أم اقتصادية...؟

ويزيد، فيقول إن عثمان يعد الممثل الحقيقي للأرستقراطية.

في الحق، لا نعلم عن أي أرستقراطية يتحدث عنها بلاشير في مجتمع بدوي قريب العهد من تعاليم الدين الجديد الذي من أهم مبادئه رفض الاستعلاء في الأرض على أساس عرقي أو مادي. علاوة على أن عثمان رضي الله عنه، كان معروفا بكثرة علمه وعمله، وصيامه وقيامه وحيائه وجهاده وإنفاقه في سبيل الله، جاء في وصفه: **" هو ذو النورين، وممن تستحي منه الملائكة ومن جمع الأمة على مصحف واحد بعد الاختلاف، وممن افتتح نوابه إقليم خراسان وإقليم المغرب وكان من السابقين الصادقين، القائمين الصائمين المنفقين في سبيل الله، وممن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالجنة"**[533] .

فكيف لرجل هذه خلقه وتلك صفاته أن يكون شديد الاستسلام لتأثير من حوله ويكون أيضا ممثلا للأرستقراطية المكية؟!

وهذا يجعلنا نبحث عن السبب الحقيقي الذي دفع عثمان رضي الله عنه، إلى جمع الناس على مصحف واحد، يروي الزهري عن أنس رضي الله عنه، **" أن حذيفة قدم على عثمان بن عفان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيا وأذربجان مع أهل العراق، فرأى حذيفة اختلافهم في القرآن، فقال لعثمان بن عفان، يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب كما اختلفت اليهود والنصارى، فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت حفصة إلى عثمان بالصحف فأرسل عثمان إلى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعبد الله بن الزبير أن انسخوا الصحف في المصاحف وقال للرهط**

---

533 - تذكرة الحفاظ، ج 1 ص 8 - 9

القريشيين الثلاثة. ما اختلفتم فيه أنتم وزيد بن ثابت فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم حتى نسخوا الصحف في المصاحف بعث عثمان إلى كل أفق بمصحف من تلك المصاحف التي نسخوا" (534) .

وفي رواية أخرى عن أبي الشعثاء، قال **حذيفة**: " **يقول أهل الكوفة قراءة عبد الله، ويقول أهل البصرة قراءة أبي موسى، والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته أن يفرقها أي المصاحف"** (535) .

يتضح من خلال هاتين الروايتين أن السبب فيما صنعه عثمان رضي الله عنه، يعود إلى كثرة الاختلاف في وجوه قراءات القرآن حتى أدى ذلك ببعض القراء إلى تخطئة البعض، يقول **القسطلاني**: " **جمع عثمان ـ القرآن ـ لما كثر الاختلاف في وجوه قراءته حين قرءوا بلغاتهم حتى أدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضا، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مقتصرا من اللغات على لغة قريش، إذ هي أرجحها"**(536) .

ولعل في هذا البيان ردا على أولئك الذين شككوا في نية عثمان من كتابة القرآن وجمع الناس على مصحف واحد إذ الضرورة كانت تقتضي القيام بهذا العمل، قبل أن يستشري خطر هذه المشكلة ويختلف الناس في كتاب الله كما اختلفت اليهود والنصارى.

ولقد عبر عثمان رضي الله عنه، عن نيته من كتابة القرآن حين أتاه أهل مصر يجادلونه في محو كتاب الله عز وجل، فرد عليهم قائلا: " **أما القرآن فمن عند الله، إنما نهيتكم لأني خفت عليكم الاختلاف فاقرأوا على أي حرف شئتم"** 537 .

ثم " **إن عثمان لم يقدم على فعل ذلك إلا بعد استشارة الصحابة"** (538) .

---

534 – الجامع الصحيح للترمذي، ج 5 ص 284 .

535 – كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني، ص 13 .

536 – المصدر السابق، ج 7 ص 449 .

537 – أبو داود السجستاني، المرجع السابق، ص 36 .

538 – أنظر: فتح الباري لابن حجر، ج1 ص 18 .

فلا داعي للتشكيك في نية عثمان رضي الله عنه، من هذا الجمع، مادامت سريرته سليمة والسبب جليا والغاية واضحة .

أما عن زعم **بلاشير**: أن الرهط القريشيين الثلاثة الذين اختارهم لكتابة القرآن كانوا من الطبقة الأرستقراطية، وتجمعهم بعثمان صلات المصاهرة ومصالح مشتركة، وزعمه أيضا أن إشراك سعيد بن العاص في عمل اللجنة إنما كان اشتراكا فخريا لا عمليا، لأنه كان واليا على الكوفة، وقوله أيضا: إن اللجنة عملت على إقصاء بعض الشخصيات لها شأن كبير مثل علي وأبي رضي الله عنهما، وغيرهما. وأن هذه اللجنة عملت على محو بعض الآيات التي لا توافق أهوائها .

إن هذه الادعاءات تستهدف أمرين هما:

أولا: تجريح الأشخاص الذين عهد إليهم عثمان بكتابة القرآن والنيل منهم. والمطلع على سير هؤلاء الأربعة يدرك لأول وهلة فساد هذا القول، فهؤلاء جميعا وكما يقدمهم تاريخهم ; من تقاة الصحابة وأفاضلهم ومشهود لهم بالإيمان والورع والإخلاص والأمانة والنزاهة .

فزيد بن ثابت رضي الله عنه، اجتمعت فيه صفات الخير جعلته مقدما على غيره، يقول **أبو بكر الباقلاني**: **" يدل على صحة اختيار زيد أن أحدنا اليوم إذا أردنا أن يكتب مصحفا يتخذه إماما لا يلتمس له أقدم أهل عصره حفظا، وأفهمهم وأشجعهم، وإنما يلتمس أحسنهم ضبطا وخطا وأحضرهم فهما دون من كانت تلك صفاته"** [539] .

وسعيد بن العاص رضي الله عنه، **" كان من أشرف قريش وممن جمع بين الجود والحلم والوقار والحزم والعقل، ولقد ندبه عثمان لكتابة المصحف لفصاحته وشبه لهجته بلهجة الرسول صلى الله عليه وسلم"**[540] .

---

539 – نكت الانتصار لنقل القرآن، ص 369 .

540 – أنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ج 3 ص 449 .

وعبد الله بن الزبير رضي الله عنه، " أحد فقهاء الصحابة ونجبائهم علما وعملا، وأصلا وفضلا، يقال كان عبد الله لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة" (541) .

وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنه، أحد أشراف قريش، قالت عنه عائشة رضي الله عنها: " كان رجلا سريا"(542).

وذكر الداني علة اختيار هؤلاء الأربعة لكتابة القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه، " إنما فعل ذلك حين بلغه اختلاف الناس في قراءة لكي يحصل القرآن مجموعا على لغة قريش، خاصة أن لغتها أفصح اللغات وأيسرها وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم، والتي جمع عليها عند الاختيار للغات والتمييز للقراءات، فجعل عثمان مع زيد النفر القريشيين لئلا يكون شيء من القرآن مرسوما على غير لغتهم، ومن الدليل على أن ذلك كان كذلك ما في الخبر من أمر عثمان إياهم إذا اختلفوا أن يرفعوا اختلافهم، قال الزهري: فاختلفوا في "التابوت" فقال زيد "التابوه" بالهاء، وقالت قريش بالتاء، فرفعوا ذلك إليه، فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش، وأعلمهم أن القرآن نزل بلغتهم فوقفوا عند أمره وساروا إلى قوله" (543) .

هذا، ولم يكن عثمان رضي الله عنه، يكتفي بهؤلاء الأربعة فقط، بل كان يضم إليهم بعض من انتهى إليهم علم بالقرآن ليعاونوهم في كتابة القرآن، يقول أبو قلابة حدثني أنس بن مالك، قال: " كنت فيمن يملى عليهم" (544) .

أما ما ادعاه بلاشير: أن مصحف عثمان نابع من حرص الطبقة الأرستقراطية على مصالحها. فقد تكفل الأستاذ رابح جمعة بالرد على هذه الشبهة بقوله: " ماذا من ضرر في أن يتنافس هؤلاء أو أولئك في جمع المصحف ؟ وماذا من بأس في أن تنال مكة أو المدينة ذلك الشرف ؟ أليس

541 – نفس المصدر، ونفس المكان .

542 – تهذيب التهذيب لابن حجر، ج 6 ص 158 .

543 – المقنع في رسم مصحف الأمصار، ص 123 – 124

544 – أنظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر الطبري، ج 1 ص 62 .

الجميع من الصحابة ؟ و أليست مكة بلد النبي والمدينة دار هجرته ؟" [545]، و كذلك تكفل الدكتور **عبدالصبور شاهين** بالرد بقوله: " **إن هذا القول مؤسس على دعوى باطلة تاريخيا تفترض انقسام المجتمع الإسلامي آنذاك إلى طبقات بالمفهوم الحديث، وإن هذه الطبقات بدأت حياتها الجديدة في صراع مادي من أجل السيطرة، واتخذت في ذلك وسائل ميكيافيلية، من بينها تلفيق النص القرآني بما يتلاءم مع مصالحها. وتلك دعاوى خاطئة، قامت على الخطأ الأول وهو الفصل بين غاية أبي بكر من عمله وغاية عثمان، وهما في نظر الحق عملان متكاملان**" .

منهج اللجنة في كتابة المصحف:

لقد سارت اللجنة الرباعية التي شكلها عثمان رضي الله عنه، لجمع المصحف وفق خطة محكمة تقوم على المسائل التالية:

أولا: اعتبار الصحف التي كانت عند حفصة رضي الله عنه، المصدر الأساس لهذا الجمع حتى تكون هذه الكتابة مستندة إلى أصل أبي بكر الذي يستند بدوره إلى النبي صلى الله عليه وسلم، المكتوب بين يديه، وفي هذا الصدد يذكر الطبري: أن عثمان رضي الله عنه، " **أرسل إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة، وحلف لها ليردنها إليها وأعطته إياها، فعرض المصحف عليها، فلم يختلف في شيء. فردها إليها وطابت نفسه وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف**"[546] .

ثانيا: إن الكتاب كانوا لا يكتبون في المصاحف شيئا إلا بعد أن يعرضوه على الصحابة حتى يشهدوا أن هذا المكتوب هو القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه لم تنسخ تلاوته، وأنه استقر

---

545 - المرجع السابق، ص 109 .

546 - المصدر السابق، ج 1 ص 61 .

في العرضة الأخيرة، يقول أبو قلابة: **" فربما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله عليه وسلم، ولعله أن يكون غائبا أو في بعض البوادي فيكتبون ما قبلها وما بعدها ويدعون موضعها حتى يجيء أو يرسل إليه"** (547).

ثالثا: حدد عثمان رضي الله عنه، مهمة كل فرد من اللجنة في هذا الجمع، فأمر سعيد بن العاص رضي الله عنه، بالإملاء وزيد رضي الله عنه، بالكتابة، يقول ابن حجر العسقلاني: **" إن عثمان بن عفان، قال: من أكتب ؟ قالوا: كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم، زيد بن ثابت. قال: فأي الناس أعرب ـ وفي رواية أفصح ـ قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليمل سعيد وليكتب زيد"** (548).

رابعا: أمر عثمان رضي الله عنه، الكتبة القريشيين الثلاثة إذا اختلفوا في شيء من القرآن مع زيد بن ثابت رضي الله عنه، أن يكتبوه بلسان قريش لأن القرآن نزل بلسانهم. ولم تذكر الرواية أنهم اختلفوا في شيء سوى كلمة التابوت .

وقد تحدث رابح جمعة عن طريقة هذه اللجنة في كتابة المصاحف قائلا: **" إنها أقرب ما تكون إلى طريقة تحقيق النصوص المعروفة حديثا على أحدث المناهج وأدقها، فمن مقابلة بين ما ينسخون، وبين النسخة التي كانت مودعة عند حفصة إلى رجوع إلى صحابي، كان الرسول قد أقرأه آية اختلفوا عليها، ومن رفع الأمر إلى عثمان بن عفان عند الاختلاف في لفظة إلى تجريد المصحف مما ليس بقرآن من الشروح والتفاسير، فضلا عن أن أعضاء اللجنة أنفسهم كانوا حفاظا لكتاب الله العزيز وعته صدورهم واستظهرته ذاكرتهم وحفظته قلوبهم"** (549) .

---

547 - نفس المصدر، ج 1 ص 62 .

548 - المصدر السابق، ج9 ص 19 .

549 - المرجع السابق، ص 122 .

ولقد اعترف **بلاشير** بنزاهة اللجنة وأمانتها في نسخ المصاحف، وقال:

«Qu'il y ait eu, chez les membres de la commission, un sentiment très profond de leur responsabilité, nul n'en saurait douter. A défaut d'une rigueur critique, dont personne à l'époque n'a même la notion, on trouve chez eux beaucoup de prudence et d'infinis scrupules».

"لا يسع أحد الشك في عمق شعور أعضاء اللجنة بمسئوليتهم، ولا فاتهم منهج البحث الذي لم يكن متيسرا لأحد في عصرهم، فلم يفتهم الاحتياط والورع"(550)

وبهذا المنهج السديد قطع عثمان رضي الله عنه، دابر الفتنة، وحسم الخلاف، وحصن القرآن من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الزمان .

إحراق المصاحف :

يقول بلاشير:

«Ce désir d'imposer un texte ne varietur se manifeste d'ailleurs par une mesure presque sacrilège: la destruction de tous les matériaux sur lesquels, du vivant de Mahomet, des mains pieuses avaient noté les révélations recueillies de la bouche même du Maître »(551).

"إن الرغبة في إحلال نص ثابت ظهرت بتدبير كاد يكون هتكا للمقدسات، وهو إتلاف جميع المصاحف التي سجل عليها الأتقياء الموحيات التي جمعت عن لسان محمد نفسه وفي حياته" (552).

نقول في ردنا على هذا الرأي، إن ما أمر به عثمان رضي الله عنه، بإحراقه هو كل ما يخالف المصحف الإمام، وقصده من ذلك أن تتوحد قراءة الناس، فلا تكون إلا بما ثبت تواترها .

---

550 - Introduction au Coran , p. 61 .
551 - Le Coran « Que sais-je » , p. 21 .
552 - القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير، ترجمو: رضا سعادة، ص 31 .

ومما لا ريب فيه أن الصحابة كتبوا مصاحف خاصة بهم تخالف المصحف الإمام بعض الاختلاف كمصحف أبي وابن مسعود رضي الله عنهما، اللذين أثبتا في مصحفيهما ما نسخت تلاوته وما فسره الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعض الأدعية كدعاء القنوت ظنا منهم أن ذلك مما يجوز كتابته، فلأجل هذه الأمور اختلفت مصاحفهم وأمر عثمان رضي الله عنه، أن تحرق .

لقد رأى عثمان رضي الله عنه، أن بقاء مثل هذه المصاحف سيزيد حتما في تعميق أسباب الاختلاف والشقاق بين المسلمين، وعلى هذا قرر إحراقها .

يقول الكرماني: **" إن ما أمر عثمان بإحراقه، هو القرآن المنسوخ والمختلط بغيره من التفسير أو بلغة غير قريش أو القراءات الشاذة، وفائدته أنه لا يقع الاختلاف فيه – جزاه الله أحسن الجزاء ورضي الله عنه -"** [553] .

وقد نبه إلى هذه الحقيقة أيضا **Roger du Pasquier** حين قال:

«Le Calife Othmân les élimina avant qu'elles aient pu devenir sources de divergences».

إن الخليفة **"عثمان أقصى المصاحف وأتلفها قبل أن تصبح مصدر اختلاف"** [554] .

ثم إن عثمان رضي الله عنه، لم يقدم على إحراق المصاحف إلا بعد مشورة الصحابة وإجماعهم على هذا الأمر لما فيه من المصلحة، يروى " أن **سويد بن غفلة الجعفي قال: والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، سمعته يقول: يا أيها الناس لا تغلوا في عثمان ولا تقولوا له إلا خيرا (أو قولوا له خيرا) في المصاحف وإحراق المصاحف، فو الله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا جميعا"** [555] .

553 – المصدر السابق، ج 19 ص 29 .

554 - Découverte de l'Islam , p. 64 .

555 – أنظر: أبو داود السجستاني، المصدر السابق، ص 22 .

هذا، وقد وقع عمل عثمان من قلوب الناس موقع الرضا والقبول والاستحسان، عن أبي إسحاق عن مصعب بن سعد، قال: " **أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، وقال: لم ينكر ذلك منهم أحد**" [556] .

أما ما يحكى عن عدم امتثال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، لقرار عثمان بإحراق المصاحف، وقوله لأصحابه: "**غلوا مصاحفكم**"[557]، فكان بسبب غضبه من أنه لم يكن من بين الصحابة الذين كتبوا المصاحف، لكنه رجع بعد ذلك إلى الوفاق[558]، يقول أبوبكر الباقلاني: " **وقد وردت الروايات أن عثمان وعظه وحذره الفرقة، فرجع واستجاب إلى الجماعة وحث أصحابه على ذلك**" [559].

موقف الشيعة من جمع عثمان رضي الله عنه للقرآن الكريم :

حاول بعض المستشرقين الفرنسيين خلق صراع وهمي بين علي وعثمان رضي الله عنهما، في مسألة المصحف حتى يتسنى لهم القول إن الشيعة رفضوا الاعتراف بالمصحف العثماني، يقول بلاشير:

«La tradition va cependant plus loin. A l'en croire, Ali lui-même se serait empressé d'adopter la recension du Calife. "Si Othmân n'avait pas accompli cela", celui fait elle dire " Je l'aurais accompli moi-même". Cette donnée est for suspecte».

"**لقد ذهبت الرواية إلى أبعد من ذلك، إلى الاعتقاد بأن عليا نفسه قد أيد الجمع الذي قام به الخليفة ... وهذا المعطى مشكوك فيه**" [560] .

وذهب **هنري ماسيه** إلى القول :

---

556 - نفس المصدر، ص 12 .

557 - نفس المصدر، ص 15 .

558 - أنظر: فضائل القرآن لابن كثير، ص 18 .

559 - نكت الانتصار، ص 364 .

560 - Introduction au Coran , p. 63 .

«Les Chiites affirment que les passages ayant trait à Ali et à sa famille furent supprimés par ordre d'Othmân: ils se fondent sur l'incohérence de certains passages et considèrent que le texte authentique, transmis en secret par chaque imâm à son successeur sera finalement révélé lorsqu'apparaître L'imâm caché».

"إن الشيعة يؤكدون أن المقاطع التي تتعلق بعلي وعائلته قد حذفت بأمر عثمان، ويستندون في ذلك إلى عدم تلاحم بعض المقاطع، ويعتبرون أن النص الأصلي قد انتقل سرا من كل إمام إلى خلفه، وسيظهر في النهاية عند ظهور الإمام المختفي"(561) .

الـــــرد :

إن الدارس حين يرجع لتحقيق المسألة في مصادرها لا يكاد يجد لهذه الادعاءات ما يبررها، فقد اتفق المسلمون – سنة وشيعة – على أنه يستحيل أن تنال يد التحريف القرآن سواء أكان ذلك بالزيادة أو النقصان مستدلين بقول الله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾(562) .

ولعل أبرز معبر عن مواقف الشيعة الإمامية بالخصوص هو **الطبرسي** الذي يقول: **"فأما الزيادة فيه – يعني القرآن – فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة في القرآن تغييرا ونقصانا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى قدس الله روحه واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابليسيات"**(563) .

تعجيم القرآن وإعرابه:

يقول بلاشير:

«Cette recension Uthmanienne ne laisse cependant point d'offrir des côtés bien précaires ; le système graphique dont les

561 - L'Islam , p. 79 .

562 – سورة فصلت، الآية 42 .

563 – مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 1 ص 30 – 31

scribes ont usé reste toujours aussi rudimentaire ; la reproduction des cinq lectionnaires de base existant dans les métropoles islamiques pose un grave problème»(564).

"إن مصحف عثمان بقي غير مكتمل في جوانب كثيرة منه، كما أن الخط الذي استعمله البدائيون لم يزل بدائيا، ثم إن استنساخ المصاحف الخمسة الأساسية الموجودة في العواصم الإسلامية تثير مسألة خطيرة"(565).

الـــرد:

صحيح إن مصحف عثمان رضي الله عنه، بقي غير مكتمل، لأن المصاحف التي نسختها اللجنة كانت من غير تعجيم ولا إعراب، معتمدة على السليقة العربية التي لا تحتاج إلى الشكل ولا الإعجام، يقول الزبيدي: **" ولم تزل العرب في جاهليتها، وصدر من إسلامها، تبرع في نطقها بالسجية وتتكلم على السليقة، حتى فتحت المدائن ومصرت الأمصار، ودونت الدواوين. فاختلط العربي بالنبطي، والتقى الحجازي بالفارسي، ودخل الدين أخلاط الأمم، وسواقط البلدان، فوقع الخلل في الكلام وبدأ اللحن في ألسنة العوام، فكان أول من استدرك ذلك وحاول إصلاح فساده أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي فألف أبوابا من النحو ..." (566).**

وصحيح أيضا إن الخط الذي استعمله النساخ لم يزل بدائيا، وقد أكد ابن كثير هذه الحقيقة حين قال: **" إن الكتابة في ذلك الزمان لم تحكم جيدا، وقع في كتابة المصاحف اختلاف في وضع الكلمات من حيث صناعة الكتابة لا من حيث المعنى" (567).**

---

564 - Le Coran « Que sais-je » , p. 21 .

565 – القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره لبلاشير، ترجمة: رضا سعادة، ص 31 .

566 – لحن العامة، ص 34 .

567 – فضائل القرآن، ص 51 .

لكن، لما كثرت الفتوحات الإسلامية ودخل في الإسلام أجناس من غير العرب بدأ الفساد يتطرق إلى اللسان العربي، وفشا اللحن بين خواص الناس وعوامهم .

وظهر اختلاف ألفاظهم، وتغير طباعهم، أحس أولو الأمر بخطورة تزايد ذلك وتضاعفه مع مرور الأيام وتطاول الأزمان، فأمروا بضرورة تحسين كتابة المصحف بالإعجام والإعراب وغيرهما مما يساعد على القراءة الصحيحة لكتاب الله تعالى .

حكى أبو أحمد العسكري في كتابه " التصحيف" :" أن الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، نيفا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف وانتشر في العراق، ففزع الحجاج بن يوسف الثقفي إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات، فيقال: إن نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفرادا وأزواجا خالف بين أماكنها. فغبر الناس بذلك زمانا لا يكتبون إلا منقوطا، فكان مع استعمال النقط أيضا يضع التصحيف فأحدثوا الإعجام فكانوا يتبعون النقط الإعجام، فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة لم توف حقوقها اعترى التصحيف، فالتمسوا حيلة، فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين" (568) .

" ثم بدأوا بعد ذلك بإعراب أواخر الكلمات لشدة حاجة الناس إليه، ولأن الوهم – كما يقول أبو عمرو الداني – أكثر ما يعرض لمن لا يبصر الإعراب، ولا يعرف القراءة في إعراب أواخر الأسماء والأفعال. وأيضا فإن القارئ قد يقرأ الآية والأكثر في نفس واحد، ولا يقطع على شيء من كلها، فلابد من إعراب ما يصله من ذلك ضرورة"(569).

---

568 – أنظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، ج 2 ص 42 .

569 – المحكم في نقط المصحف، ص 19 .

فقد كان لإعجام المصحف وإعرابه في ذلك الوقت منافع جليلة وأثارا بليغة في حفظ كتاب الله من اللحن، ووقايته من التصحيف. ولم يقف هذا التحسين عند هذا الحد، بل تدرج في أطوار متلاحقة إلى أن بلغ ذروة الجمال في نهاية القرن الثالث الهجري .

"والحقيقة أن ما حواه مصحف عثمان لم ينقص شيئا ولا زيد فيه شيء، أثبت ما أمر الله بإثباته واقتصر فيه على ما ثبت بالتواتر، دون ما كانت روايته آحادا، وأهمل ما نسخت تلاوته ولم يستقر في العرضة الأخيرة، ورتب فيه السور والآيات على الوجه المعروف الآن، وكتبه بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن، وجرده من كل ما ليس قرآنا كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة" (570) .

ولعل في هذا الكلام من الدليل ما يكفي للرد على ما قاله **هنري ماسيه:**

«Sans doute il faut le répéter le Coran, tel qu'il nous est parvenu, ne contient pas la totalité des révélations».

"إن القرآن كما وصل إلينا لا يتضمن الوحي كله" (571) .

فلم يصل إلينا أن النساخ أغفلوا أجزاء أو آيات أو ألفاظا أو أي شيئا مما كان موجودا في المصحف الإمام، فلو حدث ذلك لرفضه الناس في ذلك الزمان، ولكن لم يحصل شيء من هذا إطلاقا .

570 – أنظر: محمد عبد العظيم الزرقاني، المرجع السابق، ج 1 ص 260 .

571 - Ibid , p. 79 .

الفصل الرابع: موقف المستشرقين الفرنسيين من القراءات القرآنية

المبحث الأول: اختلاف القراءات القرآنية:

من غريب الأمور وليس من باب الصدف أن يكون ما قاله المستشرقون الفرنسيون هو عين ما جاء عن المستشرق المجري **جولد زيهر**، حيث ذهب هو الآخر إلى القول إن الاختلاف في القراءات كان في معظمه بسبب خط المصحف، ولكي نتأكد من هذه الحقيقة ننقل ما قاله هذا المستشرق بالحرف لندرك مدى التطابق التام بينه وبين المستشرقين الفرنسيين، يقول: " **ترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمات، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذن فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات في المحصول الموحد الغالب من الحروف الصامتة، كان هما السبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطا أصلا، أم لم تتحر الدقة في نقطه أو تحريكه**" (572).

الواقع، أن زعم هذا المستشرق ومن قبله زعم المستشرقين الفرنسيين لم يبن على نص صحيح صريح ولا عن دليل قوي يثبت له وجوده .

فهناك أحاديث مختلفة كلها تفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام، صرح بنزول القرآن على سبعة أحرف، و من أوضح تلك الأحاديث ما رواه البخاري بلفظه أن عمر رضي الله عنه، قال: "**سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكدت**

---

572 - مذاهب التفسير الإسلامي، ص 8 - 9

أساوره في الصلاة، فانتظرت حتى سلم ثم لببته بردائه أو بردائي، قلت: من أقرأك هذه السورة ؟ قال: أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت له كذبت فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه " (573).

أما عن سبب ورود الحديث فهو التخفيف والتهوين على الأمة ورفع الحرج عنها .

ولاختلاف القراءات فوائد كثيرة، نذكر منها: بلاغة القرآن ورصانة أسلوبه الذي لا يرقى إليه أفصح رجل عربي في ذلك الوقت، ثم الإعجاز الذي أثبته القرآن في وجه العرب الفصحاء والبلغاء منهم، حيث عجزوا عن مضاهاة أسلوب القرآن، فحاولوا – عملا – وفشلوا في النسج على منواله، فوصل بهم العجز إلى أنهم لم يستطيعوا الإتيان ولو بآية واحدة بما يعادل جملة عربية لديهم. ثم هناك الإيجاز الذي لا يخل بالمعنى، على عكس الإيجاز عند العرب في كلامهم الذي يعقد المعنى ويعرقل ملكة الفهم والإدراك .

ولقد خص الله تعالى أفرادا من خلقه وكلفهم حفظ القرآن وتحفيظه ومن عليهم بنعمة الفضل والفتح المبين، وسهل عليهم مأمورية الأمانة السماوية وذلك في حفظ كلامه من التحريف والتصحيف والتبديل على مر العصور وتعاقب الأجيال، فنراهم يقرءونه كما تعلموه من سابقيهم بدءا بمن شهدوا نزول الوحي وعاينوا اختلاف الأداء والقراءة، وحملوا بدقة وأمانة تلك الأداءات إلى من يلي عهدهم وفعل نفس الأمر من جاء بعدهم إلى أن استقر الأمر في عهد الأئمة الذين وهبوا حياتهم لهذا العمل الجليل، فكانوا فيه

---

573 – صحيح البخاري بشرح الكرماني، ج 19 ص 11 – 12

مخلصين مدققين حيث شعروا بثقل الأمانة ووجاهة المسئولية فتتبعوا السند الذي أوصل إليهم ذلك المتن القرآني معتمدين في ذلك على مقاييس تعتبر معيارا لقبول قراءة من القراءات آمنين كل الإيمان أن ما خرج عن تلك الشروط يعد مثار شك ويتطلب إعادة النظر حتى لا يلحق بما تواتر عليه السلف، وبعدهم الخلف، ثم من يليهم فتعددت شروط لقبول قراءة بها يستطيعون رد ما لم تتوفر فيه الشروط، ولو سمع من صحابي بإسناد صحيح بل يعد ذلك شاذا خارجا عن الجماعة، فتمييزا بين ما شذ وبين ما تواتر وصح وضعت الشروط التالية:

الشرط الأول: موافقة كل قراءة للعربية بوجه من وجوه النحو سواء كان أفصح أو فصيحا مجمعا عليه أو مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله خصوصا إذا أشاعت القراءة وتلقتها الأمة بالقبول بإسناد صحيح فلا اعتبار لأفكار بعض أهل النحو .

الشرط الثاني: موافقة القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، ويقصد بذلك ما كان ثابتا في بعض المصاحف دون البعض بعد انتشارها في الأمصار كموافقة قراءة إمام من المقرئين مصبحف مصر من الأمصار .

الشرط الثالث: أن يكون سند القراءة صحيحا متصلا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليس فيه شذوذ ولا علة، ومعنى ذلك أن يروي تلك القراءة عدل ضابط عن مثله حتى تنتهي إليه صلى الله عليه وسلم. وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين. وبعض المتأخرين يشترطون التواتر في هذا الركن دون الاكتفاء بصحة السند باعتبار أن القراءة لا تثبت إلا بالتواتر[574] .

يفهم من هذا كله، أن كل قراءة فقدت شرطا من هذه الشروط الثلاثة فهي شاذة لا يصح اعتبارها قرآنا يتلى على الناس.

[574] - أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 1 ص 12 - 16

هكذا يثبت لنا بما لا يقبل الشك والريبة أن الخط الذي كتب به القرآن على عهد عثمان رضي الله عنه، لم يكن سببا في نشوء اختلاف القراءات، يقول الدكتور عبده الراجحي: **" صحيح أن الخط الذي كتبت به المصاحف لم يكن منقوطا ولا مشكولا، ولكن ذلك لم يكن سببا في وجود القراءات القرآنية"** [575].

ثم أن الاختلاف قد ثبت بين الصحابة – كما رأينا – في أول الإسلام في الوقت الذي يتلقون فيه القرآن مشافهة، الشيء الذي يدل على أن فكرة النقط والشكل لم تطرح عندهم ومهما يكن من أمر فقد اختلفوا في وجوه القراءات بغض النظر عن كتابة المصاحف منقوطة أو غير منقوطة مشكولة أو غير مشكولة، فالاختلاف قد ثبت في الأصل، بل كان تلقيا مأخوذا عنه عليه الصلاة والسلام .

كما أن اختلاف القراءات تابع أيضا لاختلاف الصحابة رضوان الله عليهم، وهم قد حرصوا كل حرص أن يقرأ كلام الله كما أراده الله، فأخذوا قراءاتهم المختلفة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، التي أخذها عن رب العزة بواسطة أمين الوحي وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن القراءات ليست من قبيل الاجتهادات الشخصية، بل المعتمد فيها النقل الصحيح والتواتر المستفيض، يقول عبده الراجحي: **" وقد ثبت ذلك في الأحاديث الكثيرة التي تتناول الموضوع، لذلك شمر التابعون خصوصا الأئمة المتأخرين عن ساعد الجد في هذا المجال، وتتبعوا كل الطرق والروايات تمييزا للصحيح مع غيره. كما أن اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم، في حد ذاته كان رحمة للأمة وتخفيفا عليها. فكما عاش الصحابة في قبائل عربية مختلفة نفس الاختلاف نظرا لتنوع اللهجات واللغات وطرق النطق ببعض الحروف أو الكلمات. الشيء الذي جعل اختلاف اللهجات سببا في تعدد أوجه القراءات رحمة بالناس فلا زالت هذه الصفة سارية المفعول إلى اليوم، حيث استمر النقل والرواية لكل الطرق التي يتلى بها كتاب الله. فإذا كان الاختلاف بين أولئك**

---

575 – اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ص 71 .

الذين تلتقي لهجاتهم في دائرة العربية الأصيلة. فما بال لسان الحال الذي تتقاذفه أمواج من اللغات واللهجات عربية وغير عربية، فاختلاف اللهجات إذن لازال ثابتا بين البلدان العربية" (576)

ثم " **إن الاختلافات الكثيرة في القراءة لا يقود المسلمين إلى تناقض في المقروء بل القرآن يصدق بعضه بعضا ما دام الكل له أصل، علاوة على تنوع القراءات دليل واضح على أن ما اختلف فيه كلام الله وعلى صدق ما جاء به صلى الله عليه وسلم، إلى الناس وإن شئت قل إن تعدد القراءات يفيد تعدد الإعجاز القرآني أمام الجاحدين المضلين، وذلك يعني أن القرآن يعجز إذا قرأ بقراءة كما يعجز إذا قرأ بقراءة ثانية وهكذا"** (577).

إن القراءات الحالية إنما هي حرف من الأحرف السبعة وهذه الأخيرة قد نسخت ستة منها في العرضة الأخيرة، وعلى الكيفية **التي عرضه بها الرسول عليه الصلاة والسلام، في العام الذي قبض فيه يقرأ به إلى اليوم** (578).

إن الأحرف السبعة كلها منزلة من عند الله فهي وحي إذا، أخذها محمد صلى الله عليه وسلم، عن الله بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، ثم أخذها الخلف عن السلف بالتلقي والمشافهة، وهذا يمنع على أي واحد أن يقرأ باجتهاد أو هوى أو يغير أو يبدل لأن المشرع والمفسر والموضح لشريعة الإسلام قد حسم الأمر في ذلك بقوله " **هكذا أنزلت** " أو شبه هذا، فلو أبيح لإنسان كيفما كان أن يأتي بألفاظ أو يعدل في نظره لبطلت قرآنية القرآن .

فلا يجوز للمستشرقين أن يأخذوا اختلاف القراءات موضوعا للتشكيك ومثار نزاع ومجادلة وتكذيب، لأن القراءة على تلك الأوجه المختلفة إنما كان تهوينا عن المسلمين، وليس من المعقول أن يجعلوا من اليسر عسرا و من المنحة محنة .

---

576 – نفس المرجع، ونفس المكان .

577 – محمد عبد العظيم الزرقاني، المرجع السابق، ج 1 ص 146 – 149

578 – أنظر: السيوطي، المصدر السابق، ج 1 ص 66 .

المبحث الثاني: نظرية قراءة القرآن بالمعنى:

لقد أثار بلاشير مسألة على جانب كبير من الخطورة فيما يخص موضوع القراءات القرآنية وهي مسألة قراءة القرآن بالمعنى، حيث رأى أن بعض المسلمين كانوا يعتنون بروح القرآن الكريم، وإن لم يطابق حرفية اللفظ القرآني، مما أدى حسب رأيه إلى نشأة فكرة قراءة القرآن بالمعنى، يقول:

«La situation semble se maintenir confuse, pendant une trentaine d'années c'est-à-dire durant la période qui va de l'intronisation de Ali en 35/656, jusqu'à celle de cinquième Calife Omayyade Abd-al-Malik, en 65/685. Durant ce temps s'affrontent toutes les tendances. La vulgate Othmanienne ne peut manquer de gagner du terrain carrelle elle a l'appui de la faction dont elle est l'œuvre et qui occupe des places importantes en Syrie. C'est peut-être vers ce temps que s'élabore une théorie qui montre combien la reforme de Othman devenue indispensable. Pour certains fidèles en effet ce n'était pas la lettre du Coran qui importait mais son esprit. De lors, dans les divergences de pure synonyme, le choix de la leçon restait indifférent cette théorie dite de la "Récitation selon le sens" (al-quira atu bi-l-mo na) était certes des plus dangereuse puisqu'elle livrait la Fixation du texte a la fantaisie de chacun. Une telle attitude en admettant qu'elle ne fût pas inspirée par les tenants des corpus hétérodoxes, tendant singulièrement a favoriser la position de ces derniers. A mesure d'ailleurs que le temps s'écoulait et que de nouveaux éléments non arabes venaient se fondre dans le sein de la communauté islamique, les variantes involontaires ne pouvaient manquer de se multiplier, même en partant de la vulgate Othmanienne »[579].

"خلال الفترة التي تبدأ من مبايعة علي عام 35 هجرية حتى مبايعة الخليفة الأموي الخامس عبد الملك عام 65 هجرية كانت جميع الاتجاهات تتواجه، فالمصحف العثماني قد نشر نفوذه في كل البلاد، إذ كان مؤيدا بنفوذ من شاركوا في عمله، وقد كانوا يشتغلون مناصب مهمة في الشام وربما كان

[579] - Introduction au Coran , p. 69 - 70

هذا هو الموقف الذي نشأت فيه نظرية معينة، تدل على أن إصلاح عثمان كان قد أصبح ضروريا، فبالنسبة إلى بعض المؤمنين، لم يكن نص القرآن بحرفه هو المهم، وإنما روحه. ومن هنا ظل اختيار الوجه (الحرف) في القراءات التي تقوم على الترادف المحض، أمرا لا بأس به، ولا يثير الاهتمام، هذه النظرية التي يطلق عليها (القراءة بالمعنى) كانت دون شك من أخطر النظريات إذ كانت تكل تحديد النص إلى هوى كل إنسان. وموقفا كهذا مع تسليمنا بأنه لم يكن من وحي أصحاب المصاحف المخالفة كان يعد خير ما يدعم موقف أصحاب هذه المصاحف، ومع ذلك كلما مضى الوقت واندمجت في كيان المجتمع الإسلامي عناصر غير عربية، كانت الوجوه المختلفة غير الإرادية تتضاعف وتتكاثر، حتى كانت طائفة منها ناشئة على أساس المصحف العثماني" [580].

الـــــرد :

لقد تتبع الدكتور **عبد الصبور شاهين** قول المستشرق الفرنسي **بلاشير** ، ورأى أن لهذه النظرية وجهين:

الوجه الأول: يشير فيه صاحبه إلى أن بعض الأوجه من القراءات ناشئ عن تصرفات شخصية لعناصر غير عربية، فإذا صح ذلك كان من أقوى ما يدعم شكنا في صحة هذه الوجوه المنسوبة إلى الصحابة أو التابعين وغيرهم .

الوجه الثاني: زعم فيه أن طائفة منها ناشئة (يعني مخترعة)على أساس المصحف العثماني، مقصود به أيضا إلقاء الشك على قيمة القراءات الصحيحة المختلفة، الموافقة للرسم العثماني، ومن ثم الشك في قيمة الرسم العثماني ذاته، من حيث هو مقياس لصحة القراءة من المقاييس الثلاثة [581] .

والذي يجب أن نفهمه أن بلاشير لم يكن أول من ألقى بهذه الشبهة، فقد سبقه إليها المستشرق المجري جولد زيهر، الذي ادعى أنه ما لم يحصل

---

580 – أنظر: عبد الصبور شاهين، تاريخ القرآن، ص 85 .

581 – نفس المصدر، ص 86 .

اختلاف أساس في معنى الألفاظ، فالمعول عليه في المرتبة الأولى هو المعنى الذي يستنبط من النص، وهو رأي ينتهي إلى القول بجواز قراءة النص المطابق للمعنى، وإن لم يطابق حرفية اللفظ .

ويرد الدكتور التهامي نقرة على هذه الشبهة ويقول: " **وقراءة القرآن بالمعنى لم يقل بها أحد. ولكن جولد زيهر استنتج ذلك من قول عبد الله بن أبي سرح كاتب الوحي عند الرسول صلى الله عليه وسلم.**

ولا يخفى أن ابن أبي سرح ارتد بعد وفاة الرسول، فقد يكون ذلك من زيادات بعض الشراح المتأخرين الذين غالوا في اتهامه بأنه كان يبدل القرآن وإن صح ما روي عنه، فإنه لا يعتد بقول مرتد، وكيف يسمح الرسول بتبديل ما أنزل الله عليه، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[582](583) .

وإضافة إلى ما قاله هؤلاء الباحثون، نحب أن ننبه إلى شيء مهم في مجال القراءات القرآنية ألا وهو: أن اللفظ القرآني الواحد مهما تعدد أداؤه وتنوعت قراءته لا يخرج التغاير فيه عن سبعة وجوه، وهي :

أولا: الاختلاف في وجوه الإعراب، سواء تغير المعنى أم لم يتغير .

ثانيا: الاختلاف في الحروف إما بتغير المعنى دون الصورة، وهو ما يعبر عنه أحيانا بالاختلاف في النطق .

ثالثا: اختلاف الأسماء في إفرادها وتثنيتها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها .

رابعا: الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة يغلب أن تكون إحداهما مرادفة للأخرى، وإنما تتفاوتان بجريان اللسان بإحداهما لدى قبيلة دون الأخرى .

---

[582] – سورة يونس، الآية 15 .

[583] – المرجع السابق، ص 47 – 50

خامسا: الاختلاف بالتقديم والتأخير فيما يعرف وجه تقديمه أو تأخيره في لسان العرب العام، أو في نسق التعبير الخاص .

سادسا: الاحتفاظ بشيء يسير من الزيادة والنقصان جريا على عادة العرب في حذف أدوات الجر والعطف تارة وإثباتها تارة أخرى.

ولذلك لم تحتفظ هذه الضروب من الزيادة والنقص إلا في أحرف قليلة محدودة مع التنبيه على شذوذ كل ما لم يحفظه الأئمة التقاة .

سابعا: اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة، والترقيق والتفخيم، والهمز والتسهيل، وكسر حروف المضارعة، وقلب بعض الحروف وإشباع ميم الذكور، وإشمام بعض الحركات... (584).

يقول أبو بكر الباقلاني: " **فكيف يجوز لقائل أن يقول إن القراءة على المعنى جائزة مع العلم بما كان عليه الصحابة من المثابرة على نقل القرآن على ما سمعوا وشدة تحاميهم في ذلك وكثرة الروايات فيه، نحو ما روي عن ابن مسعود أنه قرأ عليه رجل (طه) بنصب الطاء والهاء، فرد عليه ابن مسعود بكسرهما جميعا، وقال: هكذا علمني النبي صلى الله عليه وسلم، وهكذا نزل بها جبريل عليه السلام .**

وقال عطية العراقي قرأت على عبد الله بن عمر: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ (585) فقال ضعف، ثم قال قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قرأت على ورد علي كما رددت عليك. فأنت ترى تحفظهم على النصب والرفع على سهولته، فكيف تبديل الكلمة بما هو بمعناها ؟ ويدل ذلك على أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (رحم الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه).

---

584 - أنظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص 36 - 38

585 - سورة الروم، من الآية 54 .

وقوله صلى الله عليه وسلم: (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) فكيف يأخذ عليهم أن يؤدوا مقالته كما سمعوها منه ويتيح لهم مع ذلك نقل القرآن على المعنى ؟ هذا ما لا يقول محصل، وقد أجمع الكل ممن أجاز رواية الحديث ومن لم يجز ذلك على منع قراءة القرآن على المعنى، وقد كان منهم من ينهى على الإكثار ويحض على حفظ القرآن، فلو كان القرآن تجوز قراءته على المعنى لكان من الصواب النهي عن الاستكثار منه خوف تبديله، وتقديم مؤخره كما خوف لأجل ذلك من الإكثار من الحديث" [586] .

---

[586] - نكت الانتصار، ص 328 - 329

الخاتمة :

لقد غامر المستشرقون الفرنسيون بتقديم مجموعة من الآراء لتفسير الظاهرة القرآنية، و ما دامت المغامرة في ميدان البحث العلمي محمودة في بعض الأحيان إلا أنها لا تخلو من مزالق فكرية وانحرافات منهجية، فإننا نقرر في يقين جازم أن السمة المهيمنة التي تنتظم فيها آراء المستشرقين الفرنسيين – فكريا ومنهجيا – هي: التصدي للقرآن الكريم. وقد يبدو هذا الجزم منطويا على شطط في المغامرة، ولعله يبدو مصادما للروح العلمية التي ينبغي أن تتحلى بها الدراسات الاستشراقية، هذه الروح التي من شروطها الحذر والحيطة وتجنب الأحكام المطلقة. إلا أننا لم نصدر هذا الحكم إلا بعدما قلبنا بقية الأسباب على وجوهها، فبدا لنا أنها في مجملها، إن استجابت لجانب تفلتت من بين أيديها جوانب أخرى .

لقد أبرزت لنا الدراسة من خلال العملية النقدية التي قامت عليها عدة نتائج يمكن حصرها في النقاط الآتية:

1 – الميل نحو التفسير المادي للوحي، فمفهوم الوحي عند المستشرقين الفرنسيين لا يعدو مجرد عملية تفاعل الإنسان مع الواقع الذي يعيش فيه، حيث كان الوحي استجابة سريعة لإحساس الألم الذي استشعره الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضوان الله عليهم، ثم يأتي الوحي لإزالة الكرب الذي يعانون منه، وهكذا كلما تكررت الأعراض المؤدية إلى المرض والحزن والكرب عاود الوحي النزول .

2 – إن مفهوم الوحي عند المستشرقين الفرنسيين لا يتجاوز كونه أحداثا تاريخية أو مجموعة من الوقائع الاجتماعية .

3 – لقد تعامل المستشرقون الفرنسيون مع القرآن الكريم على اعتبار أنه عمل بشري محض يجري عليه ما يجري على أي عمل بشري من ممارسة النقد وعقد مقارنات بينه وبين الأدبيات التي كانت منتشرة في زمان تواجده .

4 – تركيز الاستشراق الفرنسي في مجال اهتمامه بالقرآن على القصص، وذلك من أجل دعم الفكرة التي تقول إن القرآن لم يكن سوى عملية استنساخ لما ورد في الكتب المقدسة السابقة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يقم بأكثر من عملية استعارة لما كان يعتمل في الجزيرة العربية آنذاك من أفكار دينية يهودية ومسيحية وبعض التقاليد التي حاول الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يهذبها ويضفي عليها الصبغة الدينية، فاستطاع أن يكون من هذا الخليط دينا سماه "**الإسلام**".

5 – مجافاة الآراء الاستشراقية الفرنسية لروح القرآن وتصادمها مع أبسط البديهيات الإسلامية، التي تقرر أن القرآن الكريم له امتياز خاص يجعله يعلو على الزمان والمكان .

6 – إتيان المستشرقين الفرنسيين بنصوص متهافتة وساقطة لا تبنى عليها الأحكام، ناسين أو متناسين أن القرآن الكريم يمثل الحقيقة المطلقة التي لا يمكن أن تخضع لأي حكم نسبي كما يقضي بذلك علم المنطق الذي يقرر أن النسبي لا يتحكم في المطلق .

7 – عدم قدرة المستشرقين الفرنسيين على الوصول إلى أي نتيجة علمية يعول عليها في مجال الدراسات القرآنية سوى التخمينات التي نسجها خيالهم المريض بالتهيؤات والأوهام رغم ادعاءهم الموضوعية والعلمية والحيادية .

8 – إن المشكلة الأساسية لآراء المستشرقين الفرنسيين هي انطلاقها من مسبقات فكرية و محاولة الاستدلال عليها بأي شيء كيفما كانت حالته العلمية، المهم أن يخدم الغرض الذي من أجله أثير ذلك الموضوع القرآني .

ومهما قلت وأقول، فهذه الدراسة تشكل خطوة صغيرة على درب طويل في الذود عن كتاب الله ضد ما يثار من شبهات، القصد منها إزالة القدسية عنه وإبعاد الناس عن مدارسته والحيلولة دون التأثر به ليس إلا .

وما علينا نحن الذين نؤمن بالله ربا والإسلام دينا وبمحمد صلى عليه وسلم، نبيا ورسولا، وبالقرآن كلام الله حقا الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه

ولا من خلفه، إلا أن نعمق معرفتنا بهذا الكتاب الرباني معرفة تجعلنا واعين بشراسة المواجهة مع كل ما يقدم من دراسات وأبحاث تروم النيل من هذا الدين عن طريق الطعن في القرآن الكريم، وتجعلنا في الوقت ذاته مؤهلين لتسخير كل الوسائل العلمية للتعريف بالقرآن أعظم قاعدة لتثقيف الإنسانية جمعاء .

لائحة بأسماء المصادر والمراجع المعتمدة :

المصادر والمراجع العربية

- ❖ **القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.**
- ❖ **الكتاب المقدس**، ط. العيد المئوي 1883 – 1983، دار الكتاب المقدس – مصر.

1– إبراهيم بن موسى الشاطبي:

✓ الموافقات في أصول الشريعة، عنى بضبطه وترقيمه ووضع تراجمه: محمد عبد الله دراز، ط. الثانية 1395هـ – 1975م، دار الفكر العربي.

2- أحمد درويش:

✓ الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، ط. 1977م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

3– أحمد شعيب النسائي:

✓ السنن بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية السدي، ط. الثانية 1406هـ – 1986م، دار البشائر الإسلامية – بيروت – لبنان.

4– أحمد بن فارس بن زكريا:

✓ الصاحبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، بدون تاريخ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة – مصر.

5- أحمد بن حنبل:

- ✓ المسند، حققه: محمد ناصر الدين الألباني، ط. الرابعة 1983م، المكتب الإسلامي – بيروت – لبنان.

6- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني:

- ✓ تهذيب التهذيب، ط. الأولى 1316 هـ، دار صادر – بيروت – لبنان.
- ✓ فتح الباري بشرح البخاري، صححه وعلق عليه: عبدالعزيز بن عبد الله بن باز، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين بن الخطيب، بدون تاريخ، دار المعرفة – بيروت – لبنان.

7- اجنتس جولد زيهر:

- ✓ مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة: عبد الحليم النجار، ط. الثانية 1403هـ – 1983م، دار إقرأ – بيروت – لبنان.

8- إدوارد سعيد:

- ✓ الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، بدون تاريخ، مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت – لبنان.

9- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي:

- ✓ البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط.الأولى 1376هـ – 1957م، دار إحياء الكتب العربية.

10- بطرس البستاني:

- ✓ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ط. 1979 م، دار هارون عبود – لبنان.

11- أبو بكر الباقلاني:

✓ إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط. الخامسة، دار المعارف – مصر.

✓ نكت الانتصار لنقل القرآن، دراسة وتحقيق: د. محمد زغلول سلام، بدون تاريخ، منشأة المعارف – الاسكندرية – مصر.

12-أبو بكر محمد بن الحسين الزبيدي:

✓ لحن العامة، تحقيق: د. عبد العزيز مطر، ط. 1981م، دار المعارف – مصر.

13- تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية:

✓ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، بدون تاريخ، مطبعة المدني – مصر.

14- التهامي نقرة:

✓ القرآن والمستشرقون، من كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، الجزء الأول، تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة 1405 هـ – 1785م، مطبعة مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض – المملكة العربية السعودية.

15- جلال الدين بن أبو بكر السيوطي:

✓ الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الثالثة 1405هـ – 1985م، دار التراث.

✓ أسرار ترتيب القرآن، دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط. الثانية 1398هـ – 1978م، دار الاعتصام.

✓ المزهر، شرحه وضبطه وعلق على حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بكر ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، ط. الثالثة، دار التراث – القاهرة.

16– جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي:

✓ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، بدون تاريخ، المؤسسة المصرية العامة.

17– جمال الدين بن منظور:

✓ لسان العرب، بدون تاريخ، دار المعارف – القاهرة – مصر.

18– جوزيف نسيم يوسف:

✓ نشأة الجامعات في العصور الوسطى، ط. الأولى 1971م، منشأة المعارف – الإسكندرية – مصر.

19– الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني:

✓ المفردات في غريب القرآن، بدون تاريخ، المطبعة الميمنية – مصر.

20 – حسين نصار:

✓ القافية في العروض والأدب، بدون تاريخ، دار المعارف .

21 – رابح لطفي جمعة :

✓ القرآن والمستشرقون، ط. 1393 ه – 1973 م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة – مصر .

22 – الرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني :

✓ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، بدون تاريخ، دار المعارف – مصر .

23 – ريجي بلاشير:

✓ تاريخ الأدب العربي، تعريب: د. إبراهيم الكيلاني، بدون تاريخ، دار الفكر .

✓ القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، نقله إلى العربية: رضا سعادة، ط. الأولى 1974 م، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان.

24 – سميح عاطف الزين :

✓ قصص الأنبياء في القرآن الكريم، بدون بيانات .

25 – السيد سابق:

✓ إسلامنا، بدون تاريخ، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان

26 – سيد علي الحريري :

✓ الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط. الأولى 1317 ه، المطبعة العمومية – مصر .

27 – سيد قطب :

✓ التصوير الفني في القرآن، ط. الثامنة 1404 ه – 1983م، دار الشروق – بيروت – لبنان .

28 – سهيل ديب:

✓ التوراة تاريخها وغايتها، ط. التاسعة 1406 ه – 1986 م، دار النفائس – بيروت – لبنان .

29 – سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي الآمدي:

✓ الإحكام في أصول الأحكام، تعليق: عبد الرزاق عفيفي، وقام بتصحيحه: عبد الله بن عريان وعلي الحمد الصالحي، ط. الأولى 1387 ه

30 – الشحات السيد زغلول :

✓ أبي بن كعب الرجل والمصحف، ط. الأولى 1398 ه – 1978 م، الهيئة المصرية العامة للكتاب – الإسكندرية – مصر .

الاتجاهات الفكرية في التفسير، ط. الأولى 1395 ه – 1975 م،

الهيئة المصرية العامة للكتاب – الإسكندرية – مصر .

31 – الشريف علي بن محمد الجرجاني :

✓ كتاب التعريفات، ط. الأولى 1403 ه – 1983 م، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

32– شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد الجزري :

✓ النشر في القراءات العشر، أشرف على تصحيحه ومراجعته: علي محمد الدباغ، بدون تاريخ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

33 – شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكرالزرعي بن قيم الجوزية :

✓ التبيان في أقسام القرآن، صححه وعلق عليه: طه يوسف شاهين، ط. 1402 ه – 1982 م، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

✓ زاد المعاد في هدى خير العباد، ط. الثامنة 1405 ه – 1985 م، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان .

✓ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، بدون تاريخ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .

34 – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي :

✓ تذكرة الحفاظ، بدون تاريخ، دار الفكر العربي .

✓ سير أعلام النبلاء، حققه: حسين الأسد، ط. الثالثة 1405 هـ – 1985 م، مؤسسة الرسالة .

35 – شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني :

✓ إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، بدون تاريخ، دار الكتب العربية – بيروت – لبنان .

36 – صلاح الدين خوذا بخش :

✓ حضارة العرب، ترجمة وتحقيق: د. علي حسين الخربوطلي، ط. 1971 م، دار الثقافة – بيروت – لبنان .

37 – عبد الرحمن بن علي بن الجوزي :

✓ عجائب علوم القرآن، حققه وقدم له وعلق عليه: عبد الفتاح عاشور، ط. الأولى 1407 ه – 1986 م، الزهراء للإعلام العربي – القاهرة – مصر .

38 – عبد الرحمن بن محمد بن خلدون :

✓ المقدمة، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط. الثالثة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة – القاهرة – مصر .

39– عبد الصبور شاهين :

✓ تاريخ القرآن، ط. 1966 م، دار القلم .

40 – عبد العظيم المطعني :

الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، ط. الأولى 1407 هـ – 1987 م، دار الوفاء للطباعة – المنصورة – مصر .

41 – عبد الفتاح القاضي :

✓ المصحف الشريف: أبحاث في تاريخه وأحكامه، ط. 1388 هـ – 1968 م، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – القاهرة – مصر.

42 – عبد الفتاح لاشين :

✓ الفاصلة القرآنية، ط. 1402 ه – 1982 م، دار المريخ للنشر – الرياض – المملكة العربية السعودية .

43 – عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني :

- ✓ السنن، ط. 1408 ه – 1988 م، دار الحديث – القاهرة – مصر .
- ✓ كتاب المصاحف، أشرف عليه: المستشرق الأمريكي آرثر جفري، ط. الأولى 1355 ه – 1969 م، طبعة الرحمانية – مصر .

44 – عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي :

- ✓ سر الفصاحة، شرح وتصحيح: عبد المتعال الصعيدي، ط. 1389 ه – 1969 م، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده .

45 – عبد الله بن مسلم بن قتيبة :

- ✓ تأويل مختلف الحديث، ط. الأولى 1405 ه – 1985 م، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان .
- ✓ تأويل مشكل القرآن، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، ط. الثانية 1393 ه – 1973 م، دار التراث – القاهرة – مصر .
- ✓ الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط. 1364هـ، دار إحياء الكتب العربية .

46– عبد الملك بن هشام:

- ✓ سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، راجع أصولها وضبط غريبها وعلق على حواشيها ووضع فهارسها: محمد محي الدين عبد الحميد، بدون تاريخ، دار الفكر .

47 – عبد الودود شلبي :

- ✓ التزوير المقدس، ط. الثانية 1407 ه – 1986 م، دار الشروق – بيروت – لبنان .

48 – عبده الراجحي :
✓ اللهجات العربية في القراءات القرآنية، ط. 1969 م، دار المعارف – مصر .

49 – عثمان بن سعيد الداني:
✓ المحكم في نقط المصحف، تحقيق: عزت حسن، ط. الثانية 1407 ه – 1986 م، دار الفكر – دمشق – سوريا .
✓ المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، مكتبة الكليات الأزهرية .

50 – علي بن أحمد بن سعيد بن حزم :
✓ المحلى، تحقيق: أحمد محمد سالم، ط. 1387 ه – 1967 م، دار الاتحاد العربي للطباعة .

51 – علي بن أحمد الواحدي النيسابوري :
✓ أسباب النزول وبهامشه الناسخ والمنسوخ، ط. 1315 ه، طبع في مطبعة هندية في غيط النوبي – مصر .

52 – علي بن الحسن بن علي المسعودي:
✓ مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط. الأولى 1402 ه – 1982م، دار الكتاب اللبناني – بيروت – لبنان .

53 – علي سامي وعباس أحمد الشربيني :
✓ الفكر اليهودي وتأثره بالفلسفة، ط. 1972 م، منشأة المعارف – الإسكندرية – مصر .

54 – علي بن محمد الماوردي :
✓ أعلام النبوة، ط. الأولى 1393 ه – 1973 م، دار الكتب العلمية – بيروت – مصر .

55 – عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير :

- ✓ البداية والنهاية، ط. الثالثة 1979 م، مكتبة المعارف – بيروت – لبنان .
- ✓ تفسير القرآن العظيم، بدون تاريخ، مكتبة زهران – القاهرة – مصر .
- ✓ فضائل القرآن، أشرف على تصحيحه وعلق عليه: محمد رشيد رضا، ط. 1347 ه، مطبعة المنار – مصر .

56 - عمرو بن بحر الجاحظ:

- ✓ البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط. الرابعة، مكتبة الخانجي – مصر .

57 - عياض بن موسى بن عياض اليحصبي :

- ✓ الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: علي محمد بجاوي، بدون تاريخ، مصطفى عيسى البابي الحلبي وشركاه.

58 – غوستاف لوبون :

- ✓ حضارة العرب، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، بدون تاريخ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .
- ✓ اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، نقله إلى العربية: عادل زعيتر، بدون تاريخ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

59 – الفخر الرازي:

- ✓ التفسير الكبير، ط. الثالثة، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان .

60 – فريد وجدي:

- ✓ دائرة المعارف القرن العشرين، ط. الثالثة 1971 م، دار المعرفة – بيروت – لبنان .

61 – الفضل بن الحسن الطبرسي :

- ✓ مجمع البيان في تفسير القرآن، بدون تاريخ، دار مكتبة الحياة – بيروت – لبنان .

62 – قدامة بن جعفر:

- ✓ نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى، ط. الثالثة 1979 م، مكتبة الخانجي – القاهرة – مصر .

63– القاسم السجلماسي :

- ✓ المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق: علال الغازي، ط. 1980 م، مكتبة المعارف – الرباط – المملكة المغربية .

64 – كارل بروكلمان:

- ✓ تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية: نبيه فارس ومنير البعلبكي، ط. التاسعة 1981 م، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان .

65 – لورا فيشيا فاغليري :

- ✓ دفاع عن الإسلام، نقله إلى العربية: منير البعلبكي، ط. الخامسة يناير 1981 م، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان .

66 – محمد بن إدريس الشافعي :

- ✓ الرسالة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط. الثانية 1393 هـ – 1973 م، مكتبة دار التراث – القاهرة – مصر .

67 – مصطفى الخالدي وعمر فروخ:

- ✓ التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط. 1986، منشورات المكتبة العصرية صيدا – بيروت - لبنان .

68 – مصطفى صادق الرافعي :

✓ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط. التاسعة 1393 ه – 1973 م، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان .

69 – مصطفى محمود :

✓ التوراة، ط. 1972، دار العودة – بيروت - لبنان .

69 - محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي :

✓ عيار الشعر، تحقيق وتعليق: د. طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام، ط. 1956 م، المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – مصر.

70 – محمد أحمد عرفة :

✓ الأثار الفتحية، خواطر في العلم والأدب والاجتماع، يليه نقض مطاعن في القرآن الكريم، وقف على بعض الحواشي: محمد رشيد رضا، ط. الأولى 1351 ه، مطبعة المنار – مصر .

71– محمد بن أحمد الأنصار القرطبي :

✓ الجامع لأحكام القرآن، ط. الثالثة 1387 ه – 1967 م، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .

72 – محمد بن إسماعيل البخاري:

✓ الجامع الصحيح بشرح الكرماني، ط. الثانية 1404 ه – 1981 م، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان .

73 – محمد بن جرير الطبري :

✓ جامع البيان في تأويل آي القرآن، حققه وعلق على حواشيه: محمود محمد شاكر، وراجعه وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، ط. الثانية، دار المعارف – مصر .

74 – محمد أبو زهرة :

✓ المعجزة الكبرى القرآن، ط. الأولى 1390 ه – 1970 م، دار الفكر العربي .

75 – محمد سالم محيسن:

✓ في رحاب القرآن الكريم، ط. 1400 ه – 1980 م، الفجالة الجديدة – مصر .

76 – محمد الطاهر ابن عاشور :

✓ تفسير التحرير والتنوير، ط. 1984 م، الدار التونسية .

77 – محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي :

✓ أحكام القرآن، تحقيق: علي محمد بجاوي، بدون تاريخ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

78 – محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري :

✓ المستدرك على الصحيحين في الحديث، ط. الأولى 1968 م، مكتبة ومطابع النصر الحديثة .

79 – محمد عبد الله دراز :

✓ الدين، ط. 1389 ه – 1969 م، مطبعة السعادة .

✓ مدخل إلى القرآن الكريم، ط. 1404 ه – 1984 م، دار القلم - الكويت .

✓ النبأ العظيم، ط. الرابعة 1397 ه – 1977 م، دار القلم – الكويت.

80– محمد علي :

✓ حياة محمد ورسالته، نقله إلى العربية: منير البعلبكي، ط. الأولى 1963 م، دار العلم للملايين – بيروت – لبنان .

81– محمد علي الغتيت :

✓ الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، بدون تاريخ، الدار القومية للطباعة والنشر .

82 – محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الترمذي :

✓ الجامع الصحيح، تحقيق وتعليق: إبراهيم عطوة عوض، ط. الثانية 1395 ه – 1975 م، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر .

83 – محمد بن محمد الغزالي :

✓ إحياء علوم الدين، ط. الثالثة، دار القلم – بيروت – لبنان.

✓ المستصفى، ط. الأولى 1322 م، المطبعة الأميرية ببولاق – مصر .

84 – محمد محمد حسين :

✓ الاستعمار الفرنسي، ط. الثانية، دار النصر للطباعة والنشر والإعلام .

85 – محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم :

✓ الفهرست، تحقيق: محمد رشيد رضا، ط. شعبان 1391 هـ – أكتوبر 1971 م، بدون بيانات أخرى .

86 – محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي :

✓ البحر المحيط، ط. الثانية 1403 ه – 1983 م، دار الفكر.

87 – محمود حمدي زقزوق :

✓ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، كتاب مجلة الأمة القطرية، العدد الخامس، ط. الثانية صفر 1404 م .

✓ الإسلام في الفكر الغربي، ط. الثالثة 1406 ه – 1986 م، دار القلم – الكويت .

88 – موريس بوكاي:

دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ط. الرابعة 1977 م، دار المعارف – مصر .

89 - مناع القطان :

✓ مباحث في علوم القرآن، ط. الرابعة عشر 1403 ه – 1983 م، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان .

90– موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي :

✓ المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، ط. الأولى 1974 م، دار الحضانة – بيروت – لبنان .

91 – نجيب العقيقي :

✓ المستشرقون، ط. الرابعة، دار المعارف – مصر .

92– وحيد الدين خان :

✓ الإسلام يتحدى، ترجمة: ظفر الإسلام خان، مراجعة وتقديم: د. عبد الصبور شاهين، ط. السادسة 1976 م، المختار الإسلامي .

93 - ول ديورانت :

✓ قصة الفلسفة، ط. الثالثة 1975 م، مكتبة المعارف – بيروت – لبنان .

94 – يوسف أسعد داغر :

✓ مصادر الدراسة الأدبية، ط. 1956 م، منشورات جمعية أهل القلم – بيروت – لبنان .

المصادر والمراجع الأجنبية:

95- **Andrae Tor**: Les origines de l'Islam et le Christianisme, Librairie d'Amérique et d'Orient, Adrien-Maisonneuve, Paris 1955.

96- **Arnaldez , Roger**: - Le Coran guide de lecteur , Dexlée , Paris 1983.

- Mahomet ou la prédication prophétique, Ed. Seghers, Paris 1975.

97- **Barthold, V. V.**: - La découverte de l'Asie , Payot , Paris 1974.

98- **Blachère, Régis**: - Le Coran (traduit de l'Arabie), G.P .Maisonneuve & Larose, Editeurs, Paris 1980.

- Le Coran « Que sais-je » Ed. 2me, Presses universitaire de France, Paris 1969.

- Introduction au Coran, G.P.Maisonneuve et Larose, Paris 1977.

- Le problème de Mahomet, 1er éd., Presses universitaire de France, 1952 .

99- **Charnay, J.G.**: - Les Contre-Orients ou comment penser l'autre selon soi, Ed. Sindbad.Paris 1980.

100- **Chauvin , Victor**: - Bibliographie des ouvrages Arabes , Liège 1909, 1913 , 1922 .

101- **Garaudy, Roger**: - Promesses de l'Islam, Ed. du Seuil , Paris 1979 .

102- **Gaudefroy-Demenbynes, Maurice**:

- Mahomet, Ed. Albin Michel, Paris 1957.

103- **Grousset, René**: - Histoire des Croisades et du Royaume France de Jérusalem, Paris, Librairie Plon, 1936.

104- **Jargy, Simon**: - Islam et Chrétienté, Publications Orientalistes de France, 1981.

105- **Kasmirski, Albert**: - Coran, Tome premier, Introductions et notes de G.H.Bousquet Fasquelle, éditeurs , Paris.

106- **Lammens, Henri**: - L'Islam croyances et institutions, 3me éd. Imp. catholique , Beyrouth 1943.

107- **Laurens, H.**: - Aux sources de l'orientalisme, Ed. Maisonneuve Larose, Parin 1978.

108- **Massé, H.**: - L'Islam, 3me éd. Librairie Arman Colin, Paris 1940.

109- **Masson, D.**: - Le Coran, Préface J.Grosjean, Ed.Gallimard 1967.

- Le Coran et La Révélation Judéo-Chrétienne, Etudes comparées , Librairie d'Amérique et d'Orient Adrien-Maisonneuve , Paris 1958.

110- **Montet, E.**: - L'Islam , Payot et Cie , Paris 1921 , Abbeville-Imprimerie , F.Paillat.

- Mahomet, Le Coran, Payot, Paris 1944.

111- **Pareja, F.M. (en collaboration)**: - Islamologie, Imprimerie Catholique , Beyrouth 1963

112- **Pasquiet, Roger**: - Découverte de l'Islam, Institut islamique de Genève.

113- **Pellat, Charles**: - L'Islam, Civilisations peuples et mondes, Ed. Lidis, Paris 1966.

114- **Rodinson, Maxime**: - Mahomet, Ed. du Seuil, 1974.

115- **Sidersky, D.**: - Les Origines des légendes musulmanes dans le Coran et dans les vies des Prophètes, Librairie orientaliste: Paul Gauthier, Paris 1933.

116- **Turpin, M.**: - Histoire de l'Alcoran, Tome premier, à Londres et se trouve à Paris chez de hansy, Librairie , Pont-au-change.

117 - **Voltaire**: - Essai sur les Mœurs-Annales de l'empire, Furne et Cie, Librairie-éditeurs.

118- **Encyclopédie de l'Islam, nouvelle**, éd. G.P.Maisonneuve Larose, S.A, Paris 1986.

119- **Encyclopédique Larousse,** grand dictionnaire, 3me Tome, Librairie Larousse, Paris1982.

120- **Petit Larousse, Dictionnaire Encyclopédique.**

121- **Groupe de Recherches**: - Islamo-Chrétiens, Ces Ecritures qui nous questionnent la Bible et le Coran, Ed. du Centurion , Paris 1987.

فهرس الموضوعات :